

ابن سناء الملك  
حياته وشعره

١

تحقيق

محمد إبراهيم نصير

مراجعة

الدكتور حسين محمد نصار

الناشر

دار الكتاب العربي للطباعة والنشر  
بمصر

١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م



ابن سناء الملك  
حياته وشعره

# المكتبة العربية

تصدرنا

وزارة الثقافة

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة<sup>١٧</sup>



# ابن سناء الملك

## حياته وشعره

تحقيق

محمد إبراهيم نصير

مراجعة

الدكتور حسين محمد نصار

شبكة كتب الشيعة



الناشر

دار الكتاب العربي للطباعة والنشر

بالمطبعة

١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

shiabooks.net

رابط يديل < mktba.net



# نَفْسِي

للدكتور حسين نصار

كلما راجعت نفسي ، وقلبت أفكاري ، عن هذا « القاضي السعيد » ، وجدتني أمام رجل كان له من اسمه نصيب واف .

رجل نشأ ابناً لأحد كبار رجال دولة « صلاح الدين الأيوبي » ، فانهقدت الصلات الوثيقة بينه وبين كاتبه شهير ، ذى المركز الخطير ، القاضي الفاضل . ولهذه الصلات نصب القاضي الفاضل نفسه راعياً للصبي الذى يلهج بالشعر ، ينقد شعره ، ويقومه ، ثم يذيعه بين الناس ، فيشيد به ، ويثنى على ناظمه ، ويهتبل كل فرصة لتقديمه وإبرازه .

فحصل الشاب على شهرة دانية ، كان - لاشك - مضطراً إلى أن يركب المشاق والمصاعب ، ليدركها بآخرة من حياته ، لولا القاضي الفاضل .

وألف « القاضي السعيد » كتاباً رائداً ، تتبع فيه قواعد ذلك الفن الشعرى الذى شاع فى تلك العصور شيوعاً واسعاً : الموشحات ، وجمع فيه نماذج من فن المغاربة والمشاركة بالإضافة إلى جهوده الخاصة فيه . ولم يلق كتابه « دار الطراز » مثيلاً له ، فشغل موضعاً لم يتحزح عنه ، وضمن الشهرة أن تزول عنه ، وأوتتارى كما فعلت مع كثيرين من معاصريه ومنافسيه .

واختلط عند الناس أمر « القاضي السعيد » المؤلف فى الموشحات ، و« القاضي السعيد » الشاعر ، فاكسب الثانى الشهرة من الأول ، وكانت قدرة الرجل فى التأليف معادلة عندهم لبراعته فى النظم .

وفى العصر الحديث ، منح القدر « للقاضي السعيد » دارساً هندياً جاداً ، دءوباً على العمل ، حريصاً على الوفاء بحق العلم ، هو الدكتور محمد عبد الحق . فجمع عدة نسخ من مخطوطات ديوانه ، وأكب عليها دارساً ، ومقارناً ، ومحققاً ، دون ملل . ثم وضع بين أيدي القراء : « ديوان ابن سناء الملك » ، بعد أن قام على طبعه مجلس دائرة المعارف العثمانية بجيدر آباد الدكن - الهند ، فى سنة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م .

ثم عهدت كلية دار العلوم بجامعة القاهرة إلى السيد محمد إبراهيم نصر أن يقوم بدراسة لنيل درجة الماجستير تتناول حياة ابن سناء الملك ، وجهوده الأدبية ، ومكانته بين معاصريه ، وأن يعيد النظر فى ديوانه ، فيقارنه بالنسخ الموجودة بالقاهرة - رآها المحقق الهندى أولم يرها - ويعرضه على ملكاته العربية ، وذوقه الذى كونه ثقافته العربية ، فيصحح ما يكون قد فات المحقق الأول ، ويستكمل تمحيص ما لم يستطع تمحيصه ، ويخرجه أكثر دقة وروحة ولم يسلم الحظ « القاضي السعيد » بعد ، بل وضع التحقيق والدراسة تحت إشراف الأستاذ عمر الدسوقي

رهياً لمناقشتها لجنة من الأساتذة عبد السلام محمد هارون والدكتور أحمد محمد الحوفي . فكان لهم من التوجيهات والملاحظة ما زاد العمل صحة ودقة .

ولما كان القاضي السعيد عز الدين أبو القاسم هبة الله بن جعفر بن محمد ، المعروف بابن سناء الملك ، المتوفى في سنة ٦٠٨ هـ - ١٢١٢ م من شعراء مصر ، في عصر الحروب الصليبية بل في أكثر عصورها عنفاً ، وامتلاء بالقتال ، وأزهاها بالانتصار ، وكانت الطبعة الهندية قليلة العدد ، لا تخلو من الأخطاء بسبب رداءة النسخ ، وتأخر عهد الشاعر ، وأعجمية المحقق ، وكان المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية قد أنشأ مشروع المكتبة العربية لحماية التراث العربي ، وإحيائه ونشره ، فقد توفرت كل الدواعي لنشر ديوان ابن سناء الملك ، والدراسة حوله ، في الجهد الذي بذله السيد محمد إبراهيم نصر ، ونال عليه تقدير جيد جداً من كليته .

وعندما تفضل القائمون على المشروع بأن أسندوا إلى مراجعة ما قام به السيد محمد نصر ، وجدته قد قام بجهد مبهظ حقاً ، ووجدته حاول جاهداً أن يني بالمنهج الذي اختطه لنفسه .

ولكنني اختلفت معه في أمور ؛ اختلفت معه في التنظيم الذي اتبعه في دراسته ، ودارت بيننا فيه مناقشات طويلة ، انتهت إلى اقتناعه بأكثر ما رأيت . وأجرى من التغيير على الدراسة ما جعله يلتقي معي أو يكاد .

واختلفت معه في بعض النتائج التي وصل إليها ، والآراء التي أدلى بها . وكان بيننا جدل أعنف وأطول من سابقه . فأقنعته بخطأ بعضها فحذفه ، وأقنعني بصحة بعضه فرضيت عنه ، ولم نستطع أن نصل إلى اقتناع في بعضه فأبقينا عليه ، مع بقاء كل منا على رأيه الخاص .

وكان الأمر نفسه في التحقيق . ولكن ما وقع بيننا من اختلاف فيه لم يعد تغاير وجهات النظر ، مما يقع بين المحققين في كل يوم . أضف إلى ذلك أن السيد محمد نصر أقاد من توجيهات لجنة المناقشة ، التي كانت تضم واحداً من أكبر المشتغلين بتحقيق المخطوطات في بلادنا .

وإذ وصلنا إلى هذه المرحلة ، وجدنا لزماً علينا أن نهمل الفاحش من شعر ابن سناء الملك ، إذ رفع فيه كل قناع ، وصرح فيه تصريحاً مؤذياً بالأسماء والصفات والأفعال ، وخلا من اللمسات الفنية التي توقف أنظار القارئ وتشغله عن البداية . وفي ظني أن قصائد ابن سناء الملك هذه ، وقصائد معاصريه من هذا النوع ، إنما هي من الشعر الذي ألف أن يتطارحه الشعراء ، ويمازح بعضهم به بعضاً ، لا يريدون به الهجاء الحق ، ولا حقيقة ما يودعونه لإياه من معان ، بل هي مباراة في الفحش أو الشتم أو وصف عمل شائن أو ما شاكل ذلك من مداعبات الشعراء . وأخيراً وصلنا إلى الصورة الراهنة في الدراسة والتحقيق . واقتنعت أن السيد محمد نصر بذل جهده ، وأفرغ وسعه . فقدم صورة واضحة ، محددة القسمات ، للشاعر في دراسته . وقدم شعره بريثاً من كثير من الأخطاء التي وقع فيها المحقق الأول :

وحينئذ صار الجهد خليقاً بأن يطبع ، وأن يوضع بين أيدي الناس ، يقرؤه المكتفون بالقراءة منهم ، ويدرسه من يريدون استكمال الدراسة ، ويقومون من تقع بين أيديهم أدوات للتقويم لم تقع للمحققين الأولين :

والله أسأل أن نوفق إلى خدمة تراثنا ، والقيام بحق أجدادنا . والشكر أوجهه إلى القائمين على مشروع المكتبة العربية ، لرعايتهم لذلك التراث وإخراجه إلى عالم الضياء :

حسين نصار



## مقدمة

هذا الكتاب ، قد وضعت بذوره منذ أمد بعيد يوم أن كنت طالباً في كلية دار العلوم ، وموظفاً بدار الكتب المصرية سنة ١٩٤٨ ، وفيها التقيت بكثير من المجلدات المظمورة ، والكتب الكثيرة المخطوطة ، التي لم يؤذن لها أن ترى النور ، وتستمتع بالضوء ، وإنما كتب عليها أن تلقى في جانب من دار الكتب تنهب الأرضة خيرها ، وتقرض الجرذان أشعارها ، ويبقى السر معها ، سر العصور والأزمنة التي ترونها .. وهيئات هيئات أن يكتب لأحد منها أن يرى النور ، وأن يبعث خلقاً جديداً فالباحثون قليل ، وهم على قلتهم لا يجدون دفعاً ولا تشجيعاً ، وعجلة المطابع بطيئة ، وهي إن دارت فالقارئون قليل فعلى الباحث أن يعتصر همته ، ويبذل جهده ، ويدمى عينيه ثم عليه بعد ذلك أن يدفع من ماله ، ومن قوت أبنائه ، فإن تيسر له الناشر الذي يكفيه المثوبة ، ويحمل عنه الغرم ، تحمل بدلا منه الغم أيضاً إن كان هناك مغم .

أقول : لقد اتجهت إلى تحقيق ديوان ابن سناء الملك يوم أن كنت طالبا في دار العلوم وكان سبب اختياري هذا الديوان أنني وجدت مانشر من شعره قليلا نادراً ، وأن الكثير منه مجهول أو غير معي به . وهذه الفترة الزمنية التي عاش فيها ابن سناء الملك قد تكون أكثر حظا وأوفى نصيبا في الدراسة التاريخية .. أما حظها من كتب الأدب ومن الدراسة الأدبية المعاصرة ، ومن نشر مغاليقها ودواوينها فقليل .. ولذا لاتصدر الأحكام الأدبية عليها وافية كاملة .. فأردت بدراستي هذا الديوان ونشره خدمة الأدب ، وكشف معالمه في هذه الفترة .. وقد لا يني ديوان ابن سناء الملك وحده في الحكم على الأدب ، واستنباط الأحكام الأدبية في هذا العصر ، ولكنه من غير شك سيكون إحدى الدعائم التي يعول عليها في الحكم والاستنباط .

### تحديد عنوان البحث :

ولم أقنصر على تحقيق ديوان ابن سناء الملك فقط ، وإنما أضفت إليه دراسة لشعره ، وللأغراض التي تناولها من مدح وغزل وهجاء ومجون إلى غير ذلك من الأغراض التي تعرض لها ، ولذا آثرت أن يكون عنوان هذه الدراسة : « ابن سناء الملك - تحقيق ديوانه ، ودراسة شعره » علني - على قدر جهدي - أكون قد وضعت لبنة يستطيع أن يبني عليها من يتطلع إلى المزيد في دراسة أدب هذا العصر .

### البحوث التي تعرضت لشعر ابن سناء الملك :

ولا أستطيع أن أدعى لرسالتى هذه السبق في الكشف عن أدب ابن سناء الملك فقد سبقت إليه ببحوث بعضها كان وافيا في غرضه كدراسة موشحاته في تحقيق « دار الطراز » الذي قام به الدكتور جودة الركابي « والعقم ، والابتكار » في شعر ابن سناء للدكتور عبد العزيز الأهواني .. وبعضها الآخر تناول به دراسة مختصرة لاتشفي غلة الباحث ، ولا تكفي المتعمق الدارس ، وهذه كتب كثيرة منها القديم المعاصر لابن سناء « كالدارس في تاريخ المدارس »

و«الروضتين» لأبى شامة ، و«الضوء اللامع فى أعيان القرن السابع» ، و«نهج السلوك» لعبد الرحمن بن عبد الله من أهل القرن السادس ، و«وفيات الأعيان» و«معجم الأدباء» ، و«النجوم الزاهرة» ، و«السلوك» للمقرئزى إلى غير ذلك مما ورد فى ثبت المراجع التى اعتمدت عليها .

ومنها الحديد المحدث «كالشعر فى العصر الأيوبي وممثلوه الأساسيون» للدكتور جودة الركابى «والحركة الفكرية فى عصر الدولة الأيوبية» ، «ودراسات فى الشعر فى العصر الأيوبي» للدكتور محمد كامل حسين ، و«الأدب فى عصر صلاح الدين» للدكتور محمد زغلول سلام ، و«الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية» للدكتور أحمد بدوى إلى غير ذلك مما ذكرناه فى ثبت المراجع . وهذه كلها تحدثت عنه أحاديث جانبية ، ولم تلتفت إليه التفاتاً شاملاً .

### الصعوبات التى قابلتها فى أثناء البحث وكيف ذلتها

لقد كنت قليل الخبرة ، ناقص التجربة يوم خيل لى أن تحقيق كتاب أدبى أمر سهل ، وعمل ميسور ، ومهمة لا تتعدى النقل والتحرير ، فما هو إلا أن تضع أمامك الأصل الذى تنقل عنه ، ثم تشخذ عزمك وتكتب ، ثم تعكف بعد ذلك على قراءة الكتاب أو الديوان فتفهمه وتستنبط منه بعض خصائص الأدب فى هذا العصر فإذا بك أمام كتاب حتى متحرك يأخذ طريقه إلى القارى فى يسر وبلا مشقة .

كم كنت قليل التجربة ..

فقد اعتمدت بادية\* ذى بدء على النسخة المصورة ٨٤٠٥ فاتخذتها أصلاً ونقلت عنها وكم كانت دهشتى حين قابلت ما كتبه على النسخ الأخرى فهذه قصيدة تربو على الخمسين بيتاً لم أكتب منها سوى عشرة أبيات فقط هى التى عثرت عليها فى النسخة الأولى التى جعلتها أصلية ، وهذه قصيدة وجدت فى التيمورية ولم توجد فى غيرها وبدأت الصعوبات .

فقمتم بعمل فهرس لكل نسخة ، وراجعت الفهارس بعضها على بعض ، وبدأت من جديد كتابة القصائد المشتركة بعد مضاهاتها حتى لا يندمنى بيت أو تسقط منى كلمة ..

ثم صادفتنى صعوبة أشد فبين يديّ نسخة أكل الزمن منها والأرضة بعض أبياتها ، وبعض الكلمات ، فكان علىّ أن أكون يقظاً فى الموازنة والاستنتاج ، وتمثل المعنى حتى أعثر على الكلمة الملائمة واللفظة المنهوبة ، وخاصة إذا لم تكن فى نظائرها من النسخ الأخرى .

ثم صادفتنى صعوبة أقسى وأشد وهى أن بعض الناسخين كانت العجلة أو سوء الفهم ، أو عدم الحرص والاهتمام تؤدى به فى كثير من الأحيان إلى التصحيف أو التحريف أو الترك فيكتب كلمة « طغيانه » بدلا من « طيفابه » و« حاثيا » بدلا من « جاثيا » و« فنى » بدلا من « قسى » و« أغيانى » بدلا من « أغنانى » و« قومنا » بدلا من « قوموا بنا » وربما كان الناسخ يملأ عليه فيختلط عليه السماع فيكتب الكلمة كما يخيّل إليه سمعه لا كما هى فى الواقع .

ولا يظن القارى\* أن هذه الصعوبة هينة فلقد كنت أقف بجوار الكلمة أكثر من نصف ساعة ثم أتركها دون أن أهتدى إليها ... وطالما استعنت بالكثيرين من رواد دار الكتب وهم من الفضلاء الباحثين ، ثم وقفت أنا وإياهم سواء دون أن نهتدى ، ولكنى أنفقت غاية جهدى ، ومنتهى عزمى فوقفت كثيراً ، وخاننى التوفيق حيناً .

وليس أمر الوزن وتحقيق موسيقى الأبيات بأيسر مما مضى ، ففي كثير من القصائد والمقطعات ينبو سعى ،  
ويقف قلبي ليردد البيت مرة ومرة ، وليراجع فيه موسيقى الوزن ، ويندفع القلم إلى الحذف أو الإثبات ، أو  
التحريك أو التسكين .

إن تحقيق ديوان من الدواوين بله ديوان ابن سناء الملك عمل شاق ، وجهد جاهد ، ونصب مضن ، فالوجه  
العام وإحياء الأدب ، وخدمة الوطن ما قمت به من جهد عن رضى واقتناع وإيمان .

**محمد ابراهيم نصر**



البَابُ الْأَوَّلُ

عَصْرُ الشَّاعِرِ



## الفصل الأول

# الحياة السياسية

كان العصر الفاطمي الثاني الذي بدأ في أواخر عهد المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) بداية ضعف هذه الخلافة ، وظهور الوزراء العظام الذين استأثروا بالسلطة ، وتنازعوا الحكم ، وساعدوا على ارتباك البلاد ووقوعها في خضم من الفتن والثورات والفلاقل .

وكانت الوزارة كلجنة القراعة تصيب من يسعى إليها فلا يلبث أن يقتل أو يفر أو يموت ، ولم يترفع الخلفاء ولا الوزراء عن تدبير المؤامرات ، وارتكاب جرائم القتل ، وحسبنا أن نعلم أنه منذ وثب « بدر الجمالي » على كرسي الوزارة في أواخر عهد المستنصر حتى عهد الخليفة العاضد آخر خلفاء الدولة الفاطمية - ولى الوزارة ما يقرب من أحد عشر وزيراً قتل منهم سبعة وزراء ، ومات اثنان ، وفر الباقيون .

وقد هيا الخلافة بين الفاطميين والعباسيين ، وهذا الصراع العنيف الدامي - الفرصة أمام جحافل الغزو الصليبي ، فدنسوا بأقدامهم أرض الشرق ، وكونوا لهم إمارتين في بيت المقدس وأنطاكية ، بعد أن قتلوا آلاف المسلمين ، ومثلوا بهم شرميل فبقروا بطون الحوامل ، وقتلوا الأطفال والشيوخ ، ودخلوا المساجد بخيلهم ولم تستطع قوى الفاطميين الثبات أمامهم ، على الرغم من القوة العظيمة التي جابههم بها الأفضل بن بدر الجمالي سنة ٤٩٢ هـ ، (١) لأن الخلافة العباسية أبت أن تمد يدها للخلافة الفاطمية في اتخاذ موقف موحد أمام الصليبيين (٢) .

وكانت الحروب الصليبية الشر الذي انبثق منه الخير ، فحقاً أنها عاثت في بلادنا العربية فساداً ، ونشرت ظلماً واضطهاداً ، واستذلت بلاداً وسكاناً ، إلا أنها مع ذلك هيأت الجو لقيادات صالحة ، ومهدت لفجر جديد أشرق على البلاد العربية ، التي وحدتها الأهداف ، وقوتها الأحداث . وما أشبه الليلة بالبارحة . وما أشد الشبه الآن بين إسرائيل الدخيلة وبين الصليبيين السفاكين ، وكما اجتثت العروبة الموحدة شأفة الصليبيين ، وطهرت البلاد من رجسهم فكذلك شأن مصير إسرائيل .

لم يكد « صلاح الدين » يلي وزارة مصر حتى وجه كل همه وذكائه إلى استقرار الأمور فيها ، فكان لبن العريكة سمحاً ، قوى البأس شديداً ، ثاقب النظرة ، يرى ما وراء الظواهر ، استطاع أن يقضي على الفتن والدسائس التي كانت كل هم القصر ، ولم يمكن الوشاة من أغراضهم الدنيئة ، بسلطنة مصر ، وخطب للخليفة العباسي في أول الحِرم سنة ٥٦٧ هـ التي مات فيها العاضد ، ثم وجه عنايته إلى استتباب الأمور واستقرار الأمن ، وتوحيد البلاد ، فأرسل أخاه « توران شاه » إلى فتح بلاد النوبة فوطد الأمور بها ، وأمن جنوب البلاد .

(١) النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق : ٦٧

(٢) النجوم الزاهرة : ٥ : ١٤٩

وقد مدحه الشاعر عمارة اليمنى بكثير من القصائد ، وحبب إليه فتح بلاد اليمن فسار « شمس الدولة توران شاه » في سنة ٥٦٩ هـ إلى اليمن إذ لم يجد في النوبة طائلا ، فاستقر فيها أمره وعاد إلى « زبيد » فملك الحصون والجند (١) .

ولم تقف آمال « صلاح الدين » عند توطيده الأمور في مصر ولكنه رأى أن القضاء على الصليبيين لن يتيسر له إلا إذا توحدت أجزاء الوطن العربي وبخاصة بلاد الشام حتى يتيسر له حصر العدو وتضييق الخناق عليه ووقوعه بين فكي الكماشة . ولذا انتهز « صلاح الدين » وفاة الملك العادل نور الدين سنة ٥٦٩ هـ فقدم إلى دمشق في جيش كثيف بحجة أنه سيحمي الملك الصالح إسماعيل الذي ولى الأمر في دمشق بعد موت أبيه « نور الدين » لصغر سنه ، وعدم قدرته على مواجهة أعباء الحكم . (٢)

وسرعان ما استقبل « صلاح الدين » في دمشق استقبال الفاتحين الظافرين فوزع الجوائز والمنح ، والتف حوله الشعراء والأدباء يمدحونه ويشيدون ببطولته وانتصاراته .

وتم بذلك له توحيد مصر والشام والجزيرة تحت إمرته فاتخذ من ذلك قوة غلبة ليقضى بها على الصليبيين .

لقد يسرت هذه الوحدة بين أجزاء الوطن العربي توحيد القيادة العربية ، ووفرت الموارد ، وقطعت أسباب العداء والخلاف بين القواد ، كما أتاحت وحدة المذهب الديني ، وانتشار المذهب السني ، وقضت على الدسائس والمؤامرات في القصور . (٣)

ولقد كانت هذه الوحدة أملا يداعب خيال الشعراء والأدباء والمخلصين ، وأوحت هذه الوحدة للشعراء بفن جديد أطلق عليه الدكتور محمد كامل حسين « فن الشعور بالقومية الإسلامية » واشترك في هذا الفن عدد كبير من الشعراء في مختلف البلاد الإسلامية ، ومحى التعصب لفكرة القومية المحلية ، كما محى تفضيل العرب على الأعاجم (٤) وسرعان ما دب الرعب والفرع في نفوس الصليبيين ، فلم تغن عنهم كثرتهم شيئا وضاعت عليهم الأرض بما رحبت ، وتوالت هزائمهم ، وانكشفت ظهورهم ، ووقف « صلاح الدين » أمام الصليبيين سدا منيعا ، وصخرة عاتية تكسرت عليها آمالهم وانهارت مطامعهم .

ولذا كان لزاما علينا أن نوضح الدور الهام الذي قام به « صلاح الدين » أمام الصليبيين .

قضى « صلاح الدين » السنوات الأولى لحكمه في توطيد دعائم دولته ، وتوحيد الجبهة الإسلامية ، وتحللت هذه الفترة مناوشات بسيطة بينه وبين الصليبيين (٥) ، كانت تنتهي في الغالب بهدنة بين الطرفين ، إلا أن الأمير « أرناط » صاحب حصن « الكرك » دأب على قطع طريق القوافل بين مصر والشام ، وحاول غزو الحجاز ولم يحترم شروط الهدنة بينه وبين « صلاح الدين » .

أثارت هذه العوامل وعوامل أخرى غيرها « صلاح الدين » فتوجه من « دمشق » لمحاصرة « الكرك » ،

(١) الاغتباط في حلى مدينة القسطنطين لابن سعيد خط ج ٢ ص ٢٧٠ والخطط للمقريزي ج ٢ ص ٣٧ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ : ٢٤

(٣) راجع منشور الرقة الذي كتبه القاضي الفاضل في الروضتين ج ٢ ص ٤٧ .

(٤) راجع « دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين » للدكتور محمد كامل حسين ص ٨٧ .

(٥) الادب في عصر صلاح الدين للدكتور محمد زغلول : ٣٥



ووصل أخوه الملك العادل من مصر في جمع عظيم ، وجيش كبير ، غير أن الصليبيين قابله بـجيش كثير العدد والعدد قريث «صلاح الدين» وأعاد تنظيم بلاده .

فلما كان نهار الجمعة الرابع عشر من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ (١) قصد «صلاح الدين» بعدد كبير من عسكره نحو «طبرية» (٢) على سطح الجبل ينتظر قدوم الصليبيين الذين اجتمعوا في عدد كبير بـمـرج صفورية بأرض «عكا» ولكنهم لم يتحركوا من أماكنهم ، فهاجم «صلاح الدين» على «طبرية» واستولى عليها في ساعة واحدة ؛ ولما بلغ العدو ماجرى قلقوا ؛ وتحركوا للدفاع عن أنفسهم وملاقاة «صلاح الدين» فاستهان المسلمون بالموت ، وأحسوا قوة المبادئ التي يدافعون عنها ، وأرضهم الطيبة التي دنسها هؤلاء المعتدون ، وصاحوا في قوة وإيمان : الله أكبر ، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين وشتت شملهم ، وراحوا يلوذون بالفرار وتبعهم المسلمون ، وأحاطوا بهم من كل جانب ، وأطلقوا عليهم السهام ، وحملوا غنيهم بالسيف ، وسقوهم كأس الحمام ، واعتصمت طائفة منهم «بتل حطين» (٣) فضايقتهم المسلمون ، وأشعلوا حولهم النيران ، واستبد بهم العطش ، فاستسلموا للأسر خوفا من القتل ، فأسر مقدمتهم ، وقتل الباقون ، وكان ممن أسر منهم الملك «جودفرى» (٤) وأخوه الملك «بلدوين» (٥) ، و «أرنات» صاحب الكرك والشوبك .

وألهب هذا النصر قرائح الشعراء ، فراحوا يتغنون به ، ويزدهون بقائد الإسلام وينددون بهذه الهزيمة النكراء التي لحقت بالصليبيين وفي ذلك يقول العماد الكاتب قصيدة طنانة مطلعها :-

حططت على حطين قدر ملوكهم ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا (٦)

وقال ابن الساعاتي قصيدة عظيمة في هذا الفتح مطلعها :-

جلت هز ماتك الفتح المبين  
فقد قررت عيون المؤمنين (٧)

كان لهزيمة الإفرنج في موقعة حطين أثرها الواضح في تقوية الروح المعنوية لدى جنود المسلمين ، فتهافت أمامهم معاقل الصليبيين وحصونهم حصنا وراء حصن (٨) وأحاطوا بالقدس من جميع الجهات ؛ ففي يوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ التقوا بالأعداء الذين وهن عزمهم وضعف قتالهم ودب الرعب في قلوبهم فانهزموا رغم كثرتهم إذ قدر عددهم في هذه الواقعة بستين ألفا عدا النساء والصبيان وسلموا المدينة في سبع وعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ أي ليلة الإسراء والمعراج ، فارتفعت أسنة الشعراء بتمجيده وتعظيمه . فمدحه فخر الكتاب أبو علي الحسن بن علي الجويني المقيم بمصر بقصيدة مطلعها :-

(١) الروضتين ج ٢ ص ٧٥

(٢) وهي بلدة مطلة على بحيرة طبرية الواقعة بين الأردن وإسرائيل والإقليم السوري .

(٣) وهي قرية عندها قبر النبي شبيب عليه السلام .

(٤) وهو في الكتب العربية كالنجوم الزاهرة ، والاعتباط في حل مدينة الفسطاط ، وصبح الأعشى «جوفرى» وهو

دوق اللورين .

(٥) وهو في الكتب العربية القديمة «بلوين» انظر المراجع السابقة .

(٦) مطلع قصيدة طويلة في الروضتين ج ٢ ص ١١٣ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٤

(٧) الروضتين ج ٢ ص ٨٤ ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٤ .

(٨) راجع كتاب الروضتين ج ٢ ص ٨٧

جند السماء لهذا الملك أعوان من شك فيهم فهذا الفتح برهان (١)  
وقد مدحه كذلك الشريف النسابة المصرى محمد بن أسعد بن على بن معمر الحلبي المعروف بالخوانى  
نقيب الأشراف بالديار المصرية بقصيدة مطلعها :-

أترى مناماً ما بعينى أبصر القدس يفتح والفرنجة تكسر (٢)  
وقال أبو الحسين بن جبير الأندلسى :-

أطلت على أفكك الزاهر سعود من القلك الدائر  
فأبشر فإن رقاب العدا تمتد إلى سيفك الباتر (٣)  
ومدحه العماد الكاتب بقصيدة مطلعها :-

استوحش القلب مذ غبم فما أنسا وأظلم اليوم مذ بتم فما شمسا  
وقال الحكيم أبو الفضل عبد المنعم بن عمر بن حسان الأندلسى الجيانى قصيدة منها :-

أبا المظفر أنت المجتبى لهدى أخرى الزمان على خبر بخبرته  
فلو رآك وقد حزت العلى عمر فى قلة التل قضى كنه عبرته  
ولو رآك وأهل القدس فى وله أبو عبيدة فدى من مسرته  
وقال الرشيد بن بدر النابلسى :-

هذا الذى كانت الآمال تنتظر فليوف لله أقوام بما نذروا  
بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت فى سالف الدهر أخباراً ولا سير

وقد مدحه كذلك «نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور» الوزير العزيزى ، وغيره من الشعراء (٤) .  
وآذن سقوط القدس فى يد المسلمين بسقوط كثير من بلاد الفرنج وحصونهم (٥) ولم يقف فى سبيلهم  
غير مدينة «صور» وقد حاصرها «صلاح الدين» ، واستدعى أسطولا من مصر لمعاونته ، ولكن أسطول صور  
خرج بالليل فأوقع بأسطول المسلمين على حين غرة ، وقتل عدداً كبيراً مما أجبر صلاح الدين على الانسحاب ؛  
ففرق عساكره ورحل إلى دمشق ، ولم يكد يقيم بها أكثر من خمسة أيام حتى وافاه النبأ بأن الفرنجة قصدوا  
«جبله» فاغتالوها فخرج مسرعاً يجمع عساكره من هنا ومن هناك حتى وصل إلى «أرنتنطوس» فحاصرها وقهرها  
واستولى عليها ، ثم اتجه إلى «جبله» فاستولى عليها أيضاً وتبعثها «الأذقية» ورفع العلم الإسلامى عليها ، وظل  
السلطان يطهر البلاد والحصون من الفرنج ويستولى عليها حصناً بعد حصن حتى كان اليوم الثالث عشر من رجب  
سنة خمس وثمانين وخمسمائة ٥٨٥ هـ قبله أن الفرنج قصدوا «عكا» فاتجه إليها ودخلها بقتة ليقوى بها قلوب

(١) الروضتين ج ٢ : ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٠٥

(٣) الروضتين : ج ٢ ص ١٠٦

(٤) هذه القصائد السابقة فى الروضتين ج ٢ ص ١٠٣ وفى النجوم الزاهرة ج ٦ : ص ٣٧ تفاصيل وافية عن هذه الواقعة.

(٥) وقد ذكر أبو شامة فى كتابه الروضتين الكثير منها : طبعة - عكا - الزيب - معليا - اسكندرية - تين - =

المسلمين ولكن الفرنجة تكاثروا واستفحل أمرهم وتوالت عليهم الإمدادات برأ وبحراً حتى استظهروا على الجماعة الإسلامية وضايقوهم وأخذوا عكا عنوة . (١) ، وقتل في هذه الموقعة زهاء ثلاثة آلاف مسلم .

وتتأت المعارك بعد ذلك بين السلطان صلاح الدين وبين الفرنج ، غير أن جنده كان قد سم الحرب وضاق بها فقويت شوكة الصليبيين ولذا استقر رأى السلطان صلاح الدين على الصلح .

وأبرم الصلح (٢) بين الفريقين لمدة ثلاث سنوات تبدأ من اليوم العشرين من شعبان سنة ٥٨٨ هـ وافق ٢ من سبتمبر ١١٩٢م فوضعت الحرب أوزارها لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر ، وفرق صلاح الدين عساكره وعكف على تنظيم البلاد وإعادة بنائها فأصلح القدس (٣) وتنفذ أحوال البلاد الساحلية ودخل دمشق ونشر جناح عدله وهطلت سحائب إنعامه ، وأنشده الشعراء حتى وافاه أجله في ليلة الأربعاء ٢٧ من صفر سنة ٥٨٩ هـ فكانت وفاته دمة في كل عين ، وشجى في كل حلق وأسى في كل قلب مات رحمه الله تعالى عن سبع وخمسين سنة (٤) .

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكانهم وكأنهم أحلام (٥) وانتهت بذلك صفحة مشرقة من صفحات الجهاد أمام الغزو الصليبي .

ولما ولي الملك العزيز عثمان أمر مصر جدد الهدنة مع الصليبيين غير أنه قد جرت مناوشات بين الفريقين لم يترتب عليها نتائج ذات أهمية حتى تم الصلح بين العادل والعزيز من جهة؛ وبين الفرنج من جهة أخرى في شعبان سنة ٥٩٤ هـ ، ١٢٠٤ م لمدة ست سنوات (٦) .

وفي سنة ٦٠٠ هـ ، ١٢١٠ م عاود الفرنجة اعتداءاتهم ونهبهم : بعد أن انقضى أمد الهدنة ، فصالحهم العادل من جديد ، وجدد الهدنة لخمس سنوات أخرى ، وأعطاهم بعض البلاد ، وشجعهم ما بين الأمراء والملوك المسلمين من تفكك أن يعيشوا في البلاد فساداً ؛ فقصدوا حماة فلقبهم أميرها الذي لم يقف بجانبه أحد من الملوك الآخرين - فهزموه فخرج العامة للقائهم (٧) وأبلوا بلاء حسناً في الدفاع عن أرضهم ووطنهم ، واستشهد منهم عدد كبير ، ومن هذه المعارك وأمثالها نجد أن الشعب لم يكن بمعزل عن السياسة والحرب ، وإنما اشترك فيها وخاض غمارها .

بعد أن عقد العادل الصلح بينه وبين ملك بيت المقدس الجديد المعروف باسم «حنا بريين» أرسل حنا هذا في الوقت نفسه إلى روما يطلب إعداد حملة صليبية جديدة وإرسالها بعد انتهاء أمد الهدنة ، وترامت إلى مسامع

= هوتين - الناصرة - الطور - صقورية الروضتين ج ٢ ص ٨٨ ) .

(١) راجع النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٤٥ والاغتباط في حل مدينة القسطنطين ج ٢ ص ٢٤٨ .

(٢) وفي كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩٩ ، ٢٠٠ صور المراسلات التي دارت بين الفريقين للصلح .

(٣) الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ٢٢١ ، وقد جاء في مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ : ٤٠٣ أن الهدنة بدأت من ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨ لمدة خمس سنوات .

(٤) المرجع السابق ص ٢٢٦ .

(٥) راجع الاغتباط في حل مدينة القسطنطين ج ٢ ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

(٦) الكامل : ٩ : ٢٣٨ ، مصر في عصر الأيوبيين : ١١٢ .

(٧) الكامل : ٩ : ٢٦٥ .

الملوك الأيوبيين أنباء هذه الحملة فقرّبوا ما بينهم ، وحاووا أن يتناسوا أحقادهم ، وكان الصليبيون قد كثروا في طرابلس وحصن الأكراد ، وأغاروا على حمص ، ولم يجد أميرها من يغيثه سوى الملك الظاهر صاحب حلب الذى تمكن من ردهم عنه . (١)

والواقع أن الاضطراب فى صفوف الصليبيين فى الشرق - بسبب التنازع بين الإمارات الصليبية ، وبين الإمارات الأرمنية ، وما حدث من مشاحنات بين الطوائف الدينية العسكرية من جهة أخرى - هو الذى أفاد الأيوبيين المختلفين أيضا ، المتنازعين على الحكم والسلطان. يضاف إلى ذلك أن المسيحيين الوطنيين صاروا يكرهون الأوربيين ويفضلون حكم المسلمين ، وكان هؤلاء الأوربيون قد انصرفوا إلى اللهو والفساد ، حتى رجال الدين منهم شاركوا فى تدبير المؤامرات ، وأفادت الجاليات الإيطالية من العلاقات الودية مع المسلمين فى تنشيط تجارتها ، وزيادة رخائها (٢) .

ولهذه الأسباب مجتمعة تمكن العادل - حين أسرت بعض السفن المصرية ، فى أثناء الهدنة فى قبرص - أن يخرج فى جيش من مصر إلى عكا ليرغم ملكها الذى عاد إليه حكم قبرص على إعادة السفن ، وإعادة الأسرى ، وتم له ما أراد . (٣)

---

(١) الكامل : ٩ : ٢٩٧

(٢) مصر فى عصر الأيوبيين : ١١٣

(٣) الكامل : ٩ : ٢٩٧

# الفصل الثاني الحياة الأدبية

## مجالس الخلفاء والوزراء ونفد الشعر ومدارسه في هذا العصر

لم تشغل الحروب الصليبية الخلفاء والوزراء عن الشعراء والأدباء ، فقربوهم إلى مجالسهم ، واستمعوا إلى قصائدهم التي ألهمت مشاعرهم ، وأذكت حماسهم وعواطفهم فتمسكوا بالنصر ، ونعموا بلذة الجهاد ، ونشوة المدح .

وكان الخلفاء والأمراء والوزراء لا ينسون أنفسهم يوم أن تضع الحرب أوزارها ، ويخمد أوارها ، فيعقدون انشدات ، يستمعون فيها إلى النواذر والفكاهات ، أو يطربون بتغريد إحدى المغنيات ، أو يتبارون مع الشعراء في مدارس الشعر ونقده .

وكان بعض هؤلاء الخلفاء ميل فطري إلى الشعر حتى أن بعضهم كان يجيد قرضه وإنشاده ، فلقد كان الملك «الأفضل» بن صلاح الدين شاعراً ، وذكر ابن خلكان أن تاج الملوك بوري أخا صلاح الدين الأصغر كان شاعراً وترك ديواناً من الشعر وكذلك اشتهر الملك الكامل بن الملك العادل ، وأخوه الملك المعظم عيسى كان يصدر في الشعر عن طبيعة سهلة ، حتى عرف بذلك بين الشعراء ؛ وكان الشعراء إذا لم يتكلف أحدهم في قرض الشعر وصفوه : «بأنه يفعل فعلاً معظماً» (١) .

واشتهر كذلك المنصور بن المظفر عمر بن شاهنشاه والى حماة بالشعر ، ووضع كتباً في الشعر منها «طبقات الشعراء» . وكان إبراهيم بن فروخشاه والى بعلبك شاعراً أديباً حتى قيل إنه أشعر بني أيوب ، وله ديوان شعر .

ولقد كان الحكام في المشرق وفي المغرب يطربون للأدب ، ويقرّبون الأدباء ، والشعراء ، ويستوزرون الكتاب ، (٢) فقد ازدهر الأدب في بلاطات سلاطين السلاجقة وسلاطين الخوارزميين ، (٣) وكانوا يعشقون الأدب والأدباء ، وكان الكتاب يدونون رسائلهم ونتائجهم باللغتين العربية والفارسية . (٤) وقد اشتهر «صلاح الدين» و «نور الدين محمود» بميلهما للأدب ، وتقريبهما الشعراء ، واستماعهما

(١) الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية

(٢) Browne ٣٤٤

(٣) الدولة الخوارزمية من ٧٧ - ٨٩

(٤) Brown : ٣١٧ والأدب في عصر صلاح الدين : ٢١١

القصائد التي تسجل انتصارهما ، وتخلد مآثرهما ، وكان كل منهما لا يبخل على الشعراء بالمال والعطاء ، وكان صلاح الدين كثيراً ما يستدعى بعض مقربيه ويطلب إليه أن يقرأ عليه في ديوان أحد الشعراء ، وكان ديوان ابن منقذ الشاعر الشامي المعاصر من أفضل الدواوين لديه ، كذلك كان ابن منقذ نفسه ؛ فقد حظى بعطفه في أواخر أيامه ، وكان الشاعر قد بلغ من العمر مرحلة الشيخوخة . (١)

وذكر المؤرخون أن «صلاح الدين» كثيراً ما كان يردد في مجالسه قول أبي المنصور محمد بن الحسن الحميري :

وزارني طيف من أهوى على حذر من الوشاة ونور الصبح قد هتفا  
فكدت أوقف من حولي به فرحا وكاد يهتك ستر الحب بن شغفا  
ثم انتبهت وآمالى تخيل لي نيل المنى فاستحالت غبطى أسفا  
وكان يعجبه قول ابن المنجم :

وما خضب الناس البياض لقبحه وأقبح منه حين يظهر ناصله  
ولكنه مات الشباب فسودت على الرسم من حزن عليه منزله  
فكان إذا قال «ولكنه مات الشباب» يمسك بكريمته (يريد لحيته) وينظر إليها ، ويقول : «أى والله مات الشباب» . (٢)

وقد اشتهر «تاج الملوك بوري» أخو صلاح الدين الأصغر بشغفه بالأدب ، ومنادته الأدباء حتى روى ابن خلكان أنه ترك ديوانا من الشعر ، ومنه قوله : —

آه من ورد خديك بالمسك منقط بين أجفانك سلطان على ضعفى مسلط  
قد تصبرت وإن برح بن الشوق وأفرط فلعل الدهر يوما بالتلاقى منك يغلط  
ومن شعره يهتف بحب مصر :

شربت من الفرات ونيل مصر أحب إلى من ماء الفرات  
ولى في مصر من أصبو إليه ومن في قربه أبدا حيانى  
فقلت وقد ذكرت زمان وصل تمادى بعده روح الحياة  
أرى ما أشتهيه يفر منى وما لا أشتهيه إلى ياقى (٣)

وقد قضى الملك الكامل بن الملك العادل أربعين سنة في حكم مصر دأب فيها على تشجيع الأدباء والعلماء ، ورويت عنه أخبار أعادت إلى الأذهان سيرة هارون الرشيد ؛ فقد كانت تبيت عنده في القلعة في كل ليلة جماعة من أهل العلم ، فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه ، فنفتت العلوم والآداب عنده ،

(١) الأدب في عصر صلاح الدين : ٢٦٦

(٢) الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية : ٥٨ ، ٥٩

(٣) الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية : ٦٥

وقصده أرباب الفضائل ، ونوادره الأدبية أكثر من أن تحصى ، منها على سبيل المثال : أنه كان في ليلة من الليالي جالسا فدخل عليه شاعر من الشعراء اسمه المظفر ، فقال له الكامل :

أجز يا مظفر : « قد بلغ الشوق منتهاه » .  
قال مظفر : وما درى العاذلون ما هو  
قال الكامل : ولى حبيب رأى هوانى  
قال مظفر : وما تغيرت عن هواه  
قال الكامل : رياضة النفس فى احتمال  
قال مظفر : وروضة الحسن من حلاه  
قال الكامل : أسمر لدن القوام ألى  
قال مظفر : يعشقه كل من يراه  
قال الكامل : وريقه كله مدام  
قال مظفر : ختامها المسك من لماه  
قال مظفر : ليلته كلها رقاد  
قال مظفر : وليلى كلها انتباه  
قال الكامل : وما يرى أن أكون عبدا  
فقام مظفر على قدميه وقال : « بالملك الكامل احتماه »

العالم العامل السدى فى كل صلاتنا نراه  
ليث وغيث وبدر تم ومنصب جل مرتقاه (١)

وهكذا كان الخلفاء والأمراء يجدون فى حديث الأدب والشعر راحتهم ومتنفسهم ، بعد أن يلفحهم هجير الحرب ، فيجدون فى مجالسهم وسمرهم ومتنذاهم ما ينسبهم نار الحرب وويلاتها  
ومن طريف ما يروى أن ابن شيث الشاعر كتب مرة للملك المعظم « عيسى » أنه لما فارقه ودخل منزله طالبه أهله بما حصل له مع السلطان ، فقال لهم : ما أعطانى شيئا فقاموا إليه بالخفاف وصفعوه فكتب بعد ذلك شعرا يقول فيه :

وتحالف بعض الأكف كأنها التصفيق عند مجامع الأعراس  
وتطابقت سود الخفاف كأنها وقع المطارق من يد النحاس (٢)

فرمى المعظم الرقعة إلى فخر القضاة ابن بصاقة وقال : أجبه عنها فكتب إليه نثرا وفى آخره :  
فاصبر على أخلاقهن ولا تكن متخلقا إلا بخلق الناس  
واعلم إذا اختلفت عليك بأنه (ما فى وقوفك ساعة من باس)

(١) الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية : ٦٤

(٢) فوات الوفيات : ١ : ٥٦١

والعجز صدر بيت مشهور لأبي تمام تمامه : «نقضى ذمام الأربع الأدراس» .

وقد حفظت لنا كتب التاريخ والأدب الكثير من مجالس الشعراء والأدباء وأخبارهم وطرائفهم فكانوا يجتمعون في المغاني لاستماع الأغاني ، ويذهبون زرافات إلى التمتع بالجزيرة والجزيرة والأماكن العزيزة ، فالعماد الأصهباني يروى أنه لما جاء إلى مصر صفت له الحياة ، وارتاح إليها ، وإلى أهلها قال : «وتوفرنّا على الاجتماع في المغاني لاستماع الأغاني ، والتنزه في الجزيرة والجزيرة ، والأماكن العزيزة ، ومنازل العز والروضة ، ودار الملك والنيل ، والمقياس ومراسي السفن ومجاري الفلك ، والقصور بالقرافة ، وربوع الضيافة ورواية الأحاديث النبوية ، والمباحثة في المسائل الفقهية ، والمغاني الأدبية ، قال : واقترحنا على القاضي ضياء الدين الشهرزوري أن يفرجنا في الأهرام فقد شغفنا بأخبارها في الشام ، فخرج بنا إليها ودار بنا حولها ، ودنا تلك البرابي والبراري والرمال والصحاري ، وهالنا أبو الهول ، وضاق في وصفه مجال القول ، ورأينا العجائب ، وروينا الغرائب ، واستصغرنا في جنب الهرمين كل ما استعظمناه ، وتداولنا الحديث في الهرم ومن بناه ... الخ» (١)

وكان للخلفاء بصر بالشعر الجيد ، وذوق فني في النقد ، روى أن العماد الأصهباني عرض على «صلاح الدين» يوماً يضع أبيات في وصف المشمش ومنها قوله :

بدت بين أوراق الغصون كأنها كرات نصار في بلجين مطرق  
فقال صلاح الدين : تشبيه الورق بالبلجين غير موفق ، لأن الورق نفسه أخضر .  
قال العماد : كرات نصار بالزمرد محقق ، فقال لا بأس . (٢)

وشاعت بين الأدباء في ندواتهم واجتماعاتهم روح النقد ، فكثيراً ما كانوا يجتمعون ويتناولون بالنقد أدبياً من أدبائهم ، ويتحدث كل منهم حديثاً عن أدبه ، ومما يروى أن القاضي الفاضل قد جلس يوماً وحوله ثلة من الأدباء فتحدثوا عن أدب العماد الأصهباني فقال القاضي الفاضل لأصحابه : قولوا رأيكم فيه ، فشبّهوا قريحته ومنطقه بصفات لم يقبلها القاضي الفاضل ... فعقب على قولهم وقال : «هو كالزناد ظاهره بارد وداخله نار . (٣) وقد كان يعتريه العي والتلجلج أحياناً ، لذا قال عنه ابن عساكر : «قالوا قد كان منطوقه يعتريه جمود وفرة ، وقريحته في غاية الجودة والحدة» (٤) »

وقد حفلت كتب الأدب والتاريخ بكثير من أخبار الأدباء ونقدهم في هذه الفترة ، ومن العبارات اللاذعة في النقد ، ما رواه ياقوت الحموي من أن تاج الدين الكندي ، سمع مرة شعراً للحافظ بن عساكر فقال : «هذا شعر أضاع فيه صاحبه شيطانه» (٥)

وقال ياقوت نفسه في شعر أحد العلماء : «ولهذا أشعار من هذا النمط ترك الكاغد أبيض خبير من تسويده بها» . (٦)

(١) الروضتين : ١ : ٢٦٧ ، الأدب في عصر صلاح الدين : ٢٤٦

(٢) الأدب المصري : عبد اللطيف حمزة : ٥٩

(٣) البداية والنهاية : ١٣ - ٣٠

(٤) الأدب في عصر صلاح الدين : ٢٥١

(٥) إرشاد : ٥ - ١٤٥

(٦) إرشاد : ٥ - ٤١٤ ، الأدب في عصر صلاح الدين .



وقد سافر «ضياء الدين بن الأثير» إلى مصر سنة ٥٩٦ هـ واتصل بأدبائها ، وكان بها في ذلك الوقت «ابن نجية» الحنبلي ، و «البلطي» النحوي ، و «ابن معط» ، و «القاضي الفاضل» ، و «ابن سناء» و «الأسعد ابن مماتي» و «علي بن ظافر» وغيرهم ، وقد اجتمع بهؤلاء الأدباء وناظرهم وقال في الوشئ المرقوم : «ورأيت مصر الناس مكبين على شعر أبي الطيب المتنبي دون غيره ، فسألت جماعة من أدبائها عن سبب ذلك ، وقلت : إن كان لأن أبا الطيب دخل مصر فقد دخلها قبله من هو مقدم عليه ، وهو أبو نواس ، فلم يذكروا لي في هذا شيئا ثم إنني فاوضت القاضي الفاضل في هذا فقال : «إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس ، ولقد صدق فيما قال» (١)

ولقد تركت هذه الآراء في النقد ، وكذلك تلك المجالس الأدبية ، ورعاية السلاطين لها ، وميلهم إليها أثرا واضحا في نهضة الشعر خاصة والأدب بصفة عامة في هذه الفترة .

---

(١) الوشئ المرقوم ١١ ، الأدب في عصر صلاح الدين : ٥٨



# أثر الشعر الفاطمي في الشعر الأيوبي

ظهر في العصر الفاطمي عدة مدارس للشعر ، تسربت منها سماتها إلى شعراء الأيوبيين : ولها : مدرسة شعراء العقائد ، ونعني بهم شعراء المدح الذين فاض شعرهم بالمصطلحات والعقائد الفاطمية ، وقد استعملوا الألفاظ الضخمة القوية ذات الجرس الصاخب لتتلاءم مع تلك المصطلحات ؛ فجاء في شعرهم غريب المصطلحات في غريب الألفاظ مما أدى أحيانا إلى شيء من التعقيد ، وكان شعرهم أقرب إلى النظم في أغلب الأحيان ، واستمرت سمات هذه المدرسة في عصر الأيوبيين على الرغم من أن الشعراء لم يكونوا شيعيين ، فالعقائد الفاطمية بمصطلحاتها ظهرت في مدائح الشعراء على الرغم من تنكرهم للشيعية وإيمانهم بالمذهب السني (١) فابن الساعاتي يمدح الخليفة العباسي الناصر بانتسابه إلى الرسول ، وإلى الوصي على بن أبي طالب ، وجعفر بن أبي طالب ، وعقيل بن أبي طالب ، وحزمة بن عبد المطلب (٢) .

وقد مدحه : « بأن له شرف البيت العتيق وزمزم ... » وهذا معنى من المعاني الفاطمية التي تؤول الشعائر على أنهم الأئمة ، وقد شرفهم الله بذلك . (٣)

وفي أحد أبيات هذه القصيدة يجعل الخليفة العباسي فوق السبع الشداد أي في منزلة المبدع الأول « العقل الأول أو القلم » وهذا المعنى لا يمدح به إلا إمام إسماعيلي .

وكان « ابن النبية » (٤) أجراً الشعراء المصريين في الأخذ من عقائد الفاطميين ، وأشدهم مبالغة ، ففي مدحه الخليفة الناصر العباسي كان متأثرا بالعقائد الفاطمية الماثلة في أذهان الناس ، وقد خيل إليه أنه يمدح الإمام الفاطمي لا العباسي . فافرق ما قاله في مدح الخليفة الناصر :

بغداد مكتنا وأحمد أحمد  
حجوا إلى تلك المنازل واسجدوا

وقد جعل الشاعر الخليفة العباسي بضعة من جسد الرسول (فهناك من جسد النبوة بضعة) وهو بالطبع ليس من نسل الرسول وقد ضمنه الحديث النبوي الذي يردده الشيعة : « فاطمة بضعة مني » فمبالغة الشاعر في المدح جعلت الخليفة الناصر من أبناء فاطمة مثله في ذلك كمثل أئمة الشيعة . وكذلك جعل هذا الشاعر الخليفة الناصر « مدينة العلم » فخلع على الخليفة ما استأثر به النبي عليه السلام ، في قوله : « أنا مدينة العلم ، وعلى بابها » . وأبي إلا أن يجعل الخليفة الناصر في مقام النبي عليه السلام ...

(١) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين للدكتور محمد كامل حسين ص ١٨٥

(٢) ديوان ابن الساعاتي ج ١ ص ٥٣ طبع دمشق .

(٣) القاضي النعمان : تأويل دعائم الإسلام ج ٢ : ٦١ مصورة .

(٤) ديوان ابن النبية : ص ٣ طبع المطبعة العلمية بمصر سنة ١٣١٣ هـ .

كذلك كان ابن مطروح المتوفى ٦٤٩ هـ يسلك هذا المسلك نفسه ، اقرأ ما مدح به الخليفة المستنصر بالله  
العباسي :

الله أكبر أى طرف يطمح أم أى ذى لسن يقول فيفصح  
واقرأ ما مدح به الملك الكامل :

« قدست من ملك عظيم الشأن ... » (١) لئرى إلى أى حد تأثر الشاعر بهذه المدرسة .

وقد تأثر ابن سناء بهذه المدرسة أيضا ؛ فقد مدح « صلاح الدين » بأنه كيوسف الصديق بل وزاد في ذلك  
وبالغ فجعله « ابن يعقوب » حقيقة ، أو هو « عيسى بن مريم » لأنه أحيا الدين بعد مماته ، وهذا لا يجوز إلا على  
العقيدة الفاطمية التي تؤول الآيات القرآنية التي وردت في المسيح : بأن إحياء الموتى هو نشر الدين ، وإحياء  
النفوس حياة صحيحة بالعبادة العلمية ، أو كما قال الفاطميون بالدور وانتقال النبوة والأئمة بالتسلسل والتعاقب  
وأن الخلف يرث دور السلف تماما ، فإذا بمحمد هو عيسى وهو موسى وهو نوح ... الخ انظر قوله في الديوان  
أعدت إلى مصر سياسة يوسف وجددت فيها من سميك موسما

وفي قصيدة أخرى يمدح هذا الشاعر صلاح الدين بقوله : -

نصرت بأفلاك السماء فشهبها خميس به يردى الخميس العرمرما

وفيها يتحدث عن أفلاك السماء التي نصرت السلطان ، وأفلاك السماء في التأويل الفاطمي تعني الملائكة  
وهي العقول في الاصطلاحات الفلسفية والاسماعيلية أيضا ، وقد بالغ الشاعر وغلا حتى جعل صلاح الدين في  
مرتبة ليس فوقها مرتبة ، وهذا المعنى كثير جدا في الشعر الفاطمي لأن الإمام مثل المبدع الأول الذي ليست  
فوقه مرتبة ، وفيه يجعل المقدار مؤتمرا بأمر الخليفة فلا ينقض له أمرا ٥

وفي مدحه على بن صلاح الدين يقول : -

مول الأنام على هكذا نقلت لنا الرواة حديثا غير مختلق

فالشاعر ينقل الحديث النبوي : « من كنت مولاه فعلى مولاه » وتبع في هذا سنة الشعراء الفاطميين الذين مدحوا  
الأئمة بأنهم موال الأنام ...

وقد سار على هذا النهج في مدح غير السلاطين كمدح القاضي الفاضل ، وهذا دليل التأثير القوي ، اقرأ  
قوله في مدح القاضي الفاضل : -

عبد الرحيم على البرية رحمة أمنت لصحبته حلول عقابها

ويقول له : -

يا كعبة طاف الملوك بها بل قبلة حج الأنام لها

والحج في التأويل الباطني هو زيارة الإمام على ..

المدرسة الثانية : مدرسة الرقة والسهولة : وهي تلك المدرسة التي تعد في العصر الأيوبي امتدادا وتطورا

(١) ديوان ابن مطروح : ١٧٥ ، ١٧٦ ، ج ١ : طبع الجوائب سنة ١٢٩٨ هـ .

للفن الذى يلائم الحياة المصرية والبيئة المصرية ، وكانت تضم أكثر الشعراء فى ذلك الوقت ، وكان فن القول يتجه إلى السهولة والركة ، وقد ظهر هذا الاتجاه جليا واضحا فى شعر مصر منذ العصر العباسى ، وظهر ظهورا لافتا فى عصر الفاطميين ، وجاء العصر الأيوبي فاستمر هذا التيار بحيث كادت كثرة الشعراء يتبعون هذا الفن فى شعرهم فالألفاظ لينة ، وبحور الشعر مجزوءة أو قصيرة ، ولا يظهر فى فنهم أى لون من ألوان التكلف وقد اهتموا بالمقدمات الغزلية وازدادت رقتهم وسهولتهم حتى ظن أن شعرهم شعر شعبي ملىء بالعامية ، وقد عرف من هؤلاء الشعراء إبراهيم بن الفقيه المتوفى ٦٤٠ هـ و «أمين الدين بن أبي الوفاء» المشهور بابن العصار (١) . و «هبة الله بن عرام» (٢) ، و «أبو العباس أحمد بن أبي القاسم المتوفى ٦٠٣ هـ (٣)

وقد اتخذ أصحاب هذا المذهب المقطوعات القصيرة بدلا من القصائد الطويلة لذا نرى أكثر الشعر الأيوبي الذى قاله شعراء الرقة والسهولة من نوع المقطوعات .

ثالثا : شعراء مدرسة الكتاب :

وكان هؤلاء على طرقي تقيض مع ما رأيناه من شعراء مدرسة الرقة والسهولة؛ إذ كانوا خاضعين لتأثير الاتجاهات الفنية التى شغف بها كتاب الدواوين فى العصر الفاطمى ، وملثوا بها كتاباتهم وأشعارهم ... كان فن هؤلاء يقوم على الموسيقى اللفظية قبل كل شيء . واختيار الألفاظ الفخمة الجزلة ذات الوقع الضخم ، والجرس الموسيقى الذى يؤثر فى السمع مع حلاوة الإيقاع ، كانوا يتلاعبون بهذه الألفاظ تلاعبا تظهر فيه أثر الصناعة وأثر التكلف وأسرفوا فى صناعتهم وتكلفهم إسرافا يدل على طول باعهم فى هذا الفن ، وعلى تلك الثروة اللفظية التى كانوا يتحلون بها ويصطنعونها فى مهارة ليس بعدها مهارة ، وكانوا يحلون فنهم بالزينة البديعية من جناس وطباق وتورية ومراعاة نظير إلى غير ذلك ، حتى بهروا البلاغيين بمقدرتهم على استعمال هذه المحسنات ، وكثيرا ما كان يحلو لهم أن يستعملوا المترادفات ، أو ما يشتق من اللفظ الواحد فى الجملة الواحدة أو فى البيت الواحد ، وكل ذلك من ألوان التعسف الفنى الذى ألزم به الكتاب والشعراء أنفسهم ، فابتعدوا عن الطبع ، وقد ظهر ذلك فى شعر القاضى الموفق بن الخلال ، وابن أبى الشخاء ، والقاضى الجليس ، وابن الزبير وعمارة اليمنى وغيرهم من شعراء الفاطميين ، وقد أصبح مذهبهم الفنى بدعة العصر ، وتقليدا يسير عليه الشعراء والكتاب . (٤)

وقد استمر هذا الفن فى العصر الأيوبي ، وغلا فيه القاضى الفاضل وتفنن ، حتى نسب إليه .

وانعكس هذا اللون على الشعراء وتأثروا به كثيرا نذكر من هؤلاء «ابن الساعاتى» وابن سناء الملك ، وابن قلافس ، والأسعد بن ممانى ، وابن النبيه ، وغيرهم من شعراء العصر الأيوبي (٥) وإن كان بعض هؤلاء

(١) المغرب : ٢٥٥

(٢) الخريدة ج ٢ ص ١٦٩ .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ص ٥٢

(٤) دراسات فى الشعر الأيوبي ص ٢٠٢

(٥) خزانة الأدب : للحموى : ٥١

الشعراء قد حاول الخروج على هذا المذهب وهجنه كالأسعد بن ممانى الذى لم يكن يميل إلى الجناس ، ودعا إلى الابتعاد عنه فى الفن فهو الذى يقول : -

طبع الجنس فيه نوع قيادة أو ما ترى تأليفه للأحرف (١)

ولذلك ما كتبه القاضى الفاضل فى مدح «العزير عثمان» بن السلطان صلاح الدين الأيوبي لتبيين مدى انعكاس هذا الفن على الشعر ، حتى استحال الشعر إلى لون من الهندسة اللفظية ، ومطلع هذه القصيدة :

الحسن جاد على الأحاب فازدادوا لكن أحبابنا بالوصل ما جادوا

ومنها :

فيه من شبه الغزلان أربعة	نفر وطيب وأحداق وأجباد
وقد بكت لضنى العشاق أربعة	صب وفرش وسمار وعواد
هيهات يصدق منك الظن أربعة	عهد وود وأقوال وميعاد
له من الغصن الريان أربعة	عال وباه وميال ومياد
ولى من الدهر عما رمت أربعة	قلب ونطق وأخلاق وأحماد
يدبر الملك من عثمان أربعة	عزم وحزم وأفكار وأرصاد
وفيه من صادقات السحب أربعة	فيض وسيل وإبراق وإرعاد
ياوى إلى بابك المفتوح أربعة	ضعفى ولهى ووراد ورواد

وبهذه الطريقة نظم القاضى الفاضل أربعة وأربعين بيتا ، فى نهاية الشطر الأول من كل بيت لفظ « أربعة » وفى بقية البيت توضيح هذه الأربعة ، وبهذا استحال الفن عنده إلى نوع من الهندسة والموسيقى اللفظية .

ولابن سناء الملك قصيدة فى مدح «العزير عثمان» بن صلاح الدين تأثر فيها كذلك بالفن الفاضلى فى الكتابة والمغلاة فى البديع وفيها يقول :

من منصنى من حاكم جوائر	أبلج مثل القمر الزاهر
قد كسر الجفن فطار الحشا	ما أفتك الكاسر بالطائر
( يا هاجرى ) ليت ندائى إذا	ناديته كان ( بيازائرى )
قم نرجرهم بكأس الطلا	ليلة لاناه ولا زاجر (٢)

ولابن الساعاتى قوله :

والطير يقرأ والغدير صحيفة  
فقد اهتم بمراعاة النظير اهتماما منقطع النظير .

(١) الحموى : خزائن الأدب : ٢١

(٢) هذا الشطر من البيت مقتبس من قول وضاح اليمن :

فاسقط علينا كسقوط الندى ليلة لا ناه ولا زاجر

ولذلك نرى العماد الأصفهاني يقول : « إن مذهب القاضي الفاضل كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع » (١) .

وكان العماد الأصفهاني يلتزم الألوان البديعية محتذيا الطريقة الفاضلية كغيره من الشعراء الكتاب الذين التفوا حول القاضي الفاضل وقلدوه وقد كتب رسالة إلى الفاضل وتحدث عنها فقال : « وهذه الرسالة قد وفيتها حقها من التجنيس والتطبيق ، والترصيع والمقابلة ، والموازنة والتوشيع » (٢) .

وقد شاع الجناس والطباق حتى لا يكاد يخلو شعر شاعر من التزامهما وأما التورية والاستخدام فكما يقول ابن حجة الحموى : « ما تنبه لخاصتهما وتيقظ ، وتحرق وتحرق إلا من تأخر من الشعراء والكتاب ، وتطلع من العلوم وتضلع من كل باب ، وأظن أن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى هو الذي ذلل منهما الصعاب ، وأنزل الناس بهذه الساحات والرحاب ، حتى ارتشف هذه السلافة أهل عصره وأصحابه الذين نزلوا ربوع مصر ، وخفقت رياحهم بالإخلاص في نصره كالقاضي السعيد هبة الله بن سناء الملك ، ومن انخرط معه في هذا السلك ، ولم يزل هو ومن عاصره على هذا المنهج في ذلك الأوان ، ومن جاء بعدهم من التابعين بإحسان إلى أن جاء بعدهم حلبة أخرى » (٣) .

---

(١) العماد : الحريدة : ج ١ : ٢٦

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) خزانة الأدب : ٥١





# الفصل الرابع أثر الحروب الصليبية في الحياة الأدبية

## بصفة عامة وفي الشعر بصفة خاصة

لقد كانت الحروب الصليبية هي النفي العام الذي دوى فأيقظ الشرق من رقدته ونبيه من غفلته ، ووحده بعد تفرقه ، وجمعه بعد شتاته ، وأعادته إلى الجدد والصرامة ، بعد أن أضعفه الترف ، وأتملته الدعة ، وخدرته النعمة .

وبعثت الحروب الصليبية في الأدب الحياة ، وجددت فيه القوة ، فأذكت حواس الشعراء ، وألهبت مشاعرهم ، وأججت انفعالهم ، وأمدتهم بالمعين الصادق من المعاني والأفكار ، فأصبح الشاعر لا يمدح استجابة للدافع خارج عن شعوره أو تحقيقاً لرغبة مفروضة عليه ... وإنما يستمد من نفسه الوحي والإلهام ، ويجد في قرارها الحافز ، والدافع .. وتتلاءم الصورة التي يرسمها مع ما ينطبع في النفوس جميعها من صورة للبطل الذي يدافع عن الإسلام ويحمي المسلمين من وحشية هؤلاء المعتدين الباغين الظالمين .

لقد اتخذ الشعراء من الحروب الصليبية موضوعاً ، ومن ضراوتها أسلوباً ، ومن وحشيتها وأطماعها وما أبلت به الشرق من محن ، وما واجهته من بطولات صوراً وخيالات .... ولا يكتفى في هذا المقام الإجمال وإنما يعوزنا قليل من التفصيل ، وإن كانت الكتب التي ألفت في هذا الموضوع وحده قد سدت هذه الثغرة في الأدب (١) ، وإنما يفرض المقام أن نلم سريعاً بأثر هذه الحروب في الأدب من حيث موضوعاته ، وأساليبه ، وصوره . وأخيلته :

غلب الشعر الحماسي على شعراء هذا العصر حتى أصبح طابعاً عاماً غلب على روحه ، فلا يكاد يخلو ديوان شاعر من شعراء هذه الفترة ، من ذلك الشعر الحماسي الذي يعكس في صدق صدق البطولات الرائعة في مقاومة الصليبيين ، وتلك الانتصارات الساحقة التي أحرزها «عماد الدين زنكي» ، ومن بعده «نور الدين» ثم «صلاح الدين» بل لا تغالي إذا قلنا : إن هذه القصائد وأمثالها هي التي غلبت في دواوين الشعراء . وقد سمي الدكتور «محمد كامل حسين» هذا اللون من الشعر ... فن «الشعر بالقومية الإسلامية» (٢) فالحقيقة أن المسلمين قد شعروا بهذا الشعور ، ونادوا به إبان حروب «صلاح الدين» وخلفائه «وكان الأدب شعراً ونثراً هو اللسان المعبر عن هذا الشعور ، وقد سميت فكرة الشعوبية التي تفضل العرب على الأعاجم ، وحلت محلها فكرة «نصر الإسلام» . وحظي الترك بنصيب واضح من مدح الشعراء فهذا ابن سناء الملك يشيد بهم فيقول :

(١) راجع الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية : للدكتور أحمد بدوي ، أثر الحروب الصليبية في الأدب : سيد

كيلاني ...

(٢) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين : ٨٧

بدولة الترك عزت ملة العرب      وبابن أيوب ذلت شيعة الصلب  
والشاعر الغزى يقول في جيش صلاح الدين :  
في فتية من جيوش الترك ما تركت      للرد كراتهم صوتا ولا صيتا  
قوم إذا قوبلوا كانوا ملائكة      حسنا وإن قوتلوا كانوا عفاريتا

وقد فقد العنصر العربى سيطرته فى كثير من البقاع التى كان يغلب عليها، وصارت القبائل العربية تحيا حياة تساير فيها الظروف بقدر الإمكان .

وقد وجدنا لكل بطل من الأبطال الذين قاوموا الصليبيين شعراء يتغنون ببطولاته ويشيدون بمآثره ، فقسيم الحموى ، وابن القيسرانى ، وابن منير الطرابلسى ظهوروا فى الحملة الصليبية الأولى فعكفوا على مدح « عماد الدين زنكى » ، ثم توارثهم « نور الدين » وانضم إليهم « ابن سعد الموصلى » و « عماد الدين الأصبهاني » إلى غيرهم من الشعراء الذين مدحوه ، وأججوا حماسة المسلمين .

وظهر فى مصر كثير من الشعراء الذين مدحوا نور الدين كالمهذب بن الزبير وطلائع بن رزيك وزير الملك الصالح وحظى « صلاح الدين » بكثير من المدائح من كثير من الشعراء كابن سناء الملك وابن الساعاتى ، وعماد الدين الأصبهاني ، وابن قلافس السكندرى ، والأسعد بن ممانى وابن النبيه وغيرهم من الشعراء .

قال ابن سناء الملك يصف ملوك الفرنج وهم وقوف بين يدى صلاح الدين ، وفى أيديهم وأرجلهم القيد ، وقد نال صلاح الدين من جيوشهم ما نال :

وتصيدتهم بحلقة صيد      تجمع الليث والغزال الأغنا  
وجرت منهم الدماء بحاراً      فجرت فوقها الجزائر سفنا

ولكن الشعر مع كل هذا المدد الزاخر من الأحداث والوقائع لم يجد الشعراء المفطورين الموهوبين الذين يستطيعون تخليد ممدوحهم ، وأبطالهم - كما خلد المتنبي سيف الدولة - فأعوزته القوة الدافقة ، والصور المتحركة النابضة بالحياة والخلود وبدت عليه مسحة من التكلف والرونى اللفظى (١) .

ولم يقف شعراء الحماسة عند مواطن النصر وحدها ، ولكن هزت نفوسهم الهزائم التى منى بها المسلمون ، فوصفوا ما حل بهم من نكبات ، وما ابتلوا به من محن وشدائد كما وصفوا ما حاق بهم من قتل وتخريب ، وسلب ونهب ، وعبت بمقدسات المسلمين وبخاصة تلك الجرائم الوحشية التى اقترفتها الصليبيون فى القدس (٢) .

واهتم الشعراء بآراء الفلكيين والمنجمين ، وحفلت أشعارهم بالإشارة إليها ، ذلك لأن الخلفاء والسلاطين كانوا يستطلعون آراء المنجمين قبل الإقدام على خوض المعارك مع الصليبيين ليروا لهم الطالع ، غير أن كثير من تخرصاتهم وتنبؤاتهم كانت تكشف عن عكس ما أخبروا به ، وعندئذ يصبح هؤلاء المنجمون هدفا لسخرية الشعراء وتهكماتهم ويستعيدون قصة فتح عمورية وتهكم أبى تمام بالمنجمين (٣) .

ولم يعد من الضروري لدى الشعراء أن يكون الخليفة أو السلطان ممن يعتدون بآراء المنجمين حتى يشيروا إلى قصته معهم ، فقد أصبحت الإشارة إلى الفلك والتنجم تقليداً سار عليه شعراء هذا العصر ، وأصبح من المعانى

(١) الحماسة : لعمر الدسوقي وآخرين : ١٠٤ ، والأدب فى عصر صلاح الدين ٢٧١

(٢) الأدب فى عصر صلاح الدين ٢٧٠

(٣) الروضتين : ٢ - ٧٣

المألوفة في المدح أن قدرة الممدوح لا تغلب وقوته لا تفهر ، وأنها تتحدى الفلك الدوار ، وأن قوس الأفق لورام ما فعله الممدوح لم يصب ما أصابه ، وأن كوكب الدلو إذا التقى بقوة البلد المحصنة التي قهرها الممدوح لغلبته وألقته في بئر من السحب ، ولكن الممدوح يقهرها ويذلها . إلى غير ذلك من هذه المعاني التي ألفها الشعراء ، وتحدثوا بها ونوّهوا بها في قصائدهم . استمع إلى ابن سناء الملك في قصيدته التي هنا فيها السلطان « صلاح الدين » بفتح حلب والتي مطلعها :

بدولة الترك عزت ملة العرب      وبابن أيوب ذلت شيعه الصلب

تراه يقول :

لو رامها الدهر لم يظفر ببغيته	ولو رامها بقوس الأفق لم يصب
جلسة النجم في أعلى منازلها	وطالما غاب عنها وهي لم تغب
تلقى إذا عطشت والبرق أرشية	كواكب الدلو في بئر من السحب
كل القلاع تروم السحب في صعد	إلا العواصم تبغي السحب في صيب
حتى أتى من منال النجم مطلبه	يا طالب النجم قد أوغلت في الطلب
من لو أبى الفلك الدوار طاعته	لصير الرأس منه موضع الذنب

وفيه يقول :

وحل من حولها الأقصى على فلك      ودار من برجها الأعلى على قطب

وكثيراً ما كان الشعراء يقرنون بين الدعاء للممدوح وبين كوكب السعد ، فابن النحاس المصري يحمي بن علم الملك بمدح صلاح الدين فيقول :

يا يوسف الحسن والإحسان لا برحت      نجوم سعدك والتوفيق في قرن

غير أن الفلك والتنجيم لم يحظ من الشعراء بقصائد أو مقطعات خاصة ، وإنما تأتي الإشارة إليها خلال قصائدهم أو أثناء تلك المقطعات . والصلة واضحة جلية بين الشعر الحماسي أو شعر الحروب وبين الإشارة إلى الفلك والتنجيم ، حتى لا تكاد قصيدة من هذه القصائد تخلو من التصريح أو التلميح إلى الفلك والنجوم ، والربط بينها وبين النصر ، أو بينها وبين الهزيمة — وكوكب النحس هو رمزها — أو التشبيه بالنجم العالي في المنعة والرفعة ، وهذا أثر من آثار الحروب عامة والحروب الصليبية بصفة خاصة .

وشغلت الحرب الناس والحكومات ، ونال الشعب الكادح آنذ ما ينال الشعوب عادة من ويلات الحروب ، فقلت الأسعار وقل المال ، وأرهق الناس بمطالب الحياة ، وضاقوا بالضرائب والمكوس فدموا محاصيلها وغنى الناس بالقليل عن الكثير ، وبالحقير عن العظيم ، وهالهم أن جماعة منهم قد وصلوا إلى الغنى والثروة ، ومراتب الجاه والسلطة ، فسرى الحسد والحقد ، وعم الفساد والاضطراب وهجا الناس الزمن والدهر فنسمع أحدهم يقول ( ١ ) وهو المسجف العسقلاني المتوفى سنة ٦٣٥ هـ :

(١) فوات الوفيات ١ : ٥٣٦

أنا في جيل خسيس وقبيل وزمان  
أمدح السلطان كي يصبح مالى فى أمان  
أكذا كان أبوتما م قبلى وابن هـانى ؟!

بل نسمع على بن مقرب الأحسائى الشاعر المتوفى بعد سنة ٦١٨ هـ يقول :

أرى الناس - مذكانوا - عبيداً لغاشم وخصماً لمغلوب وجنداً لغالب  
ويقول ابن زبارة مسجلاً أحوال المجتمع من اضطراب وفساد ، وتحول فى أمور الناس ومعاشهم وارتفاعهم وانخفاضهم :

باضطراب الزمان ترتفع الأنس ذال فيه حتى يعم البلاء  
وكذا الماء ساكناً فإذا حر ك ثارت من قعره الأقداء

وعبر الشاعر عن حسرة الناس وتبرمهم بالمكوس ، ودعا أولى الأمر إلى رفعها أو تخفيفها أو الرفق فى تحصيلها ، ومن ذلك ما ذكره « ذوبان بن عتيق » الشاعر المغربى . وقد طوّل بمكس كان يتولاه يهودى :

يا أهل دانية لقد خالفتـو حكم الشريعة والمروءة فينا  
مالى أراكم تأمرون بضد ما أمرت - ترى نسخ الإله الدينا  
كنا نطالب لليهود بجزية وأرى اليهود بجزية طلبونا  
ما إن سمعنا مالكا أفتى بـ لك لا ولا سحنونا (١)

وكثيراً ما كان النيل ينحسر ، والأمطار تقل ، والأرض تجذب ، فيجتمع على الناس البلاء من كل جانب ، ويحذق بهم الخطر من كل صوب ، وتحدث المجاعات ، ويقتل الألوف ، وتنتشر الأمراض ، وتنفق الماشية ، ويهلك الأخضر واليابس ولا يجد الناس لإزاء هذا الهم سوى الاستسلام للقضاء فيرفعون أكفهم إلى السماء فى ضراعة ويدعون الله فى ذلة ، ويستغيثون بالمتصوفة ، ويندفعون إليهم ويدعون إلى اعتناق مذهبهم :

وطريقة الشيخ الجنيد وصحبه والساكنين سبيلهم بهم اقتد  
واقصد بعلمك وجه ربك خالصا تظفر سبيل الصالحين وتهتد

ويعزف كثير من الناس عن الدنيا ، ويعيشون فى حبهيم الإلهى ، مستسلمين لقضاء الله وقدره ، صابرين على ما قدر لهم فى هذه الدنيا ، مرددين ما قاله ابن الكيزانى الشاعر الصوفى صاحب الطريقة الكيزانية :

اصرفوا عني طيبى ودعـونى وحيـبى  
عللوا قلبى بذكرى ه فقد زاد لـبى  
طاب فتكى فى هواه بين واش ورقـب  
لا أبالى بفوات النفس مادام نصـبى  
ليس من لام وإن أط نب فيه بمصـب  
جسدى راض بسقى وجفـونى بنـحـبى

(١) معجم السلى مصور ورقة ٤٨ ، وأوردها الدكتور محمد زغلول فى الأدب فى عصر صلاح الدين : ٢٨٢

والبيت الأخير مكسور وقد ورد هكذا .

وسرت في الناس موجة الصوفية ، وهياً الزمن لدعوتهم ، ونشر آرائهم .

وكما أثرت الحروب في فريق من الناس هذا التأثير ، وطبعتهم هذا الطابع ، الذي وجدوا فيه عزاءهم ، وسلواهم من يأسهم ، كان هناك جماعة آخرون انطبق عليهم قول الله تعالى : « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره » فسرعان ما انصرفوا إلى اللهو والمجون ، والفساد والحلاعة ، واحتساء الكؤوس على مشهد من الندامى ، ونعموا بالغزل بالمذكر والمؤنث ، وشربوا الحشيش ، وأفرطوا في شربه وانعكس ذلك كله على الشعر فسجل تلك الظاهرة الاجتماعية ، وربما وجد المصريون في ذلك متفلسفهم فهم عند الأزمات واشتدادها ، وعجزهم عن التغلب عليها لا يجدون مفرغاً يفرغون إليه إلا المجون والفكاهة فقد انصرفوا إليها في أثناء الحروب الصليبية وبعدها ، استمع إلى ما قاله القاضي الفاضل في بداية سنة سبع وثمانين وخمسمائة : « وفي شوال قطع النيل الجسور ، واقتلع الشجر ، وفرق النواحي ، وهدم المساكن وأتلف كثيراً من النساء والأطفال .... ودخلت البلد أى القاهرة - وفيها من البغي ومن المعاصي ، ومن الجهر بها ومن الفسق ، ومن الزنا واللواط ، ومن شهادة الزور ، ومن مظالم الأمراء والفقهاء ، ومن استحلال الفطر في نهار رمضان وشرب الخمر في ليله ممن يقع عليه اسم الإسلام ، ومن عدم التكبير على ذلك جميعه ما لم يسمع ولم يعهد مثله » (١) .

فبالرغم مما حل بهم من المصائب لم يتركوا مجونهم واستهتارهم . ودعا الشعراء إلى شرب الراح وسماع الأغاني ، واللهو بالنساء بين جمال الطبيعة ، واتبعوا مذهب أبى نواس في المجون واللهو ، استمع إلى قول أمين الدين بن أبى الوفاء المشهور بابن العصار المتوفى سنة ٦٣٠هـ :

لا تلمنى فى الرّاح والريحان	وسماعى مثالثا ومثاني
واسقنى بالكبير حثّا فحثّا	بين زهر الرياض حتى ترانى
لا تلذ الحياة إلا بشرب	وغرام وذاك أغلى الأماني
حبذا حبذا حبيب عطوف	ذكر الوصل بعد ماقد جفاني
زارنى بالهلل فوق قضيب	ظلت أجنى منه قطوف المجاني
أنا دعنى وما تراه فسادا	فإمامى فيما ارتكبت ابن هانى (٢)

ولابن النبيه المتوفى سنة ٦١٩هـ دعوة مماثلة إلى الشراب ، ووصف الخمر وساقها :

طاب الصبوح فهلك وهات	واشرب هنيئاً يا أخا اللذات
كم ذا التواني والشباب مطاوع	والدهر سمح والحبيب موافق (٣)

وتجد صورة التهتك والمجون والاستهتار في قصيدة لابن ممتى يروى لنا فيها قصة ليلة حمراء سعى فيها إلى معشوقته ونال منها وطره ومأربه فيقول :

(١) الخطط : للمقريزى ج ٣ : ٣٧

(٢) المغرب : لابن سعيد : ١٧٥

(٣) ديوان ابن النبيه : ١٣

يارب خـود زرتها      في الليل بعد هجودها  
 فاجأتها فتباهت      فلزمت ضم نهودها  
 ورشفت خمر رضاها      وجنيت ورد خدودها  
 وأمنت في قصر الوصا      ل حياة طول صدودها  
 حتى إذا ولي الدجى      في عداها وعديدها  
 وبدت جيوش الصبح في      أعلامها وبنودها  
 فارقتها ومدامعى      تحكى جمان عقودها (١)

فهل ترى خلاعة واستهتارا أشد من ذلك ، وأشنع منه ؟ نعم هناك من الشعراء من بلغت به القحّة والحجاجة حداً بالغاً حتى أنه وصف أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث وصفاً بشعا ، ولم يتورع عن أن يذكر في شعره صراحة أنه باشر هذه العملية .

وازداد شيوع الغزل بالمذكر في هذا العصر فافتتح به الشعراء قصائدهم حتى لم يسلم من ذلك شعراء عرفوا بالتقوى والورع ، فابن الوردي يحدثنا أنه اضطر إلى افتتاح قصائده بالغزل في المذكر أتزوج أشعاره وتنتشر فيقول : (٢)

أستغفر الله من شعر تقدم لي      في المرد قصدى به ترويح أشعاري  
 ويقول في موضع آخر : (٣)

ما المرد أكبر همي      ولا نهاية علمي  
 ولست من قوم لوط      حاشا تقاي وعلمي  
 وإنما خرج دهرى      كذا ففتقت شعري

ويرجع السبب في شيوع هذا اللون إلى كثرة سبي الحروب الصليبية من غلمان الفرنج الصباح الوجوه ، وما كان يجلبه تجار الرقيق من أطفال الترك من أصقاع آسيا ، وقد أصبح هؤلاء لملاحتهم ، وصفاء بشرتهم ، موضع قربى من الناس ، حتى أصبح ذلك مألوفاً شائعاً فالسلاطين والأمراء لا يجدون بأساً في استصحاب هؤلاء الغلمان في مجالسهم ، ولم ير الفقهاء وذوو التقوى والصلاح ضيراً في أن يختص أحدهم بواحد أو اثنين منهم لمرافقته في خلواته يستعملهم لطعامه ووضوئه .

وأصبح من المعاني المطروقة في الغزل وصف العارض وقد خط فيه الشعر فبدا سواده إلى جانب بياض الوجه ، ومن ذلك قول أحد الشعراء (٤) .

(١) الخريدة : ج ١ : ١١٦

(٢) ديوان ابن الوردي : طبعة مجرية سنة ١٣٠٠ هـ ص ٤٤

(٣) الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي : لسيد كيلاي : ٢٥٥

(٤) الجامع المختصر : ج ٩ ص ١٤٢

لقد أثرت صدغاه في لون خدّه      ولاح كفى من وراء زجاج  
تري عسكرياً للروم في الزنج قد بدت      ثلاثه تسعى ايوم هياج  
أم الصبح بالليل البهيم موشحا      حكى آبنوسا في صفيحة عاج  
لقد غار صدغاه على ورد خدّه      فسيّجه من شعره بسياج

ولما كان هؤلاء الأتراك ممن يتعلمون صنعة الحرب ، ويبرعون فيها ، ويفوقون في القتال ، ويخوضون المعارك في شجاعة وشهامة فقد مزج الشعراء بين هذه المعاني ومعاني الغزل ، وشتان بين الاثنين ، فقرنوا اهتزاز العود باهتزاز السمهرى ، وفنك اللحظ بالصارم المشرقى ، وإصابة الجفون بالسهام المفوكة ، وانشاء الحواجب بانثناء القسي أو الأقواس الموترة ... الخ (١) .

وهذا هو ابن سناء الملك يدفعونه دفعا عن الغرام بمن يحب لأن لحيته قد نبتت ، وكست وجهه ، فلا يصرفه ذلك عنه إذ أن جمال طرفه ، ودقة حاجبيه وثغره الأملى ، وخده المتوهج ما زالت كما هي ، استمع إليه يقول :

قالوا التحى فاسل عنه قلت لهم      والله لا كان ذا واو شابا  
هل التحى طرفه وحاجبه      أو اختفى الثغر منه أو غابا ؟!

وهكذا كانت روح العصر لا تعد ذلك خروجا عن المألوف ولا تستنكره إذ أن الغزل بالمذكر قد شاع في زمن الحروب الصليبية ، وأصبح هم الشباب والكبار يلتفون حوله وينشدونه ويطربون له ، ويعرضون عن غيره من القصائد ، شأنه في ذلك شأن الشعر العاطفي اليوم يجد من الحفاوة والرواج ما لا يجده غيره من فنون الشعر الأخرى . وقد تعرض الدكتور محمد كامل حسين للغزل كغرض من أغراض الشعر في العصر الأيوبي ، وقرر أن الشعراء الغزليين لم يتركوا شيئا عن الحب بوصاله وهجره والوشاة والعاذلين ، ولا أجزاء جسم المحبوب إلا واشتمل عليه شعرهم ، ولكن في شيء من العفة إن صح هذا التعبير « (٢) ولكنه لم يشر من قريب أو من بعيد إلى أثر الحروب الصليبية في هذا الغرض ، كما لم يشر إلى شعر ماجن مع أن الكثيرين من الذين تحدثوا في هذا الغرض أسفّوا وبالغوا في الإسفاف ، ويكفى أن تطلع على ديوان ابن سناء الملك - وهو الذى ذكره - بين شعراء الرقة والسهولة لتعلم إلى أى حد أسف .

وبذا نكون قد أوضحنا ما أحدثته الحروب الصليبية في حياة الشعب من جد واهتمام أساسه الإعداد للحرب والدعوة لها وخوض غمارها ، ومن هزل انصرف إليه الكثير ترويحاً عن أنفسهم ، أو إرواء لاستعدادهم وميوهم التى تنصرف إلى الهزل والاستهتار والمجون كلما اشتد عليهم الأمر ، وضاعت في وجوهم السبل ، وأملت بهم الأزمات من كل جانب .

كما كانت الحروب الصليبية من الدواعى الهامة في الاضطرابات الاقتصادية التى أصابت المجتمع ، وغيرت من حالة الناس ، فكم من وضع رفعته ، وكم من رفيع خفضته وكم من أغنياء ذلوا وهانوا ، وكم من فقراء اغتنوا وارتفعوا ، وهذا الاضطراب أدى إلى كثير من الظواهر الاجتماعية كالنصوف والزهد ، وشرب الحشيش

(١) الأدب في عصر صلاح الدين : ٢٧٦

(٢) دراسات في عصر في الشعر الأيوبيين : ١٤٧

وإدمان الخمر ومجالس اللهو والطرب ، والمبالغة في الترف إلى غير ذلك مما أوضعناه وعلينا أن نوضح الآن الصلة بين الشعب وبين حاكميه .

والحق أن الأدب كله في هذا العصر تلون بلون الحياة الحربية ، وما ينجم عنها من نصر أو هزيمة ، وما تستدعيه من تهيج للخواطر ، وإثارة للمشاعر ، وتحسيس للمحاربين وحث على النزال ، ثم ما يترتب عليها من حزن وحسرة ، أو فرح وبهجة أو خوف وذعر إلى غير ذلك من أغراض الشعر .

وقد فصل الدكتور أحمد بدوى هذا الموضوع تفصيلاً وافياً في كتابه « الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية » (١) وقد ذكر ما يقرب من عشرين غرضاً من أغراض الشعر تأثرت بالحروب الصليبية ومعظم هذه الأغراض يرجع إلى الشعر الحماسى أو إلى ما أسماه الدكتور محمد كامل حسين « فن الشعور بالقومية الإسلامية » . وكان الشعراء في جملتهم يتجهون إلى محاكاة الشعراء العباسيين في أساليبهم ، وطرق تعبيرهم ، وبلغوا من ذلك حظاً كبيراً حتى لنستطيع أن نضع بعضهم في بعض قصائده إلى جوار كبار الشعراء العباسيين ، ولكننا لا نستطيع أن نغفل ما كان في هذا العصر من اتجاه إلى الزخرف والزينة يكاد يشترك فيه شعراء هذا العصر جميعاً ، يقوى بعضهم حتى لا تضعف الزينة من أسلوبه وحتى تبدو كأنها طبيعية غير متكلفة ، وتقوى هي على الآخر حتى تسقط شعره في تكلف ممقوت ثقيل (٢) .

ولم يكن النثر بأقل عزماً من الشعر فقد أدى دوراً إيجابياً ربما كان أشد خطراً وأعظم أثراً من الشعر ، ذلك أن الكتاب الذين ولوا أمر ديوان الإنشاء في هذه الفترة كانت أعلامهم أسنة ، وكلماتهم مشهورة ، ولهم قدرة على رصف الكلام وتجديره حتى ليهز النفوس الضعيفة ويثير الحماسة في القلوب المستضعفة ... استمع إلى تلك الرسالة التي بعث بها « صلاح الدين » إلى ملك المغرب يستنجد به في قتال الفرنج وهي الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل ... قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه ثم حياه وحادثه عما فتحه الله على المسلمين من بيت المقدس والثغور والمدن والأمصاير ثم قال :

« ألا إنه لم يؤخر فتح البلاد بعدها إلا أن فزع الكفار بالشام فقد استصرخوا بأصل الكفار من الغرب ، فأجابوهم رجالاً وفرساناً ، وشيياً وشباناً ، وزرافات ووحداناً وبراً وبحراً ، ومركباً وظهراً ، وركبوا إليهم سهلاً ووعراً ، وبذلوا ماعوناً وذخراً وما احتاجوا ملوكاً ترتادهم ، ولا أرسانا تقتادهم ، بل خرج كل بلي دعوة بطركه ، ولا يحتاج إلى عزمة ملكه ... وجلب الكفار إلى المحصورين بالشام كل مجلوب ، وملثوا عليهم ثغريهم من كل مطلوب ، ما بين أقوات وأطعمة ، وآلات وأسلحة .... إلى أن شحنوا بلادهم رجالاً مقاتلة ، وذخائر للعاجلة من حربيهم والآجلة ، لا تشرق شارقة إلا طلعت على العدو من البحر طالعة ، تعرض على الرجال من قتل ، وتخلف من الزاد ما أكل ، فهم كل يوم في حصول زيادة ، ووفور مادة ، وقد هان عليهم موقع الحصر ، وأعطاهم البحر ما منعهم البر ، وبطروا لما كثروا ، ... وعقدت عدتهم مائة ألف أوزيريدون ، كلما أفناهم القتل أخلفتهم النجدة ، فكأنهم قبل الممات يعودون » .

ثم توجه إلى ملك المغرب مستنجداً به قائلاً :

(١) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية للدكتور أحمد بدوى : ٤٠٧ - ٤٤٣ .

(٢) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية : ٥٦٠



« لما كانت حضرة سلطان الإسلام ، وقائد المجاهدين إلى دار السلام ، أولى من توجه إليه الإسلام بشكواه وبثه ، واستعان على حماية نسله وحرثه ، .... كان المتوقع من تلك الدولة العالية والعزمة القادية ، مع القدرة الوافية ، والهمة المهدية الهادية أن يمد غرب الإسلام المسلمين ، بأكثر مما أمد به غرب الكفار الكافرين ، فيملاها عليهم جواري كالأعلام ، ومدنا في اللجاج سوائر كأنها الليالى مقلعة بالأيام ، تطلع علينا معشر الإسلام آمالا ، وتطلع على الكفار آجالا ، ويردنا إما جملة وإما أرسالا مسومة ، تمدها ملائكة مسومة ومعلمة ... » (١).

ومما كتبه العماد الكاتب عن «صلاح الدين» بعد أن استولى الفرنج على عكا وغدروا بأسرى المسلمين قوله :  
« ..... وللكرام آجال ، والحرب سجال ، ولله من المؤمنين رجال والآل فقد ثارت الحميات ، وهبت النخوات ، ووجب على كل مسلم أن ينهض لنصرة الإسلام ، ويتدارك ما حدث من الكسر بالجبر والإحكام ، ويبعد ما وهى من عقد الفتوح إلى النظام فأين ذوو الأنفة والحمية ، والهمم العلية ، والنفوس الأبية ، أما يهتمون لمصرع من استشهد من إخوانهم ، أما يثيرون لثأر إيمانهم ، أما تبكى العيون لمن قتل من أمثالهم وأعيانهم ، فإن مصابهم عظيم ، ومقامهم عند ربهم الكريم كريم ، وأراد الله بذلك تنبيه الهمم الراقدة ، وإثارة العزائم الراكدة (٢) ففى هذه الرسالة إثارة لاهمهم الفاترة ، وإنهاض للعزائم المتوانية ، وفيها على الرغم من الهزيمة لإيمان المؤمن بالنصر ، والدعوة للأخذ بالثأر من أولئك الغادرين الذين لا يرعون فى الحرب إلاّ ولا ذمة .

وللقاضى الفاضل رسالة سجلها التاريخ وهى نابضة بدقيق المشاعر ، وخلجات النفوس ، فقد كتبها إلى صلاح الدين سنة ٥٨٥ هـ فى أشد الأوقات حرجا وذلك فى حصار « عكا » فقد كان العدو يشدد الحصار ، وجند المسلمين قد طال بهم المقام فقال القاضى الفاضل (٣) :

« .... بينما نحن نتنظر من كتب المولى ما يستدل به على أن قلب المولى قد طاب ، وقصد العدو قد خاب إذ ترد كتب يكون الوقوف عليها قاطعا للأكباد ، مفتتا للقلوب ولو أنها جماد ، ... والعيون ممدودة ، والأيدى مرفوعة بأن يفرج الله عنا وعنكم بوصولها ، فمن شيع فى هذه الأيام فما وصى المسلمين ، ومن نام ملء عينيه فما هو من إخوة المؤمنين ... فما الملوك وكل من يعرف الأمر إلا كآهل الصراط : رب سلم ، رب سلم ، فنسأل الله سبحانه ألا يكلنا إلى أنفسنا فنعجز ، ولا إلى الناس فنضيع ، ومجهود أهل الأرض قد انتهى وبقي ما يفعله الله .... » وفى آخر هذه الرسالة تحميس وتشجيع ، ودفع إلى الصبر والثبات : « ثم معاذ الله أن نغلب على النصر ، ثم معاذ الله أن نغلب على الصبر فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر صبره ، وتملأ صدره ، فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون ، والله معكم » وهذا على دين ما غلب بكثرة ، ولانصر بثروة ، إنما اختار الله تعالى له أرباب نيات ، وذوى قلوب معه وحالات فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف ، لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، واشتد أزمة تنفرجى ، والغمرات تذهب ولا تنجى ، والله تعالى يسمع الأذن ما يسر القلب ، ويصرف عن الإسلام وأهله غاشية هذا الكرب » .

(١) الروضتين : ج ٢ : ١٧١ ، والحياة الأدبية : ٤١١ ، ٤١٢ .

(٢) الروضتين : ج ٢ : ١٩٠ ، والحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ص ٤١٨ .

(٣) الروضتين ج ٢ : ١٠٢ ، الحياة الأدبية : ٤٢٣

ومضى النثر يتبارى مع الشعر فى تصوير الحروب الصليبية وما ينجم عنها من هزيمة أونصر ومن حسرة وحزن ، أوفرح وسرور ، وما تقضيه من تهميس وتشجيع ، ودفع إلى الصبر والثبات ، والتضال والاستبسال ، فى أسلوب طلى ، وعبارة رشيقة ، وزينة لفظية محكمة ، لم تخرج بالكتابة عن هدفها المرسوم ، ولم تبعد بها عن الغرض المقصود ، لأن كتاب الرسائل قد أوتوا قوة البيان ، والقدرة على رصف القول فى إحكام ، فلم تخضع الزينة اللفظية معانيهم لمقتضياتها ، ولم يكن المعنى تابعاً لها وإنما كانا صنوين ، اللفظ الرشيق للمعنى الرشيق ، واللفظ القوى للمعنى القوى . فالمعنى الناصح كالثمرة الناضجة يسقط على اللفظة المناسبة .. غير أن من واجبنا أن نشير إلى المقدمات الطويلة ، التى فرضها الكتاب على أنفسهم ، وكأنها المقدمة الغزلية فى قصائد المدح ... غير أن ذلك كان سمة هذا العصر ، واتجاهاته فى الأدب شعره ونثره .

البابُ الثاني

الشاعر وديوانه



# الفصل الأول ابن سناء الملك

( ٥٥٠ - ٦٠٨ هـ )

## مولده :

لم يعرف بالضبط تاريخ مولده ، ولم يحدده الشاعر تحديداً دقيقاً وقد تضاربت أقوال المؤرخين والأدباء في تحديده ، وتجاهل بعضهم الإشارة إلى مولده فالصفدي يرى أنه ولد في سنة ٥٤٥ هـ ، ويروي « ابن خلكان (١) » في وفاته نقلاً عن العماد الكاتب في خريدته : أنه كان عند القاضي الفاضل في خيمته بمرج الدلمية في دمشق في الثامن عشر من ذي القعدة سنة ٥٧٠ هـ - ١١٧٥ م فأطلعه على قصيدة لابن سناء جاءت من مصر ، وذكر أن عمره لم يبلغ العشرين ، وعلى هذا التقدير يكون مولده في حدود سنة ٥٥٠ هـ .

ولكن « ابن خلكان » أعقب ذلك بقوله : « وقد رأيت بخط بعض أصحابنا ممن لهم عناية بهذا الفن أنه توفي يوم الثلاثاء ، ذي الحجة سنة ٥٩٢ هـ ، بينما كان مولده في منتصف شوال سنة ٥٢٥ هـ ( ٢ ) ، ونقله عنه « جورجى زيدان » ولكن هذا التاريخ ليس للقاضي السعيد ( ابن سناء ) بل لوالده القاضي الرشيد .

أما « ياقوت » ( ٣ ) فلم يشر إلى مولده وأشار فقط إلى أنه توفي رابع شهر رمضان سنة ٦٠٨ هـ ، وقد رجح الدكتور « محمد عبد الحق » محقق الديوان المطبوع أنه ولد سنة ٥٥١ هـ معتمداً في هذا على رواية ابن خلكان ، وقول القاضي الفاضل : إنه لم يبلغ بعد سن العشرين ... ولكنى أرى أنه ولد في سنة ٥٥٠ هـ ذلك لأنه في سنة ٥٧٣ هـ عرض في إحدى قصائده بمن مدحهم من الشخصيات البارزة في المجتمع ولم يلتفتوا إليه فقال :

تكمل فضلى قبل عشرين حجة فكيف وقد جاوزتها بثلاث

وأنفقت عمرى في مدائح معشر كموتى واو أنصفت كن مرأى

فبذلك يكون قد حدد عمره وتاريخ مولده وأنه ولد في سنة ٥٥٠ هـ .

## نسبه وأسرته :

شب أبو القاسم القاضي السعيد هبة الله بن القاضي الرشيد جعفر بن المعتمد سناء الملك أبو عبد الله محمد بن هبة الله بن محمد السعدى (٤) الشاعر المعروف بابن سناء الملك - في ظل أسرة عرف المجد طريقه إليها ، نعمت بالغنى والثروة ، واغترفت من الفضل والمعرفة ، وكانت موضع التقدير من ذوى المكانة والمنزلة فنعم ابن سناء

(١) وفیات الأعيان ج ٣ ص ٢٨

(٢) المرجع السابق ، تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان

(٣) معجم الأدباء ج ١٩ ص ٢٦٥

(٤) وفیات الأعيان ج ٢ ص ٢٨ .

أبما ضفته هذه النشأة عليه ، وكانت سبباً في رفع ذكره ، وعلو شأنه وطالما شكاً إلى أستاذة القاضي الفاضل حسد أعدائه ، وحقدهم عليه ، وتعيرهم له بأنه لولا أبوه ما كان يدخل دائرة العلماء ، ويحظى بما يحظى به الشعراء ، لأن أباه في الوظيفة ، ولولاه لكان خادماً فيها ، وقد أشار ابن سناء إلى ذلك في قصيدة وجهها إلى القاضي الفاضل جاء فيها :

تقول أعادى لولا أبـو ك لما كنت تدخل ذاك الحرم (١)

ومن ثم نعلم أن والده كان يشغل منصباً هاماً ، ولقب الابن والوالد يشيران إلى أنه كان ينظر إليهما من السلطان نظرة التقدير والإكبار .

ويبدو أن والده كان بالأدب شغوفا وبرجاله ولوعا ، حتى اشترى نصف نسخة من كتاب « صحاح الجوهري » بما يعادل وزنها من الدراهم ، وليس ذلك — أيما كان الدافع — إلا فهما لقيمتها ، وتقديراً لكنوزها ، فلا عجب أن يكون شاعراً بالأدب ولوعا ، وبالشعر شغوفا فقد غذى به في طفولته ، مع كل إشراقة من أبيه ، ومع كل من يتصل به من عارفه ومحبيه .

أما جده فقد قرر الصفدى في كتابه الوافى نقلاً عن ياقوت — الذى أسنده بدوره إلى صاحب الوزير جمال الدين الأكرم — أن سناء الملك جد شاعرنا كان يهودياً غنياً يسمى « رازن » ثم اعتنق الإسلام وكان يشغل في تغيير النقود في القاهرة ومات بعد ذلك مورثاً ابنه القاضي الرشيد عمليات إقراض النقود ، وعمليات أخرى كون منها ثروة عظيمة ، ويضيف الصفدى إلى ذلك أن القاضي الرشيد كان محدود الثقافة قليل المعرفة .

وبمناقشة الصفدى يتضح لنا بعد هذا الادعاء : عن الحقيقة والصواب ، فأولاً : كيف يتأتى وصف جده بأنه يهودى مع أن والده (أى والد جده) يسمى محمداً . وثانياً : لم نعر لياقوت الذى أسند إليه هذا القول على ما يؤيد ذلك بل على العكس أشار في الترجمة التى أوردها لابن سناء بالتقدير والاحترام لكل من أبيه وجده (٢) .

فجده لم يكن يهودياً ، وإنما ذلك كله اتهام وصمه به أعداؤه رغبة النيل منه والخط من شأنه ، وقد كان جده يتمتع بمكانة عليا ، جعلت شاعرنا يحزن كثيراً لفقده على الرغم من طول عمره فقد مات عن ستة وتسعين عاماً سنة ٥٨٠ هـ ، وقد حرص على أن يسير في جنازته وهو في شدة المرض ، ورثاه بقصيدة حزينة بلغت تسعة وثلاثين بيتاً مطلعها : —

خانت جفونى لما لم تفض بدم لكن وفى الجسم لما فاض بالسقم

وقد أشار فيها إلى مرضه

خرجت خلفك محمولا كما خرجوا بجسمك الطهر محمولا على القمم (٣)

يا حسرتى إذ رأتى راكبا لهم وما مشيت على رأسى ولا قدمى

وأما ما اتهم به الصفدى القاضي الرشيد ، بأنه كان محدود الثقافة فيكذبه أيضا ما عرف من أنه كان

(١) راجع الديوان قافية الميم

(٢) راجع معجم الأدباء ج ١٩ ص ٢٦٥

(٣) راجع الديوان قافية الميم

يتبادل الرسائل الأدبية مع القاضي الفاضل ، وكانا يتناقشان في قصائد الشاعر الناشئ من جهة ، وفي القضايا الأدبية العامة من جهة أخرى (١) ونحن نعرف منزلة القاضي الفاضل ، وأنه كان يحتل مركزا خطيرا في الدولة ، فكيف يضيع وقته ، ويكتب لرجل محدود الثقافة قليل المعرفة .

وكيف يتأتى لرجل محدود الثقافة أن يشتري نصف كتاب مخطوط بخمسة عشر دينارا كما أسلفنا ، إن ذلك لا يتأتى إلا من رجل شغف بالأدب ، محب للمعرفة وأن كل ما اتصف به من تلك الصفات لا يمت إلى الحقيقة بصلة ولا بنسب .

### نشأته - ثقافته - أساتذته :

في هذه البيئة التي جمعت بين الثقافة والغنى ، والمنزلة والجاه ، نشأ الشاعر وترعرع ، في أحضان أب يرعاه ، ويهتم بتعليمه وتنقيفه ، فأحفظه القرآن الكريم على الشريف الخطيب ، (٢) ثم درس اللغة والنحو في حلقات عبد الله بن برى المتوفى سنة ٥٨٢ هـ (٣) وفي سنة ٥٧٠ هـ اتجه إلى الاسكندرية ليدرس الحديث على المحدث الحافظ بن طاهر أحمد السلي (٤) ، فجمع في نشأته بين علوم الفقه والدين واللغة ، فهيأ نفسه بذلك الرصيد من المعرفة ، للتعمق في دراسة الأدب ، وبذا لم يكن سطحيا في شعره ، فكثيرا ما نصادف مقطعات وقصائد يتزع فيها إلى خيال بعيد أو فكرة عميقة .

وكان ملما ببعض اللغات الأجنبية المنتشرة في تلك الحقبة ، فهو يجيد الفارسية ويتقنها ، ويشير إلى ذلك في إحدى قصائده التي وجهها إلى القاضي الفاضل :

وعز على العرب أنى حفظ ت برغى بعض لغات العجم (٥)

وقد استطاع أن ينشر باللغة الفارسية ، ويستخدم بعض الخرجات الفارسية في موشحاته وكان المصريون السابقون له يضعون الموشحات بخرجات مغربية استمع إلى قوله في موشحته التي مطلعها : -

في خديك من صبر اللاذ ثياب الياسمين

إلى أن قال :

وخود كما شبت طفلة	كغصن من مايس
أرادت أن تكون خلة	لظبي كانس
فلما جنت منه قلة	شدت بالفارسي
دانتي كي بوسه بمن داد	دها أنكس تريمن
أوار كواي دست من باش	ببوسته شبيمن

(١) راجع فصوص الفصول : ٧١ ، ٧٢ .

(٢) انظر السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ : ص ٢٨٣ .

(٣) انظر « شذرات الذهب لابن عماد الحنبلي .

(٤) راجع حسن المحاضرة : ج ١ ص ٢٠٠ .

(٥) راجع الديوان قافية المجد

والخرجة الفارسية بمعنى : « هل تعرف متى قبلني ؟ ، إن فهمها كان شاهدي على هذه القبله التي منحتني إياها » (١) .  
والظاهر أن الفارسية كانت منتشرة في أرجاء الوطن الإسلامي آنذاك انتشار اللغة الإنجليزية في بلادنا الآن ،  
وبخاصة بعد ترجمة كثير من كتب العلم والأدب عنها ونبوغ كثرة من أبناء الفرس في الأدب والفن والعلم  
مما جعل الآباء المتفتحين يعدون أبناءهم بهذه اللغة الحية ، وكان القاضي الرشيد من الوعى والفتنة بحيث أغرى  
ابنه وشجعه على تعلم الفارسية .

وكان ملما بعلوم الفلك حتى كثرت إشاراته لأسماء الكواكب والنجوم والأفلاك ومنازلها وما يدور حولها  
من قصص وأساطير استمع إليه يقول : —

أيا بصرى لا تنظرن إلى بصرى      فإني أرى الأحباب في بلدة أخرى  
وما بلدة لم يسكنوها ببلدة      ولو أنها بين السماكين والشعري (٢)

### علاقته بالقاضى الفاضل :

ولا يمكن في هذا الصدد أن نتجاهل صلته بأستاذه الكبير القاضى الفاضل فلقد أشار ابن سناء إلى هذه  
الصلة في كتابه « فصوص الفصول » حيث يقول :

« وهو الغنى وأنا المحتاج إليه ، وهو المعطى وأنا الآخذ منه ، وهو الأستاذ وأنا التلميذ له والمتعلم منه » (٣)  
ولقد كانت رسائل الشاعر وقصائده تصل تباعا إلى القاضى الفاضل عندما كان في دمشق ، كما كانت ردود  
القاضى الفاضل ورسائله تصل شاعرا في انتظام ، وكتاب « فصوص الفصول » حافل بالرسائل التي أرسلها  
القاضى الفاضل إلى القاضى الرشيد وإلى ابن سناء وموضوعاتها تدور حول الشاعر ، ورأى القاضى الفاضل في  
قصائده ، وتعليقه عليها ، ومن تلك الرسائل نفهم أن الصلة بين القاضى الفاضل وبين الشاعر صلة وطيدة ،  
قواها صلته السابقة بأبيه القاضى الرشيد وزادها تأكيداً قرابة الأدب ونسبه وعلى الرغم من أن القاضى الفاضل  
أعلى مكانة وأرفع منزلة ، وأكبر سنا إلا أنه وجد فيه ميلا شديدا إلى الأدب وقدرة على الشعر لذا رضى أن  
يكون له موجهها ومرشدا ، وكان في نقده قصائده رقيقا رفيقا يميل إلى تشجيعه ، والأخذ بيده ، ويرى أنه ما  
من قصيدة إلا وهى أحسن من أختها ، وما يرينا من آية إلا وهى أكبر من أختها ، وما يجلو علينا عروسا إلا وقد  
جمع بين حسننها وبخنتها ، وقلما يجمع الحسن والبخت ولهذا قيل : « وقد تمنى المليحة بالطلاق » وعقائله المليحة  
لا تطلق ولا تطلق وقد علقت العرب أدون منها ، فلا غرو أن هذه بالقلوب تعلق ، وبالضلوع تعتنق ، فالمعلقات

(١) دراسات في الشعر للدكتور محمد كامل حسين .

(٢) السماكان : كوكبان نيران أحدهما في جهة الشمال ويسمى السماك الراح والآخر في جهة الجنوب وهو السماك الأعزل  
وأما الشعري : فهى الكوكب الذى يطلع في الجوزاء في شدة الحر ويقال له الشعري إيمانية وكوكب آخر يطلع في الذراع ويقال  
له الشعري الشامية . ومن أساطير العرب أن سهيلا أقبل من ناحية اليمن وأقبلت الشعريان من ناحية الشام حتى انتهى المسير إلى  
المجرة . وهى نهر في الفلك فوقف كل من الفريقين على شاطئى المجرة وخطبهما سهيل فأجابتهما إلى الزواج وعبرت إليه إيمانية  
منهما فقيل لها الشعري العبور ولم تقدر الشامية على العبور فوقفت تباكى حتى لم تستطع أن تفتح عينيها من البكاء فقيل لها الشعري  
الغيمضاء .

(٣) راجع « فصوص الفصول » .



بعدها زادت على عدتها ، وفضلتها هذه بجدتها وجودتها .. » (١) وهكذا كان القاضي الفاضل يدفع الشاعر قدما بأرائه وتقريظه ، وكان لهذا الاتجاه أثر مشكور في تقدم الشاعر وإحرازه قصب السبق والتفوق ، حتى حسده الشعراء الآخرون ، وحقدوا عليه ، وسيأتى الحديث تفصيلا عن صلة الشاعر بالقاضي الفاضل عند الحديث عن شعره .

### علاقته بالوزراء والأمراء ورجال الحاشية :

وكان لصلة القاضي الفاضل بصلاح الدين وحاشيته ، وبالبيت الأيوبي كله ، واثقة صلاح الدين الزائده به ، كان لهذا كله أثر بارز في تطلع ابن سناء إلى الاتصال بالأمراء والوزراء ورجال الحاشية ، وقد ساعدته شاعريته على الاتصال بهم فمدح من السلاطين « صلاح الدين » وأولاده العزيز والأفضل ، وأخاه الملك العادل ، كما مدح من الوزراء ابن شكر على الرغم مما كان بينه وبين القاضي الفاضل من عدا .

فانجاذ ابن سناء إلى النفع الذاتي ، جعله يتنامى فضل سيده ، وأثره الذى لا ينكر وربما كان خوفه من ابن شكر هو الذى دفعه إلى ذلك وخاصة إذا علمنا أنه كان ينتقم من أصدقاء القاضي الفاضل وأقاربه ، ولكن هل تحققت آماله على يد ابن شكر كما تحققت من قبل على يد القاضي الفاضل ؟

### المناصب التى وليها :

لقد كان القاضي الفاضل صاحب اليد الطولى في كل ما وليه « ابن سناء » من وظائف حسده عليها أعداؤه ، فعندما غادر القاضي الفاضل القاهرة إلى دمشق سنة ٥٧٠ هـ في خدمة « صلاح الدين » لم تنقطع صلة ابن سناء به بل كان يرسل إليه قصائده ، ويتلقى منه ردودا عليها ، وكان القاضي الفاضل شديد الإعجاب به ، يذيع على الشاميين قصائده ومحاسنه ، ويتنبأ له بالسبق والتقدم ، وقد دفعه فرط إعجابه به إلى أن يستقدمه إلى دمشق ليكون كاتم سره في ديوان الإنشاء ، ولكنه لم يبق طويلا في الشام لأنه كان شديد التعلق والحنين إلى مصر ، ولم تسه زياراته بلدان سوريا كحمص وحماة وغيرهما تلك الالهفة العارمة ، وذلك الشوق المتقد ، والحنين المتجدد ، بل والتبرم ببلاد الشام ، وربما ورث هذا التبرم من أستاذه نفسه ، فقد كتب القاضي الفاضل رسائل في تفضيل مصر على الشام جاء فيها : « وأما أحوالى فإننى لم أزل ملتاثا منذ دخلت دمشق لتغير مأثها وهوائها ، وأبنيتها وأبنائها وأوديتها وأدوائها ، وقراها وقرنائها ، ومن لى بمصر فإننى أقنع بماتنتبه أرضها من بقلها وقتائها وأبيع بردى وما عساه بشربة من مأثها وأمتطى متن السيف فى هجر سوادها وسودائها ، فالطلل هائل ولا طائل ، وما كنا نسمع به من تلك الفضائل متضائل حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، فهى بلاد تستجدى ولا تجدى ، وفعل الملام بها لازم التعدى . » (٢)

وقد تحققت رغبة « ابن سناء » فى العودة ، فى أوائل سنة ٥٧٢ هـ قرر « صلاح الدين » مغادرة سوريا إلى مصر مصحوبا بموظفيه فعاد ابن سناء مع الحاشية ، وقد قرر الصفدى أنه كان يتقاضى راتبه سواء أحضر إلى الوظيفة أم لم يحضر ، ولما رحل القاضي الفاضل مرة أخرى إلى دمشق فى صحبة « صلاح الدين » لم يرحل معه « ابن سناء » بل بقى فى مصر وكيلا عن القاضي الفاضل يرعى ولاياته الواسعة وهى وظيفة لا تسند إلا إلى كفء

(١) فصوص الفصول .

(٢) الروضتين : ج ٢ ص ٥٨ .

موثوق فيه ، وقد ظل ابن سناء في هذا المنصب الهائل حتى وفاة القاضي الفاضل سنة ٥٩٦ هـ ، ومن قصائده التي مدح بها القاضي الفاضل وصلاح الدين في هذه الفترة نرى أن حالته قد تحسنت في هذه الوظيفة ، استمع إليه في قصيدته التي مدح بها صلاح الدين والتي مطلعها : —

أجلس لهوى ليس لي عنك مجلس لأوحشت لما غاب لي عنك مؤنس  
ففيها يقول :

وإني لي البشري وإن فراستني تصح لأنني مؤمن أنفـرس  
لك المدح مني ينتشى السامعون به كأن مديحي في معاليك أكؤس  
كلانا بديع الصنع مدحي مطبق وجأشك في قهر الملوك مجنس  
فلقد طبقت شهرته في الشعر الآفاق ، وعرف بين أهل الشام كما عرف بين شعراء مصر وقد استغل هذه الشهرة في تحسين مركزه وحالته الاقتصادية ، ووظيفته الرسمية ، ولما وافى الأجل المحتوم سيده القاضي الفاضل ، ووصل ابن شكر إلى مرتبة الوزارة وهو العدو الألد للقاضي الفاضل لم يجد ابن سناء غضاضة في مدحه ، والتقرب إليه حتى حظى بهداياه ، وصلاته ، وبقيت صلته الدائمة بالخاصية والسلطين حتى ولاه الملك الكامل ابن الملك العادل المسؤولية الكاملة عن ديوان الجيش سنة ٦٠٦ هـ ، ولكنه لم يجد هذا المنصب مناسباً لطبيعته فرفض هذه الوظيفة في أدب جم ، وقد أشار إلى ذلك في مقطوعة وجهها إلى سيده الملك الكامل من قافية الشين ، وهي آخر ما قاله من الشعر ، ويبدو أنه ظل في هذه الوظيفة ما يقرب من عامين لأن هذه الأبيات قالها قبل وفاته بقليل : —

قد عجز الملوك عن خدمة ثباته في مثلها طيــــش  
للجيش ديوان ومالى به أنس ولا عندي له عيــــش  
وصرت مهزوما فلا تعجبوا من واحد يهزمه الجيش (١)

#### مجالسه ومنادياته :

وكان لابن سناء الملك مجالس تجرى فيها المحاورات والمفاكهات التي يروق سماعها ، وكانت داره إحدى المنتديات التي جمعت أسباب الترف والاهو ، وجمعت بين ما يلد القلب والعين ، ويمتع النفس والخطير ، ففيها الزهور والبساتين ، التي تزرى بأية روضة على حد قوله :

لقد قصرت عن شأوها كل روضة وقصر عن أملاكها كل أفضل  
وأنسى بها بين الوري ذكر جعفر الر شيد فأني جعفر المتوكل  
وبها تماثيل مصورة ينساب منها الماء ، فكلم من طائر ينبعث الماء من رأسه ، وأسد يشب الماء من فمه : —  
وكم طائر من رأسه الماء طائر على أنه في وكره كالمكيل  
وكم أسد الماء من فيه واثب وإن كان لم ينهض ولم يتحلحل  
ولو رآها كسرى وقصر لضرب كل منهما كفا على كف ، ولفغرافه ، وجحظت عيناه :  
يقابل كسرى قيصرًا وكلاهما يقلب طرف الباهت المتأمل  
فكسرى يرى الإيوان كسرا وقيصر يرى القصر خص الناسك المتبتل

(١) الديوان : قافية الشين .

ويجد العشاق متعتهم في أبهاء تلك الدار ، فقد صور فيها مناظر العشاق الذين يرون العشق فرضا متزلا على حد قوله : -

وصور في أرجائها كل عاشق يرى العشق فرضا في الكتاب المنزل  
جميل بثين مع كثير عزة يصوغان أشعار الهوى والتغزل  
وله في وسطها منظر تطل على النيل كأنها الزهرة اللامعة المتألقة ، وكأنها جمعت بين حسن الدنيا ، وجمال الآخرة : -

انظر إلى المنظرة الناضرة تزه مثل الزهرة الزاهرة  
أحسن ما في حسناتها أنها السعدنية وما ألفت عن الآخرة  
في هذه الدار وفي غيرها (في القاهرة) كان يلتقي بأصدقائه وأحبابه ، وبالشعراء والنقاد فيناقشون مسائل الأدب  
حيناً ، ويعيشون حيناً ، ويحتد بعضهم على بعض في المناقشة حيناً آخر ، وكان يدعو أصدقاءه إلى مجلسه ،  
ويهددهم بالهجاء إن لم يجيبوا دعوته وهذه إحدى رسائله إلى أحد أصدقائه :

حضر الحبيب وأنت أشبهى للفرؤاد من الحبيب  
فلئن حضرت مسارعا فلأصفحن عن الذنوب  
ولأمدحنك بالفتوة في الحضور وفي المغيب  
ولئن قعدت لأهجونك في البعيد وفي القريب  
وأقول هذا في النها ر قد استرحنا من رقيب

ويرسل لصديق آخر يستدعيه فيقول له : -

تهت عنا مذنت عجبا علينا يا كثير الخطأ قليل الإصابة  
نحن في دعوة فإن غبت عنا رجعت دعوة عليك مجابة

وقد حدثوا أن الشاعر ابن سناء بلغه أن هبة الله بن مقلد الكاتب قد هجاه فأرسل إليه من أحضره ، وأدبه وشتمه .  
فكتب إليه نشو الملك المعروف بابن المنجم الشاعر المعروف : -

قل للسعيد أدام الله نعمته صديقنا ابن وزير كيف تظلمه  
صفعته إذ غدا يهجوك منتقما فكيف من بعد هذا ظلت تشتمه  
هجو بهجو ، وهذا الصفع فيه ربا والشرع ما يقتضيه بل يحرمه  
فإن تقل ما لهجو عنده ألم فالصفع والله أيضا ليس يؤلمه

وجاء فيما كتبه الصفدي عن ابن سناء أنه حضر اجتماعات الشيخ أبي المحاسن البهنسي الغوري أبي الوزير البهنسي  
الذي أصبح وزيراً للأشرف بن العادل ، وكان ابن سناء ذكيا وذا عقل ناضج يفهم ما يقال بسرعة ، وفي هذه  
الاجتماعات اتصل برجل مغربي تعود أن يشغل نفسه بتأنيف الموشحات المغربية بالإضافة إلى الأزجال ، فاتصل  
به ابن سناء ، وناقشه في الموشحات حتى أصبح فيها خبيرا ، بل إنها تقدمت على يديه أكثر مما تقدمت على يد  
المغاربة أنفسهم ، غير أن ابن خلكان وياقوت لم يشر أحدهما إلى هذه الحادثة ، ونجد ابن سناء في كتابه «دار  
الطراز» يدعي أنه اعتمد على نفسه اعتمادا كلياً في معرفة الموشحات ، واستنباط قواعدها ونهجها الذي نسير

عليه فيقول : «..... واعذر أخاك فإنه لم يولد بالأندلس ولا نشأ بالمغرب ، ولا سكن أشبيلية ، ولا أرسى على مرسيه ، ولا عبر على مكناسه ، ولا سمع الأرغن ، ولا لحق دولة المعتمد ، وابن صمادح ، ولا لقي الأعمى وابن بتي ، ولا عبادة والحصرى ، ولا وجد شيخا أخذ عنه هذا العلم ، ولا مصنفًا تعلم منه هذا الفن ، فإن رأيته قد نهض به طبعه ، وأخذ بيده ذهنه ، وأضاء له خاطره ، وهدته قريحته إلى الطريق ، ومشى فيها بلا دليل ، واستأنس بلا رفيق وجدّ إلى أن وجد ، وطلب إلى أن غلب فلا تجحد حقه ، واعرف له وزن فهمه ولطف ذهنه ، وحسن ذوقه ، وحسن غوصه ، وبعد غوره ، وقدر همته ، وإن رأيته تعليمه لك نعمة ، فاعرف له قدر نعمته .....»

ومن ثم نرى أن (١) ابن سناء الملك قد اعتمد على نفسه في تعلم هذا العلم ، وهذا لا يبنى احتمال استماعه من شيخ مغربي بعض الموشحات لا لدرجة أنه تعلمها منه .

ومر «ابن عنين» (٢) الشاعر الدمشقي بالقاهرة فاستهوته مجالسها ، وطابت إقامته بها فترة من الزمن انهارت عليه الدعوات من الأدباء والشعراء ، واجتمعوا معه على أرغد عيش ، وكانوا يقولون هذا شاعر الشام ، وجرت لهم محافل سطرت عنهم وخاصة مع ابن سناء الملك .

### أخلاقه :

إذا كان لنا أن نستخلص طرفاً من أخلاقه فإننا نجد أنفسنا أمام أساسين رئيسيين ، وفي نظري أن كلا منهما يعطى صورة تختلف عن الصورة الأخرى .

فأما الأساس الأول فهو ظروف نشأته ، وانحداره من أصل جمع بين الغنى والجاه والثقافة والأدب ، وكذلك صلته بالقاضي الفاضل وهو الواقور الجاد ، والوزير الخطير وكذلك ما كتبه عنه الأدباء والمؤرخون ... أقول إن هذا المصدر لو اعتمدنا عليه فإنه يمدنا بصفات عظيمة لشاعرنا فيها الاعتدال ، وفيها الورع ، وفيها التقوى ، وفيها الشموخ والاعتداد بالنفس ... الخ

والأساس الثاني هو ديوانه وشعره وإذا اعتمدنا عليه فإننا نلمس منه صورة مناقضة للصورة السابقة ، فأكثر من نصف الديوان للمدائح ، ومعظم هذه المدائح يشتمل على مبالغات غير مقبولة ، فهو يصل بممدوحه حد الألوهية ، فالدهر لو أخطأ فإن هيبة عبد الرحيم البيساني تؤدبه وتقيم عليه الحد ، وبذا يقسم ابن سناء :

ويمينا لو عربد الدهر سكرا لأقيمت منها عليه الحدود (٣)  
ويرى أن الدهر خادم وأن القاضي الفاضل سيده :

وما الدهر إلا خادم أنت ربه وما الخلق إلا عالم أنت فاضله  
ويرى أن القدر لا يستطيع أن ينقض ما أبرمه الممدوح :

فلا يقدر المقدار ينقض ما قضى ولا يستطيع الدهر يهدم ما بنى  
ويعيد هذا المعنى نفسه في مدائحه لصالح الدين :

(١) دار الطراز : تحقيق الدكتور جودة الركابي ص ٤٠ .

(٢) ولد سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م وتوفي سنة ٦٣٠ هـ ١٢٣٢ م وله ديوان نشره خليل مردم بك (سابقاً) بدمشق

(٣) راجع الديوان قافية الدال .

فما يبرم المقدار ما كنت ناقضا وما ينقض المقدار ما كنت مبرما  
وفى مدح الملك العزيز يرى أنه هو الذى ينظم أمر الكون ، ولولاه لا نفرط هذا النظام :  
لولاك تنظم عقد هذا الدهر لا نحل النظام  
بل إنه ليعترف على نفسه فيجد أنه كاذب فى مدائحه ، صادق فى أهاجيه  
كآبة الكذب فى مديحى ورونى الصدق فى هجائى

فماذا نستخلص من وراء هذه المبالغات ؟.. هل كان يجد نفسه قليلة القدر حتى يضطر إلى هذه المبالغة فى ممدوحيه ؟  
لا نستطيع أن نحكم هذا الحكم لعراقه أصله ونبوغه المبكر وحسد أقرانه له ولكنه مزيف للحقيقة والواقع :  
هذا إذا تجاوزنا نظرة الدين وأنه بهذه الصفات الخارجة عن حد المألوف ، والتى لا يوصف بها غير الله - خارج  
عن حدود الدين ..

وماذا نقول حين ينظر إلى التراب الذى يطؤه القاضى الفاضل برجيه فيحسده ويتمى أو سار عليه برأسه  
فيقول :

نلتى تراب مواطيه بأعيننا وتحسد الرجل فيه قمة الرأس  
ومن شعره كذلك نرى أنه يؤمن بمبدأ المصانعة ، فيغمض عينيه على غل وحقد دفينين ويصرح بذلك فى شعره :  
وكانه يطبق ما قاله زهير بن أبى سلمى  
ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنهم  
فها هو ذا يضطر إلى مصالحة إنسان بعد مخاصمته ومقاطعته فيقول :  
أقبل كفا ليتنى لو قطعتها وألثم ثغرا ليتنى لو فضضته  
وهو خلق لا شك غير حميد .

وكان حريصا على النفع الشخصى فهو وفى مخلص للقاضى الفاضل فى زمن كان قادرا فيه على تحقيق  
أطماعه وآماله ، معرض كل الإعراض عن عدوه الصاحب بن شكر ، فلما مات القاضى الفاضل نسي عداوة  
سيده ، وأقبل عليه بمدحه ، ويستجديه حين خلص إليه أمر الوزارة وأصبح يرجى نفعه ، ويخشى بأسه وكان  
القاضى الفاضل يكره ابن شكر ويصرح بذلك فيقول : «أما ابن شكر فهو لا يشكر وإذا ذكر الناس فهو  
الشيء الذى لا يذكر ..» وكان ابن شكر يقول عن القاضى الفاضل : «ما فى قلبى حسرة إلا من البيسانى ، ما  
تمرغ على عتباتى ، ومع ذلك بمدحه ابن سناء ويقول فى مطلع قصيدته :

ما على الدهر بعد رؤياك عتب ما بقى للزمان عندى عتب  
هذه النظرة التى كنت أشتا ق إليها طول الزمان وأصبو  
ويبدو أن ابن سناء خاف بطش ابن شكر فمدحه (١)

وأخذ ابن سناء من الخلاعة والمجون والاستهتار بقسط وافر وبمراجعة أشعاره فى المجون التى يعف القلم  
من التعرض لها يتضح ذلك فكثيرا ما صرح بتجاربه مع غلمان وجوار وصرح بأعضاء التذكير وأعضاء التأنيث  
غير مبال ولا مهمم بعفة ، ولا متحرز بفضيلة .

وبالغ في فخره واعتداده بنفسه فهو يحتقر الناس جميعا ، ولا يأبه بهم ويرى الزمان عبدا هو سيده .  
وفرط احتقارى للأنام لأننى أرى كل عار من حلى سوددى سدى  
وإنك عبدى يا زمان وإننى على الكره منى أن أرى لك سيدا  
ولو علمت زهر النجوم مكانتى نلحرت جميعا نحو وجهى سجدا  
أرى الخلق دونى إذ أرائى فوقهم ذكاء وعلما واعتلاء وسوددا

### مذهبه الدينى :

وينبغى أن نتعرض في هذا المقام لمذهبه اندينى ، فقد اتهمه بعض المؤرخين بالتشيع ، ورأى آخرون أنه يدين بالمذهب السنى .

فقد قرر ابن سعيد في كتابه الاغتباط : أنه كان مغاليا في التشيع (١) وأيد الصفدى ما ذهب إليه ابن سعيد بأبيات قالها ابن الساعاتى المتوفى سنة ٦٠٤ هـ اتهم فيها ابن سناء بأنه كان يكره أم المؤمنين عائشة زوج النبى ، ولم يكن يحب أباهما ، ولذا نال ما يستحق وسقط من فوق البغل الذى أهدها إليه ابن شكر والذى كان يسمى بالجلمل .

ولا نستطيع أن نمر على مثل هذا الاتهام دون أن نناقشه لنكشف عن الحقيقة الصادقة في هذا الموضوع .  
١ - فنحن نعرف أن ابن سناء تلقى علوم الحديث عن السلفى ، وكان السلفى سنيا شافعى المذهب وكان ابن سناء يحترمه ويحبه حتى خصه ببعض مدائحه بطريقة لا يقبلها الشيعى ، فقد خاطبه صراحة بأنه إمام الإسلام ، وأحسن مرشد لشريعة النبى عليه السلام ، وهذه صفات يتردد الشيعى في ذكرها استمع إليه يقول :-

فجئت إلى الإسكندرية قاصداً إلى هبة الإسلام أو علم العلم  
إلى خير دين عنده خير مرشد وخير إمام عنده خير مؤتم  
إلى أحمد المجي شريعة أحمد فلا عدمت منه أبا أمة الأمى  
إذا ما شياطين الضلال تمردت جدا فمن أقواله كوكب الرجم  
أتيت له مستشفعا بدعائهم يقيـل به جرمى ويشفع فى لئـمى (٢)

٢ - لم يذكر المؤرخون المتصفون من أمثال «ابن خلكان» و«ياقوت» و«أبى الفداء» ما يشير إلى عقيدة الشاعر وأنه كان شيعيا .

٣ - من تتبعنا لكتب ابن سناء لم نعر على ما يؤيد ذلك من قريب ولا من بعيد بل على العكس من ذلك وجدنا ما يؤكد أنه كان سنيا ، ففي مقدمة كتابه «فصوص الفصول» يمدح صحابة النبى عليه السلام المهاجرين منهم والأنصار دون أدنى تحفظ ، وأكثر من هذا لا يوجد أى ذكر لعلى أو للأئمة الآخرين من بيته ، ومن الطبيعى ألا يمدح الشيعى أصحاب النبى ثم يهمل ذكر على والأئمة الآخرين فيها هو ذا يقول : «وصلى الله على السيد الأجل ، النبى الأمى ، الذى يؤمن بالله وكلماته ، ويخرج المؤمنين من ظلل الكفر وظلماته ، محمد وآله وأصحابه الذين هاجروا وهجروا وآووا ونصروا ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أظهره الله بهم على الدين

(١) راجع الاغتباط في حلى مدينة القسطنطين ج ٢ : ص ٢٩٣

(٢) راجع الديوان : قافية الميم في مدح السلفى .

كله ، وجمع لهم به الخير أجمعه » . (١)

٤ - في مدحه الملك المظفر « عمر بن شاهنشاه » يقرنه في أدب واحترام زائدين بسميه « عمر بن الخطاب »  
ال خليفة الثاني ، ويراه مترسماً نهجه ومعيدا في الناس سيرته

وسيرك فينا سيرة عمرية فروحت من قلب وفرجت من كرب  
وردك فينا من سميك سنة فأظهرت ذاك الفرض من ذاك الندب (٢)

٥ - وفي هجائه ابن عثمان يقول :

على وعثمان أبوه وجده على قوله - حاشا عليا وعثماناً  
فإن سرقوا أسما الكرام فرموا رأينا يهودياً يسمى سليماناً  
فالشيعة لا يقرن عليا بعثمان ، إذ يرى عليا هو الخليفة وحده ، وغيره من الخلفاء معتدون .. وفي هذين البيتين  
رد صريح أيضاً على من زعم أن جده كان يهودياً .

٦ - وفي مدائحه للقاضي الفاضل ينفي عن نفسه التشيع نفياً صريحاً ، فيرى أنه في حبه القاضي الفاضل  
يجمع بين صفة التشيع من ناحية الحب العامر للممدوح ، وبين صفة السنية من حيث مذهبه الديني فيقول :  
أصبحت في مدح الأجل موحداً ولكم أتننى من أياديه ثنى  
وغدوت من حبي له متشيعاً يا من رأى متشيعاً متسنناً  
وفي قصيدة أخرى يقول :

تشيع الخلق مثلي في محبة - - - إذ كان قائم جود غير منتظر  
وهو شيعة فقط في حبه الزائد وإخلاصه للقاضي الفاضل ، وفي البيت إشارة إلى القائم عند الإمامية وهو المهدي  
المنتظر الذي ينتظر الشيعة عودته .

٧ - وفي قصيدة نونية أخرى يمدح بها القاضي الفاضل يشير إلى يوم عاشوراء وهو اليوم الذي قتل فيه  
الحسين ، والشيعة يلبسون فيه السواد ، ويتتجبون ويضربون أنفسهم بالسلاسل الحديدية حتى تسيل منهم الدماء .  
وما زالوا يفعلون كذلك في العراق وخاصة في كربلاء والنجف وهو في هذه القصيدة ينفي عن نفسه أنه شيعة ،  
وإن أوضح أنه يوم يشارك فيه الشيعة السني حزنه فيقول :

ونظمتها في يوم عا شورا من همي وحرزني  
يوم يناسب غبين من قتلوه ظلماً مثل غبني  
يوم يساء به وفيه كـل شيعة وسني  
إن لم أعز المسلمي - - - به فإني لا أهني  
أو كنت ممن لا ينسو ح به فإني لا أغـني  
قتل الحسين بكل ضرب للبغاة وكل طعن  
وهذا هو رأي السني في يوم عاشوراء .

(١) فصوص افصول .

(٢) راجع الديوان قافية الباء

— وثمة حقيقة أخيرة أنهى بها هذا الموضوع وهى أن صلاح الدين كان يأخذ بالشبهة من يلوح عليه أنه متشيع ولو كان سنيا ، فقد قضى على عِمارة اليمنى للممالاته أهل الشيعة على الرغم من أنه سنى ... بينما حظى ابن سناء بكثير من خلع الشرف من «صلاح الدين» وخلفائه فى مصر .  
ومن ثم نؤكد أن ابن سناء كان سنيا ، وأن كل ما قيل عنه رجم من حاقداً أو ناقم ، أو ساع له بشر ، أو مدبر له كيدا ، أو غافل عن الحقيقة .

### آثاره العلمية ومنزلتها :

لقد ترك ابن سناء بعض الآثار الأدبية التى ما زالت تعيش بيننا حتى اليوم نذكر منها :

١ — روح الحيوان : لخص فيه الشاعر كتاب الحيوان للجاحظ (١) ، وكان الشاعر مولعا بمذهب الجاحظ فى الكتابة ، ومعجبا به ، ولذا درس بعض كتبه دراسة دقيقة ، حتى أخذ على عاتقه تلخيص كتاب الحيوان ، واحتفظ منه بنسخة دون عليها الجاحظ بعض ملاحظاته بخط يده ، وقد أشار ابن سناء فى إحدى الرسائل التى بعث بها إلى القاضى الفاضل إلى تأثير الجاحظ فى الكتاب الذين أتوا بعده مثل ابن العميد ، وأبى حيان التوحيدي ، والوزير أبى القاسم المغربى ، وقد سر القاضى الفاضل من اتجاه الشاعر ، وأغراه أن يستمر فى دراسة مؤلفاته الأخرى كالبيان والتبيين . (٢)

٢ — مختارات من شعر ابن رشيق القيروانى : من إحدى الرسائل التى بعث بها ابن سناء إلى القاضى الفاضل نعرف أنه جمع مختارات من شعر ابن رشيق أعجب بها ثم أرسلها إلى أستاذه مع مذكرة نقدية ويبدو أن القاضى الفاضل قد أعجب بتلك المحاولات ورآها ذات أثر بالغ فى تكوينه ككاتب فى ديوان الإنشاء فأشار عليه أن يجمع مختارات من شعر ابن الرومى ، ويظهر من الرسائل المتبادلة بينهما أن هذا العمل لم يتم . (٣)

٣ — دار الطراز : فى فن الموشحات : وهو من أعظم آثار الشاعر الأدبية ، وقد حققه الدكتور جودة الركابى ، وهو لا يزيد عن مائة وخمسين صفحة ، وقد قسمه الشاعر ثلاثة أقسام :  
القسم الأول : مقدمة طويلة تحدث فيها الشاعر عن فن الموشحات ، وقوانينه ، وعرفنا طريقة كتابته ، وناقش تفصيلا أشكال الموشحات المختلفة ، وضرب لها الأمثلة من موشحات مغربية .

والقسم الثانى : يستعرض فيه الموشحات المغربية التى استمد منها أمثلته فى المقدمة .  
والقسم الثالث : موشحات ابتكرها وصاغها هو بنفسه ، ويعد ابن سناء قمة شعراء المشرق فى كتابة الموشحات ، بل إن شهرته فى الموشحات تفوق شهرته فى الشعر . (٤)

٤ — مساعد الشوارد : وهو أحد كتبه التى لم نعر عليها ، وإنما علمنا ذلك من إحدى رسائله إلى القاضى الفاضل — وهى رسالته التى تحدث فيها عن عيوبه الملتبها وعن مرضه الخطير ، وقد ذكر أن هذا الكتاب بأكمله جاء ضمن كتابه المسمى : «مساعد الشوارد» كما وردت الإشارة إليه فى قائمة كتبه التى ذكرها الصفدى .

(١) راجع معجم الأدباء ج ٩ : ٢٦٥ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ : ص ٢٨

(٢) راجع فصوص الفصول .

(٣) راجع فصوص الفصول

(٤) راجع : دار الطراز تحقيق جودة الركابى .



هـ - فصوص الفصول وعقود العقول : وقد قسمه قسمين : القسم الأول منه يحتوى على خطابات المؤلف التى كتبها إلى القاضى الفاضل ، وردود القاضى الفاضل عليها .

والقسم الثانى يحتوى فقط على الخطابات التى كتبها الفاضل عن الشاعر إلى والده القاضى الرشيد ، وإلى ابنه القاضى الأشرف ، وهذا الكتاب ذو أهمية بالغة فى دراستنا لشعر الشاعر إذ أنه ينبر لنا الطريق عن بعض قصائد الديوان ومناسبتها ، والملاحظات النقدية التى أبدأها القاضى الفاضل ، ولذا سيكون أحد المصادر الهامة التى سنرجع إليها فى دراسة شعره .

٦ - الديوان : وهو الذى قمت بتحقيقه ، وقد سبقنى إليه الدكتور محمد عبد الحق رحمه الله - ، عضو مجلس الموظفين لحكومة مدراس سابقا .

### وفاته :

وقد وافاه أجله فى العشر الأول من شهر رمضان سنة ٦٠٨ هـ ودفن بالقاهرة (١) ولكن الكامل لابن الأثير لم يتعرض إلى وفاته فى هذه السنة بينما ذكر من الذين ماتوا فى هذه السنة : -

« محمد بن يوسف النيسابورى » الكاتب ، وكذلك « عمر بن مسعود البزاز البغدادى » و « ابن حمدون الثعلبى » والشيوخ عماد الدين محمد بن يونس الفقيه الشافعى الموصلى » (٢) .

وذكر صاحب الكمال فى عقود الجمان أنه توفى يوم الأربعاء رابع شهر رمضان سنة ٦٠٨ هـ ، وذكر العماد الكاتب فى الخريدة ما يأتى قال : « توفى والده جعفر فى منتصف شهر رمضان سنة ٥٨٠ هـ ، وقرر أنه رأى بخط بعض أصحابه أن الشاعر قد توفى يوم الثلاثاء ٥ من ذى الحجة سنة ٥٩٢ هـ ، وكان مولده منتصف شوال سنة ٥٢٥ هـ والله أعلم .

ويظهر أن هذا التاريخ الذى عرضه العماد الكاتب إنما هو لمولده والده ووفاته . وأن سنة ٥٨٠ هـ هى السنة التى مات فيها جده ، وقد أشار إلى تلك التواريخ الشاعر نفسه فى القصائد التى رثى بها والده وجده . (٣)

(١) راجع وفيات الأعيان لابن خلكان

(٢) راجع الكامل ج ٩ : ٣٠٦

(٣) راجع الديوان : قصائد رثاء أبيه وجده .



## الفصل الثاني

# ديوان ابن سناء الملك

### ما تركه من شعر :

قبل أن نغضى في استعراض الديوان يهتما أن نقرر أن بعض الشعراء والنقاد المحدثين يرون أن وظيفة الشعر هي التعبير عن العاطفة والوجدان وأن الشاعر لا يريد من ورائه إلا التنفيس عن عواطفه بالتعبير عنها مكتفياً بما يجده من راحة في هذا التعبير .

ويرى بعض آخر أن مهمة الشعراء هي التأثير في غيرهم ، وأن له وظيفة اجتماعية يقصد إليها الشاعر قصداً (١) وكان ابن سناء ومعاصروه من النقاد يأخذون بالرأى الثاني لأن أكثر ما اشتملت عليه دواوينهم يدخل تحت شعر المديح وما يشبهه مما يصرفونه في تحقيق مطامعهم عند الأحياء من معاصريهم .

ومن تتبعنا لديوان « ابن سناء » نرى أن ما اشتمل عليه من شعر يقرب من ثمانية آلاف بيت . خص المدح منها ما يقرب من خمسة آلاف وهو ما يزيد على نصف الديوان ، ثم تلاه ما يقرب من ألف بيت في الغزل والمجون ، وهذان هما الغرضان الرئيسان في الديوان . وقد ظهر إلى جانبهما أنواع أخرى من شعره كالرثاء ، والهجاء ، والفخر ، والحكمة ، والوصف ، والزهد ، والاعتذار والشكوى .

ومن واجبتنا أن نلقى نظرة عامة حول كل غرض من هذه الأغراض لتبين الخطوط العريضة التي اشتدل عليها الديوان من جهة ، وتصور الشاعر لوظيفة الشعر من جهة أخرى .

### ١ - المدح

#### في القاضي الفاضل :

لقد خص الشاعر القاضي الفاضل بسبع وثلاثين قصيدة من قصائده المدحية التي بلغت الخمسة والسبعين ، ثم اتجه بما بقي إلى السلاطين كصلاح الدين والعزير ، والأفضل ، والعاذل ، والكمال ، وغيرهم من الملوك والوزراء كالملك المظفر تقي الدين ، والملك الظاهر غازي ، وكذلك الوزير صفى الدين بن شكر كما مدح والده القاضي الرشيد ، والقاضي الأشرف ابن القاضي الفاضل وشخصيات أخرى كالطبيب اليهودي الرئيس موسى .

وكان القاضي الفاضل أثيراً لدى الشاعر ، لأنه كان له أستاذاً وموجهاً ، وكان لوالده صديقاً ومحباً ، وكان

(١) راجع ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار للأهواني : ٥٧

ابن سناء مدينا له شهرته الأدبية ، ومنزلته السنية ومناصبه الهامة ، وتوجيهاته الفنية ، التي خلقت منه شاعرا يحتل مكانة مرموقة بين شعراء عصره ، بعد أن صادف في بداية أمره من المتاعب ما جعله يعرض بمن يمدحهم فيقول : في ٥٧٣ هـ :

تكمل فضلى قبل عشرين حجة فكيف وقد جاوزتها بثلاث  
وأنفقت عمرى فى مدائح معشر كموئى ولو أنصفت كن مرث

وقد عاوناه الفاضل معاونة تذكر فتشكر ، ذكرها ابن سناء وشكرها ، فكان الفاضل يتلقى قصائده وهو فى دمشق فيذيعها ، وينشر محاسنها على أهل دمشق حتى أصبح الشاعر معروفا فى الشام كما هو مرموق فى مصر . وكان الفاضل ينقد قصائده نقداً رقيقاً رقيقاً ، تشجيعاً له على الإجابة ، وأخذاً بيده إلى القيادة . وقد اعترف بذلك ابن سناء حيث يقول :

«لأنه كثر قليل ، وسمن هزيلي ، وفخم ضئيلي ، وأعطاني من المدح مالا أستحقه ، ومنحني من الوصف ما لا أستوجبه ، ورفع أقوالى فوق قدرها ، ودفع لعقالى فوق مهرها ، فضلا منه ومنا ، وإحسانا وحسنى...» (١)  
وقد لا نستطيع أن نتعقب قصائده كلها فى مدح القاضى الفاضل تاريخيا ، ولكننا بالاستئناس بما جاء فى «فصوص الفصول» أمكن أن نلمح الأثر عن أكثرها ونكشف عن العلاقات التى ربطت بين الشاعر والقاضى الفاضل . فى سنة ٥٧٤ هـ مدحه بقصيدة رائعة هنا فيها بمطلع العام الجديد ، ومطلعها :

يا ليلة الوصل بل يا ليلة العمر أحسنت إلا إلى المشتاق فى القصر

وبعد مقدمة غزائية بلغت الثلاثين بيتا خلص إلى المدح ، فشكره شكر الأرض للمطر ، وشكر سواد العين للنظر ، وبين فضله وعطفه المتزايدين عليه ، ويبدو أن القاضى الفاضل كان قد أحلقه بديوان الإنشاء فى ذلك الوقت ، ولذا أشار إلى ذلك وإلى النعم التى غمره بها :

دخلت جنة عدن فى الحياة به فليست أقرأ إلا آخر الزمر (٢)  
وقلت قولوا لأيام مغيرة غرى المهدد يا أيام بالغير  
وصرت ألهو وليل الأمن يشملنى طورا مع السمرا وأطورا مع السمرا  
قبلت ثغر الأمانى إذ ظفرت به والثغر يحسن بعد الفتح والظفر

وبالغ فى مدحه مبالغة خرجت عن المألوف حين جعل الدهر مفتقرا إليه ، يمد كفه مستجديا بينما يمد الفاضل لحظه محتقرا إياه ، وقلمه فى يده قدر الله ، يخط به مصائر الناس ، فينفع هذا ، ويضر ذاك :

والدهر مد إليه كف مفتقر فمسد للدهر منه لحظ محتقر  
فى كفه قلم إن شئت أو قسدر يصرف الخلق بين النفع والضرر

وفى سنة ٥٧٤ هـ توجه القاضى الفاضل إلى بيت الله الحرام ، فهناه بعودته من حجته الأولى ، وقد صادفت

(١) فصوص الفصول : المقدمة .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاهاوا وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » آية ٧٢ من الزمر .

غودته انتصارات صلاح الدين على الصليبيين في « بانياس » واستيلائه على حصونهم ، وأسرهم ملكهم ، ومطلع هذه القصيدة :

ما ثناياك لؤلؤ مكنون مثلها لم تقع عليه العيون  
وقد سيرها مع قصيدة أخرى في مدح الملك الناصر ، وبدأها كمعادته بمقدمة غزلية طويلة بلغت ثمانية وعشرين بيتاً ، ثم خلاص إلى مدح القاضي الفاضل فقال :

إن تعسرت أو تصعبت يادهد سر فبالفاضل الأجل تهون  
لي في رأيه مقام كريم وعلى قلبه حفيظ أمين  
أنا عبد وقد غدالي بعد الله نعم المولى ونعم المعين  
لقيتني نعماًؤه وأياديــــــــــــه وبين لقياه بين  
ففيها يظهر فضله ، وأياديه عليه ، وسبقه في الكتابة وحسن رأيه ، وسحر بيانه وورعه وتقاه ، ورضى الله عليه  
صور الله ذلك الشخص نورا وجميع الأنعام ماء وطن  
وقد توجه القاضي الفاضل إلى حج بيت الله الحرام مرة ثانية سنة ٥٧٦ هـ ثم عاد من مكة مباشرة إلى مصر بعد رحلة شاقة فمدحه الشاعر بقصيدته القافية التي مطلعها :

نعم المشوق وأنعم المشوق فالعيش كالخصر الرقيق رقيق  
وقد بلغت أبيات هذه القصيدة تسعة وأربعين بيتاً جعل للغزل منها ثلاثة وعشرين ، ثم انتهى إلى مدحه بالبلاغة ، وبلوغ المدى في الكتابة حتى ليظن أن كلامه تنزيل من التنزيل ، أوقس من نور الذكر الحكيم :

لولا اعتقادي للشريعة مخلصاً ما قلت إن كلامه مغالـــــــــوق  
كما مدحه بالرياسة الأصيله فيه ، وبطلاقة الوجه ، والنوال الطليق ، وبالتعمق في الجود حتى لا يستقر المال في كفيه — كما كان أبو تمام يقول — وبأن كل من يتوق الوصول إلى هذا المستوى يعجزه ذلك حتى الشمس نفسها :

ورث السيادة كابراً عن كابر فالعرق في أفق العلاء عريق  
معنى الرئاسة فيه بكر لا كمن معنى الرئاسة عنده مطروق  
الحكم فصل والكلام مفصل والوجه طلق ، والنوال طليق  
متعمق في الجود لولا جوده ما كان يشكر في الورى التعميق  
لا يستقر المال فوق بنانه حتى كأن بنانه مخروق  
يا طالبيين ذرى علاه توقفوا ومؤملين ندى يديه أفيقوا  
لو رامت الشمس المنيرة شأوه يوم الفخار لعاقبها العيوق

وقد مكث القاضي الفاضل بمصر حتى نهاية عام ٥٧٧ هـ ، ثم غادرها في صحبة « صلاح الدين » حيث رافقه في هجومه على حلب ، وفي هذه الفترة وجه إليه ابن سناء عدة قصائد منها قصيدة لامية هنأه فيها بمولد ابنه القاضي الأشرف . ويحتمل أن يكون قد نظمها سنة ٥٧٣ هـ لأنها هي السنة التي ولد فيها الأشرف (١) ثم قدمها إليه مؤخراً ومطلعها :

(١) راجع وفيات الأعيان — ترجمة القاضي الفاضل .

هلال ولكن السعود منازلـه ونهر ولكن البحار جداولـه  
وفيهـا يقول :

فبشراك يا مولى الأنـام بقـادم إلى قمة العلياء تطوى مراحلـه  
أذاك كريم النفس والصحب فالعلا تسايـره والمكرمات تعـادله  
وإنك مولى لا يـرد مراده وإني عبد لا ترد وسائلـه  
وما الدهر إلا خـادم أنت ربـه وما الخلق إلا عالم أنت فاضلـه

وإنه ليردد هنا بعد أن مدح المولود وهنأه به ما رددته في مدائحـه الأخرى من أن الفاضل رب والدهـر مربوب ،  
وأن مراده لا يـرد ، وهى مبالغة ممقوتة ، بل دأب على أن يجعل نفسه عبداً للقاضى الفاضل ، وهذه الصفات  
شائعة فى مدائح هذا العصر .

وقد دفع الشاعر طموحه أن يسعى للحصول على جائزة تقديرية من السلطان صلاح الدين ( خلعة شرف )  
وبالطبع لم يجد غير الوزير القاضى الفاضل — من هو جدير بالتوسط له فى تحقيق مطلبه هذا ، فوجه إليه قصيدة  
دالية سنة ٥٨٠ هـ ، التمس منه أن يـحقق وعده ، ومطلعها :

شيب فودى رماد نار فؤادى من رمى لى بهذا الرماد  
وبعد أن خص الغزل بخمسة عشر بيتا خلص إلى المدح فقال :

كيف لا يرفع الزمان عمادى وعلى الفاضل الأجل اعتمادى

وقد استعمل هذا المعنى فى الخلوص إلى المدح أكثر من مرة ، ووصفه بالسيادة كابرا عن كابر ، وبأصانة  
الرأى وسداد التكرار :

ما أثنىـه تلك السيادة عن جد واسكن أثنىـه عن أجساد  
إن يكن معرق الأبوة فى السو دد فأنرى معرق فى السداد  
ثم صرح بمطلبه فقال :

إننى سوف أقتضى منك وعدا أنت باد به فنعم البـادى  
مطلب فيه ملبس العز إذ يـد بس ذلا جماعـة الحساد  
لم تزل تنبت الرياض ولـكن لا على الروض بلى على الأجساد  
هو وعد قد كان لى وسؤالى منك لإنجاز ذلك الميعاد

ويبدو أن ملبس العز هذا هو خلعة شرف ، أو عباءة سلطانية ، تكون فخر لا بسـها لأنها هدية السلطان ،  
ودليل رضاه .

وبعد ذلك وصل القاضى كثير من القصائد التى مدح بها « صلاح الدين » فى مناسبات عدة كتكذيبه المنجمين  
بانقصاراته ، وكسره صليب الصليوت ، وكسر الصليبيين فى « حطين » وفى سنة ٥٨٣ هـ مدح الفاضل بقصيدتين  
هنأه فيهما بفتح عسقلان أولاهما باثية ومطلعها :

سرى طيفه لا بل سرى بى سرايه وقد طار من وكر الظلام غرابه

وبعد واحد وعشرين بيتا في الغزل خلص إلى المدح بقوله :

وكيف يخاف الفقر أو يرهب الردى      فتي من يدي عبد الرحيم اكتسابه  
ومن كان مثلي آويا في جنبابه      فيا عذر دهر قد نبا عنه نابيه

وقد أشار إلى بعض الوشاة الذين حاولوا أن يوقعوا بينهما العداوة والبغضاء فقال :

وكم من كذوب رام تغيير رأيه      على فلم ينفق عليه كذابيه  
ولا نهنت بالزور عنه أناته      ولا زلزلت للحلم منه هضابه

وبعد مدحه بما هو مألوف من الصفات كالجهد والرفعة ، والفضل والنوال ، واعتماد الناس عليه ، يشكو إليه جور دهره وقسوته ، ويصرح بمطالبه وطموحه :

أمولاي أشكو جور دهر مبرح      تطاول بي لما انتشى بي انتسابه  
أتاني لكن أين مني رجوعه      وأقبل لكن أين مني ذهابه  
قسا قلب دهرى بعد لين أفته      ومن لي بدهر لا يخاف انقلابه  
وإن لم تجد لي من يديك سحابة      فبيني وبين الخالكين تشابه  
وإن من كسب المعالي مراده      وغير جزيلات العطايا طلابه  
أنا الخائر السارى وأنت شهابه      أو الحائم الصادى ومنك شرابه  
فكم حاجة لي ضاع مني نجاحها      وكم أمل لي طال مني ارتقابه  
وما الدهر إلا خادم أنت ربه      ولا الرزق إلا منزل أنت بابيه

ومن العجيب أنه لم يذكر في هذه القصيدة فتح عسقلان لا من قريب ولا من بعيد ، ولكنه أشار في القصيدة الرائية التي مطلعها :

باتت معانقتي ولكن في الكرى      أترى درى ذاك الرقيب بما جرى

إلى هذا الفتح وذلك الانتصار فبعد أن انتهى من المقدمة الغزلية التي خصصها باثنين وثلاثين بيتا مدحه بما هو مألوف من الصفات ، ولكنه زفها إليه في أجل ثوب وأزهى عبارة - فهو يقرى ضيوفه شعاع التبر الأحمر ، والقضاء يسعى لخدمته ، وجعل الأفق داره ، والكواكب معشره وجعله يفوق الملوك لأن اسمه الفاضل ، وجعل بلاغته تفل حد الحسام ، بعد ذلك أشار إلى كسر الصليب ، وتحويل الكنيسة إلى مسجد .

كسر الصليب سمييه من رأيه      فسل العدى من كان أصلب مكسرا  
ولقد أقر الله عين نبييه      بمظهر جعل الشأم مطهرا  
ما زال أو جعل الكنيسة جامعا      والأنبل المحفوض منها منبرا  
فتح الشأم به وقال زمـانـه      إن كنت فاتحه فلن يتغيرا  
الشام دارك أو أردت أخذته      بالإرث عن آبائك الشم الذرا  
ولقد أعدت لعسقلان روحه      ورفعت شاهقه وكان مدمرا

وقد أجاب الفاضل على هذه القصيدة بكتاب أورده ابن سناء في كتابه «فصوص الفصول» جاء فيه :  
« ووصل كتاب القاضي السعيد وقصيدته ، ووقفت من قصيدة القاضي السعيد على أدوية للشفاء ما كانت في قدرة

الأطباء ، ونسخ استعملتها القلوب فعادت بصحة الأعضاء فجاءت والعافية في قرن ، ورخصت ما أبقت العلة من درن ، وقامت بيني وبين الحمى فوفرت هذيانها ، وتلت علينا آيات محاسن عرفت الحمى مع إساءتها إحسانها ، فنكصت على عقبها ، ودخلت في حبسها ، وكأنما كانت في الحقيقة ماء عذبا صافيا ، ألقى على نارها فسبقها إلى حطبها ، ولقد آتاه الله وله الحمد - فصل الخطاب ، وألان له ما لان لصاحبه من صم الحديد الصلاب ، ولو أدركها فنليت عليه لتلاها مزامير الحراب ، فما أرخص وما أغلى ذلك البياع وما أشد وما أسد ذلك المتاع :

إنا بعثناك نبغى القول من كتب فجئت بالنجم مصفودا من الأفق (١)

وقد تمكن القاضي الفاضل من الحصول على خلعة شرف من الملك الناصر (صلاح الدين) تلك التي سعى إليها وشغل بها ، وكتب إلى القاضي الفاضل ملحا ومصرحا بطلبها ، بل ومدح الملك الناصر وطلبها في قصيدتين من شعره ، وهذه الخلعة مرتبة أدبية ، ومترلة اجتماعية ترفع قدر الشاعر بين الشعراء ولعلها أشبه بجوائز الدولة التشجيعية والتقديرية التي يمنحها الأدباء والمفكرون والتي تدل على أن الحائز عليها قدم خدمات سنية للدولة فكفوء عليها أجل مكافأة ؛ ولذا حفظ ابن سناء هذا الجميل لأستاذه ومدحه بقصيدة حاثية مطلعها :

راحت وحق الله روحى بين المليحة والمنيح  
وأشاد فيها بتلك الخلعة :

وكسوتني خلعا هززت بهن عطى كالصفيح (٢)  
خلع على خلع أتتني كالفتوح على الفتوح  
لولاك لم يعلم بأشعما رى ولم يقرأ مديحى  
وجميل رأيك حين صرح جاء بالجوود الصريح

ولنقف قصيرا عند قوله : « لولاك لم يعلم بأشعارى ولم يقرأ مديحى » . فهل هذا اعتراف من الشاعر بقصور شعره عن أن يصل إلى السلطان « صلاح الدين » لولا مساعدة القاضي الفاضل ؟ أم أنه إقرار بالأمر الواقع لأن قصائد الشاعر في مدح الملك الناصر كانت تسعى إليه عن طريق القاضي الفاضل ؟ أم أنه تواضع الشاعر ومجاملته للقاضي الفاضل ورغبته في إظهار فضله ، وإعلاء شأنه ، وتجسيم الدور الذي قام به في مساعدته وعونه .

الواقع أن التواضع والمجاملة ، والرغبة في الإشادة بالقاضي الفاضل هي التي دفعت الشاعر إلى هذا القول ، لأنه لا يقل جودة عن شعراء عصره إن لم يفقههم ، ولأن صلته بالقاضي الفاضل وعمق هذه الصلة هو الذى يدفعنا إلى هذا الترجيح .

وبعد أن استولى صلاح الدين على بيت المقدس قام ابن سناء بزيارته سنة ٥٨٣ هـ ، ثم توجه إلى دمشق لرؤية القاضي الفاضل : قال : « فوجدته مريضا مدنفا في خطة صعبة وفي حالة مخطرة ، فخشيت أن أقيم فيجربى من الحثوم عليه ما لا طاقة لى بمشاهدته فأقمت عنده أياما قلائل ، واعتذرت إليه بأننى وردنى عن أبى رحمه الله خبر مزعج ، وحديث مقلق ، فأعطانى دستوراً بالعود عن نفس غير طيبة ، وعلى كراهية غير خافية ، فلما عدت ومن الله تعالى بعافيته كتبت إليه كتابا ونظمت قصيدة أعتذر في كل منهما

(١) قصوص الفصول (الفصل ٤٣ ، ٤٤)

(٢) الصفح : السماء ووجه كل شيء عريض (المحيط - صفح) .



وأستغفر من انفصالي عن خدمته ، وخروجي من جنته فأما قصيدتي فمطلعها :

تذكرت أيام الصباية والصبيا وعيشا مليحاً بالمليحة معجبا  
وبعد مقدمة غزلية طويلة اعتذر عن مفارقتها إياه وهو مريض :

بسوء اختياري كان لي عنك مذهب على أن قلبي لم يجد عنك مذهباً  
ولولا أبي ما كان لي عنك مرغب وكيف أرى عن جنة الخلد مرغباً  
وكم لك ، لولا سوء بختي نعمة مننت بها لو شئت سميتها أباً  
وبعد أبي كم نعمة منك نلتها فألفتها أحلى وأهنا وأعجباً  
أبي لي أن أبقى السعيد بزعمهم شقاء أبي أن يسعد المرء إن أبي

وقد وصلت تلك القصيدة القاضي الفاضل ، وأعجب بها ثم كتب إلى ابنه القاضي الأشرف كتاباً تعليقاً على تلك القصيدة وهذه الحادثة ، وقد أورده ابن سناء في «القصص» وجاء فيه : «وأما اعتذارك عن معلمك القاضي السعيد في كونه فارقي فأرقني وأوحدي فأوقدني ، فهذه حجيح ملفقة علمك إياها فإنه يعلمك السحر ، ولكنه سحر البيان ، وما أحق أقواله أن توصف بما وصف به ابن المعتز كتابته بأنها سحارة تحكم عقد اللسان ، وقد عقد لساني عن عتبه بالسحر من كتبه ، فإني لما قرأت كتابه ، وتأملت قصيدته التي اعتذر فيها عن فراق ، وهربه مني وتركه إياي ، أشواق أخذة بأطواق ، كنت كلما قرأت فصلاً أو بيتاً تخلت عقدي ، فعلمت أن أقواله هي النفاث في العقد ، وأن من وجد ما وجد ، ما فقد منه ما فقد ، وما هرب إلا خوفاً أن يقضي عليّ بالمحتوم وهو حاضر بخضرتي ، فينثر ويتجرع حسرتي دون أسرتي ، وهذا عذر استحي أن يقوله فقلته عنه ، وخجل أن يجعله عذره فعذرت عند نفسي منه ، ما عليه والله عتب ولاله ذنب ، ومن أين للوجه الجميل ذنوب ، ووددت لو كان البحري حياً فكنا نلسه من تلك القصيدة بحية ، وكانت بائته تغض من بأوها وعجبها ، وتستر من الأوراق في حجبتها ، وكنا نعلم أي الزينين هي الخلوب ، وأيهما أحق بملك القلوب ، ولا شك أن الغالبة هي زينب الغالب ، وهو صاحبنا ، والمغلوبه هي زينب المغلوب » . (١)

وقصيدة البحري التي يعنيها الفاضل هي التي مطلعها :

أجذك ما ينفك يسرى لزينبنا خيال إذا آب الصباح تأوبا

وفي سنة ٥٨٤ هـ رأى « صلاح الدين » أن تصحيح الأحوال الاقتصادية في مصر لن يتم إلا بعلاج حاسم سريع ، فعول على القاضي الفاضل ، وأمره بالسفر إلى مصر فكتب إلى ابن سناء يذكر تبريزه من دمشق عائداً إلى مصر فقال ابن سناء قصيدة مطلعها :

ألا فانتبه من أفتها طلع الفجر وحاشاك نهم من وجهها ضحك الثغر

ثم هنأه فيها بالقدوم :

هنيئاً لمصر أنها حلها الندى وبشرى لمصر أنها جاءها البحر  
هنيئاً لها أن يسر الله يسرها فلا عسر إلا جاء من بعده يسر

لقد جاء مصرّاً نيلها في أوانه فليست تبالي ضنّ أو سرح القطر  
وعاد إلى صدر الأقاليم قلبه فعاش ولولا القلب لم يخلق الصدر  
وقد أعد هذه القصيدة ليعرضها عليه إذا وصل ، ولكن الله قدر أن يتأخر فأرسل إليه هذه القصيدة مع كتاب  
يشرح قصتها (١) .

وقد أعجب بها الفاضل أيما إعجاب وكتب : « ما رأيت أغرب من مطلع تلك القصيدة ولا أدل منها على  
شطارة طبع ، ولا من بيت الكأس المكسورة - وهو يعني قوله :

وساحرة صانت سلافة جفنها بكأس به كسر وهذا هو السحر

ولا أدل منه على صلابة نبع ، ولا من بيت الورق الخضر - وهو يعني قوله :

فلا تنكروا منها الخضاب فإنما هي الغصن في أطرافه الورق الخضر

ولا أدل منه على رقة طبع وشدة نزاع ، ما هو إلا مالك عنان الفضل في عصره وواحد كل دهر ولا أسمح بهذه  
المنقبة لدهره ، وما تغصصت إلا بغيبة ابن المعتز عن أن يسمع كما نسمع ، فيقطع بفضلها كما نقطع ، ويكف عن عدواء  
تشبيهه ، ويغض عن غلواء توجيهه ، ونوافقه على أنه اتكأ واتكل على ذى الرمة فأخذ في طريقه مستأنساً برفيقه ،  
فما ترك له تشبيهاً إلا نقله وصقله ، واستعمله ، واستنزله ... (٢) .

وفي نهاية سنة ٥٨٤ هـ رحل القاضي الفاضل إلى مصر ، وبينما كان في بيت المقدس وصلته قصيدة بائنة يشير  
الشاعر في مطلعها إلى قصيدته الرائية السابقة :

رأت منك رائيتي ما تحب وبشرى لها أنها لم تحب

وقد أرسل مع هذه القصيدة كتاباً هنأ فيه بالقدوم .. جاء فيه : « ولما علم المملوك بالإياب سارع إلى عمل  
قصيدة للهناء بالقدوم ، وأملاها عليه بلسان الجذل اقتضاباً وأذن له الفرح وقال صواباً ، وجعل القافية على باء ،  
وأراد تسيرها لتلقى مولانا في طريقها ، فوجدها مقيدة والمقيد أسير ، لا يطيق المسير ، وتأسّى بها المملوك لأنه  
يجب عليه أن يسعى إلى أول البلاد الشامية لتلقى مولانا فكان هو أيضاً مقيداً من الإحسان بقيوده ، لا يطيق معها  
القعود ، فلما أبطأ بإبائه سيرتها إليه وكتبت عليها كتاباً جاء منه في ذكرها ... » .

فلما وصلت القصيدة والكتاب أجاب الفاضل إلى أبيه القاضي الرشيد :

« وما أجدر هذه القصيدة أن تكون كأختها في الهناء بالأمر غير الواقع وبالوصول إلى مصر وبينه ما شاءت  
الأقدار من الموانع ، وبالجملة إن أهل هذه الصناعة وقفوا خلفاً ووقف أماماً ، وأنت السماء بهم دخاناً ، وأنت به  
غمماً ، وتأخروا وإن تقدروا فقصروا وإن سبقوا ... (٣) .

فشهد له بالسبق على أقرانه ، والتقدم على نظرائه وأنهم وقفوا خلفاً ووقف هو أماماً ، إلى غير ذلك مما سنحققه  
في الفصل القادم .

وقد بقي الفاضل في مصر حتى نهاية سنة ٥٨٦ هـ ومن المحتمل جداً أن بعض القصائد التي لم تؤرخ في الديوان  
تكون قد قدمت للفاضل في هذين العامين .

(١) راجع فصوص الفصول

(٢) فصوص الفصول : ١٣ ، ١٤

(٣) فصوص الفصول : ١٦ ، ١٧

وفى سنة ٥٩٢ هـ مات القاضى الرشيد والد الشاعر فتعرض بعد فقده لأزمات شديدة وضنك مرير ، حتى أحس انصراف الناس عنه ، وشماته الحساد به ، وربما ترك وظيفته وصفرت يده ، وساءت حاله ، ولذا لراه فى القصيدة النونية التى مطلعها :

جاءت بحسن مطمئن جاءتك منه بكل فن  
يشكو إهمال القاضى الفاضل له ، وانصرافه عنه ، ثم يستصرخه ويتدنى ويسرف فى التدنى ويصرح بجوعه ، ويطلب رفده ونواله :

نقل الزمان على حـتى خف بين الناس وزنى  
وسقيت منه مكارها حتى امتلأت وقلت قطنى  
وأراه جار فكيف جا ر وأنت منه لم تجرني  
وانقل عزمى واستيبحت قلعتى وانهد ركنى

ثم قال :

ومضى أب يحنو على فليت أُمى لم تلدنى  
وأراك لاتحنو وتشيع حاسدى وتجميع بطنى  
أفنى زمانى بالتشوف والتشهى والتمنى

وقد نظم هذه القصيدة فى يوم عاشوراء :

ونظمتها فى يوم عاشوراء من همى وحزنى

وفى قصيدة أخرى دالية بلغت الخمسة والستين بيتا ، نظمها بعد سنة ٥٩٢ هـ أى بعد موت والده أيضاً يجأ بالشكوى والاستغاثة بالقاضى الفاضل ، ويضيق بإهماله له :

وقل من يفقد الرشيد أباً يرا فيلقى من أمره رشدا  
قد كان لى والد وكان من الطاعة والبر بى يرى ولدا  
وكان بى جنة النعيم فما بالى رأيت النعيم قد نفدا

ثم غالى فى مدح القاضى الفاضل فجعله قد استعبد الخلق بنواله ، ولولا خوفه لعبدوه ، والملوك تغد إلى بابه ، ورأيه سديد ، إلى غير ذلك من الصفات التى تعود أن يخلعها عليه ، ثم صرح بأنه جرد من منصبه :

أصبحت لا منصبا ولا أملا فيه ولا نعمة ولا حسدا  
لامسعداً لى على الزمان ولا سعاداً ولا عاضدا ولا عضدا  
كسدت فيه وليس ذا عجباً منه فمثلى فى مثله كسادا  
وطف غبرى وما لحقت به لا يستوى الأشقياء والسعدا  
وكان لى والد وكان به عيشى من بعد أن غدا رغدا  
ولأننى ما يثت من أملى إن لم يحى اليوم منك جاء غدا

والظاهر أن هذه الفترة كانت عصيبة حتى على القاضى الفاضل نفسه ، فلم يكن مستريح النفس للأوضاع القائمة بعد موت «صلاح الدين» ، وربما يكون هذا هو السر فى تلك الجفوة التى نوه عنها الشاعر . غير أن هذه الجفوة سرعان ما انطفأ أثرها وزالت شواهدا ، لأن الشاعر لم يظهر تلك الجفوة وهذا الإهمال فى آخر قصيدة وجهها إلى القاضى الفاضل قبل وفاته بثلاثة شهور ومطلعها :

شربت شرب الهـمـ من فـم ذاك الـرـيـم  
وقد مدحه وهنأه بعيد النحر ، وذكر فضله وإنعامه عليه :

قد أثقلت ظهري وقـ تـأدت بالحياة أديمي  
أقل ما يولييه تـبـ جيلي مع تعظيمي  
وكان الشاعر قد أهدها كتابه دار الطراز ، فأثنى عليه ورفع قدره ، وقد أشار الشاعر إلى ذلك حين قال :  
ومـنـك تـعـلـيـمـي ومـا علمت مع تنهيمي  
وعـمـرت دار طـرا زى منك بالرقوم  
كـذا مـوشـحـاتـي صـر ن منك كالطمـمـم  
وهنأه بالعيد :

واهـنـأ بـعـيـد قـادـم بأسـعد القـدـوم  
أـتـاك بـالتـكـمـيـل لـلآ مـال والتـتـمـيـم

### في صلاح الدين :

وأرى لزما بعد أن تبعت قصائده في القاضي الفاضل تاريخيا ، وأشرت إشارة سريعة إلى المنهج الذي اتبعه وسار عليه في تلك القصائد من بادئه بالنسب ثم مدحه بصفات تقليدية ، ثم إشارات التاريخية إلى مناسبات قصائده - أن أتبع كذلك قصائده في بطل سجل اسمه في سجل الخلود ، وأملى على الأحداث تاريخه المشهود ، ذلك هو البطل « صلاح الدين » وإن لم يحتل المكانة الأولى في مدائح ابن سناء . غير أنه بهر الشعراء جميعا وهزت مواقفه نفوسهم ، وخلق بمواقفه البطولية في صد الصليبيين لونا من الشعر الحماسي . وفي هذه القصائد التسع التي مدحه فيها ابن سناء تسجيل نابض حتى لتلك المعارك وهذه الانتصارات ، وإن اشتد عجبنا لشيء - فلأن الشاعر اكتفى بالقليل وكان جديراً به أن يتغنى بالكثير - أولعل بعض قصائده في تلك المعارك كفتح القدس لم تسجل ، وحسبنا أننا سنتبع قصائده ونشير إشارة سريعة إلى المنهج الذي التزمه في تلك القصائد ، وهو لا يختلف كثيراً عن منهجه في مدائح القاضي الفاضل .

في سنة ٥٧٥ هـ نازل « صلاح الدين » الصليبيين قرب « بانياس » وأسر فرسانهم وشجعانهم وانهزمت جموعهم في أول لقاء فكان من جملة الأسرى مقدم الداوية ومقدم الاسبـارية ، وصاحب طبرية ، وأخو صاحب « جبيل » ، وابن القوصية وابن بارزال صاحب الرملة (١) وغيرهم . ولذا مدح ابن سناء السلطان صلاح الدين بتقصيدة نونية مطلعها :

أبـي صـدـها أن يـجـمـع الحـسـن والحـسـنى ووجـدى بـها أن أـجـمـع الجـفـن والجـفـنـا (٢)  
وبعد خمسة عشر بيتا خصها بالنسب انتقل إلى مدح الناصر فقال :

فدى لابن أيوب الملوك فلنهم إذا بخلوا أعطى وإن أفقرنا أغنى  
فدى كل من يعطى المؤمنين عفاته ترى ملكا يعطى الأقاليم والمدنا  
ولم يكفه أن أخجل البيض بالدماء إلى أن أرانا جوده أخجل الزنا

(١) الروضتين : ج ٢ ص ٨

(٢) كناية عن السهر وتتابع المدح

فهل ترى ابن سناء كان يتطلع إلى مدينة أولقلم يكون ملكا عليه ، يفعل في هذا فعل المتنبي مع كافور حين قال :

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله      فإني أغنى منذ حين وتشرب  
إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية      فجودك يكسوني وشغلك يساب (١)

ثم تحدث ابن سناء عن نصره الإسلام وتحطيمه الكفر ، وفرار الأعداء أمامه ، وأسر من تشجع منهم ووقف ، وتحدث عن اشتداد المعركة ، وتشبع السيف من دماهم ، وسأم الأبطال للزال ، وهرب ملكهم فزعا يتحسس قفاه ، ويحسبه لشدة الهول مطعوناً فيه ثم أسره بعد ذلك الملوك والقواد :

ولما رأوه أدبروا حين عاينوا      أعنته خيل لا تعود ولا تنفي  
وقد وقفوا لكن لأسر رقابهم      وقطف رعوس منهم أن أن تجني  
ثبت لهم والسيف قد كره الطلي      وجالدهم والقرن قد سئم القرنا  
بضرب يذيب الشمس في الأفق حره      ويحرق ما بين القلوب من الشحنا  
مضى ملكهم في أول الأمر هاربا      يحس قفاه الطعن فيه ولا طعنا  
ولم يقرع الناقوس بعد انهزامه      ولكنه من بعده قرع السنّا  
وأضحى أسيرا بادويل وغيره      قرون ملوك كم أبادوا لهم قرنا  
أسارى جبارى لا يرجون فدية      ولا يأملون الدهر فكّا ولا أمنا  
بكي «الكند» و«اليسكند» لا وحشة لهم      ولكن على نفسيهما أسبلا الجفنا  
غدا «بادويل» وهو يلعن نفسه      وحق لتلك النفس أن تروح الالعنا

ولا ندرى إذا كانت هذه القصيدة قد وصلت «صلاح الدين» أم لا ؟ لأننا لم نعر على أثر أورد فعل لها ، ويبدو أن انشغاله بالحروب ألهاه عن الإجابة عنها أو الاهتمام بها .

وفي نهاية سنة ٥٧٧ هـ اتجه السلطان «صلاح الدين» صوب «حلب» قاصدا الاستيلاء عليها توحيدا للعروبة حتى تقف صفا واحدا أمام جحافل الصليبيين . وحتى يكون القائد والموجه للمعركة واحدا فلا تطل الخيانات برأسها ولا تلهي القواد مصالحهم الشخصية عن المصالح الكبرى للأمة الإسلامية فأرسل إلى واليها «عماد الدين زنكي» الذي كان قد قرر لقاءه وتحصن بأجناده وعساكره - أرسل إليه مهديدا متوعدا ، فلما رأى عماد الدين ألا قدرة له على لقاءه تراجع وقبل أن ينزل عنها بغير حرب ، على أن يعوضه السلطان عنها «سنجار» ، فرد السلطان عليه سنجار وخلق عليه مدنا أخرى (٢) ، واستولى «صلاح الدين» على حلب وأصبحت جزءا من الدولة الكبرى التي تدين لصلاح الدين بالطاعة وهزت انتصاراته تلك قريحة ابن سناء فمدحه بقصيدة بائية مطلعها :

بدولة الترك عزت ملة العرب      وبابن أيوب ذلت شعبة الصلب

وكان الأتراك عنصرا فعالا في كيان الدولة الإسلامية ، ولذا امتدحهم الشاعر في مطلع قصيدته ، ثم أشار إلى فتح حلب وضمها إلى مصر :

وفي زمان ابن أيوب غدت حلب      من أرض مصر وغارت مصر من حلب

(١) ديوان المتنبي : ص ٣٥٤ مطبعة هندية بالموسكى بمصر سنة ١٩٢٣

(٢) الروضتين ج ٢ ص ٤٢

وقد ترك الغزل في هذه القصيدة على غير عادته وأشار إلى ذلك بقوله :

ألمى مديحك شعري عن تغزله فجاء مقتضبا في إثر مقتضب  
فلم أقل فيه لا أن الصباية لي يوم الرحيل ولا أن المليحة بي

فقد انشغل عنه بمدحه ، وحديثه عن فتوحه في أرض الجزيرة ، وسياسته الحكيمة في التغلب على أعدائه :

أرض الجزيرة لم تظفر ممالكها بمالك فظن أو سائس درب  
وكانت أوصال الدولة الإسلامية مفككة وعلى كل جزء منها ملك ليس له من الملك غير الاسم ، أما قيادته  
وتصرفه في يد مملوك خصي ، وليس له هو من القهم والدراية أكثر مما يصبي

ممالك لم يدبرها مدبرها ————— إلا يرى خصي أو بعقل صبي  
حتى أتاها صلاح الدين فانصلحت من الفساد كما صحت من الوصب  
واستعمل الجلد فيها غير مكترث بالجلد حتى كأن الجلد كاللعب  
وقد حواها وأعطى بعضها هبة فهو الذي يهب الدنيا ولم يهب

ثم يشير إلى تفضله على حاكم حلب وتعويضه عنها ببعض المدن :

ويمنح المدن في الحدود لساثلها كما ترقع في الحدود عن الذهب  
ومذ رأيت صده عن ربعها حلب ووصله لبلاد حلوة الحلب  
غارت عليه ومدت كف مفتقر منها إليه وأبدت وجه مكثب

— وما أجدر هذه القصيدة أن توضع إلى فرائد المتنبي في سيف الدولة — سجل الشاعر فيها الأحداث ،  
وانفعل بها ، وعبر عن مشاعره وأحاسيسه وتجربته الواعية الصادقة . ولذا نخرج بهذه القصيدة عن نطاق العقم  
في شعر ابن سناء الذي وصمه به الدكتور الأهواني (١) .

وفي سنة ٥٨١ هـ توجه إلى السلطان بقصيدة سينية عن طريق القاضي الفاضل ومطلعها

أجلس لوى ليس لي منك مجلس لأوحشت لما غاب لي عنك مؤنس

وقد تأثر في هذه القصيدة بقصيدة المتنبي التي مطلعها :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وقد خص الشاعر من هذه القصيدة عشرين بيتا للغزل ، ولكنه مدحه في الباقي منها ، وهي من الشعر الحماسي  
تحدث فيها الشاعر عن بطولة صلاح الدين ، وأنه شاد للجهاد دارا منيعة بناها الرمح وهندسها الحسام ، والقسمي  
تنحني لراحة السلطان ، والسلطان يرى في وسط المهارك جذلا ضاحكا مستهينا بالحرب ، وجواده هو الذي  
يعيس ويهم ، ورعوس الأعادي وأيديهم تطير في المعركة وتتقدم إليه معتذرة ، وجحفله يجر الدروع ، وحصانه  
ماثم بالحديد .

(١) راجع ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار من ص ٧٧ - ١٥٢

وماذا تقول المدح فيه ومدحه      بآثاره يروى ويقرا ويدرس  
ومن شاد دارا للجهاد فأصبحت      بها الرمح يبنى والحسام يهندس  
لراحته تحنى القسى وبعضها      هلال له فوق السماء مقوس  
يرى جذلا فى حومة الحرب ضاحكا      فلا القلب منحوب ولا الوجه معبس  
وبين البيت الأخير وبيت المتنبي :

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة      ووجهك وضاح وثغرك باسم  
تشابه واضح

ويقول ابن سناء فى حصان السلطان :

أغار عبوس الوجه فيها جواده      ومن عجب أن الجواد يعبس  
تطير إليه طاببات أمانه      ومعتذرات منه أيد وأرؤس  
وكل حصان بالحديد ملثم      عليه كى بالحديد مقلنس  
وهو من قول المتنبي :

أتوك يجرون الحديد كأنما      سروا يجساد ما لهن قوائم  
ويقول ابن سناء :

تراحمت الأبطال فيه فخرقت      ثيابا لها من عهد داود تلبس  
ويقول المتنبي :

تقطع ما لا يقطع الدرع والقنا      وفر من الفرسان من لا يصادم  
ويقول ابن سناء :

لك المدح منى تنتشى السامعون به      كأن مدحى فى معاليك أكؤس  
كلانا بديع الصنع مدحى مطبق      وجأشك فى قهر الملوك مجنس  
والمتنبي يقول :

لك الحمد فى الدر الذى لى لفظه      فإنك معطيه وإنى نساظم

وقد وصلت هذه القصيدة إلى القاضى الفاضل وهو فى دمشق وكان الملك الناصر مريضا مرضاً خطرا  
«بحران» فأخر إنفاذها إليه حتى عوفى ، فكتب ابن سناء قصيدة أخرى فائية فى مدح الناصر مطلعها :

نظر الحبيب إلى من طرف خنى      فأنى الشفاء لمدنف من مدنف

وكتب معها رسالة إلى القاضى الفاضل جاء فيها : - والقصيدة السينية قد صادفها زحل فى الطريق وحرمها  
التوفيق ، فأجاب القاضى الفاضل فى كتابه إلى ابنه الأجل الأشرف : « والقصيدة السينية ما وافقها زحل فى  
طريقها بل يقوم المشتري أحسن القيام فى قضاء حقوقها ، وتأخرت عندى إلى أن سيرتها مقترنة بالفائية لتكون  
البلاغة أكثر نفيرا ، ويكون بعضها لبعض ظهيرا ، ولو أنصفناه لكان أدنى ما فيها من بيت يعمر ألف بيت ،  
وكان يوسف عروسها قد قال لها وأغانها عن أن تقول : « هيت » وقرنتها بفصل إلى المقام الناصرى نبهت فيه  
على أنها من القول الفصل وأقمت الشهادة فى بابه وإن كان صغيرا فإنه كبير أهل الفضل الذى علمهم الفضل ،  
وأن الدولة بمدحه قد أنزل الله عليها فى الغابرين ، وأبقى لها ذكرا حسنا فى الذاكرين ... »

وخص من الفائئة ثمانية عشر بيتا للغزل ، ثم هنا السلطان بالشفاء من مرضه وأشار إلى كمد الصليب بشفائه ، وبشرى المسلمين بنجاته ، وأن الله قد اصطفاه لنصرة دينه وحمى به الدين من أن يمحي ، وجعل أكبر كافر يعنو لأصغر مسلم .

ثم أشار إلى أمه في أن يكون في حاشية صلاح الدين ، لأنه نذر أن يحج بيت الله إذا شئ السلطان ، وقد شئ فحق عليه أن يحج ، وحبذا إذا كانت تلك الحجة وهو في ركابه وحاشيته حتى يفوز بأجر مضاعف : -

ولقد نذرت على شفائك حجة      ولقد شفيت فقد تعين أن أفي  
سهلت لي حجي فمئلك موصل      لمي وجودك موقفي في الموقف  
وإثن تيسر مع ركابك قابلا      حجي فيا فوزي بأجر مضاعف  
إني بذأ أدعو وأسأل ماحفا      والله ليس يرد دعوة ملحف

وقد قرّظ هذه القصيدة القاضى الفاضل ، وقرنها بالمعلقات بل جعل المعلقة دونها جودة وبلاغة ، لأن هذه «فضلتها بجودتها وجدتها ، وأما الفائئة فالوأواء عندها فأفاء ، ومن هو الوأواء الركيك ، بل كل شاعر مفلق على حروف المعجم عندها فأفاء ، وأوجه الحساد عند سماع قوافيها أقفاء ، ولو وفي سار بنظره عندى لوفت ، ولو كفى مؤنس من ابنه لكفت ، ولو استعطف الفصاحة العربية الألسنة العربية بكلمة منها لعطفت وانعطفت ، ولو أن البلاغة حلة لكان لابسا ، ولو أن الشعراء حلبة لكان فارسها ، ولقد أنجب الزمان الذى ولده ، وفخر الوالد الذى ما قضى حقه أن أحبه ...»

وقد وصلت القصيدتان إلى صلاح الدين ولكنه لم يفعل شيئا للشاعر والظاهر أن اهتمامه بالحروب آتتد صرفه عن التفكير فى الشاعر .

وفى سنة ٥٨٢ هـ ظهر نجم فى السماء له ذوابة ، ولم تجر العادة بظهور مثله ، فكان حديث المنجمين وشغلهم الشاغل ، ويبدو أن ظهوره قد خالف ما ارتأوه قبلا من أنه لن يظهر إلا وقت اقتران الكواكب الخمسة فى برج الميزان فى جمادى الآخرة ، ولم يظهر الكوكب فى الوقت الذى حددوه ، ولذا أشار ابن سناء إلى خطئهم بقوله فى هذه القصيدة :

نجومك ما أعيت على راصد لها      وذا النجم أعيا راصدا ومنجما

وقد استهل هذه القصيدة بقوله :

أرى كل شئ فى البسيطة قد نما      بعدلك حتى قد نمت أنجم السما  
وهو تحليل لطيف لطول ذوابة ذلك النجم ، وكان هذا النجم يسمى «الكف الخضيب» وقد رأى الشاعر أنه آخر ظهوره فى السماء حتى تحلى الدهر بظهور «صلاح الدين» فظهر هو كذلك فى السماء تكرىما له :  
وما برج الكف الخضيب معطلا      فلما تحلى الدهر منك تختما  
فلا تفتخر كف السماء بنجمه      فكم أطلقت أفعالك الغر أنجما

وبعد أن خص النجوم فى مطلع القصيدة باثنى عشر بيتا انتقل إلى مدحه وبالح فيه مبالغة غير مقبولة حتى جعل المقادير رهن إشارة السلطان فلا تستطيع أن تغير ما يرمه ولا أن تبرم ما ينقضه :



فما يبرم المقدار ما كنت ناقضا وما ينقض المقدار ما كنت مبرما  
وجعله فريدا لا يدايه أحد من الملوك والعظماء ، فهو الحليم وهم الجهلاء ، وهو العظيم وهم الأذلاء وهو يعطى  
إذا بخلوا ، ويعفو إذا عاقبوا ، وينى إذا غدروا ، ويسمو إذا هبطوا ، وإن سيرته لم تدع فى الأرض ظلما ، وكرمه  
وعطاءه لم يبق معدما ، فنائله يسعى إلى كل سؤاله حتى أفسدت كثرة عطايه قصاده ، لأن عطاءه كالربيع بعد  
الحل :

فلا تقرنوه بالملوك فإنـه	أجلهم أرضا وأعلامهم سما
يخفون جهلا حين يحلم قدرة	ويخفون ذلا حين يبدو تعظما
إذا بخلوا أعطى وإن عاقبوا عفا	وإن غدروا أوفى وإن هبطوا سما
فسيرته لم تبق فى الأرض ظالما	ونائله لم يبق فى الخلق معدما
له نائل يسعى إلى كل سائل	فيطلبه باناء والزاد أينما
وكم أفسدت أمواله قاصدا له	وقد يرجع الشيء الصحيح مقسما
أناه فألفاه ريبا وقبا	رأى كل جود فى الأنام المحرما

ثم انتقل إلى بطولته وشجاعته ، ودفاعه عن الإسلام وعن البيت المحرم الذى أنقذه من براثن الكفر ، ولولاه  
ما بقى زمزم ولنحطم الحطيم :

أقد نصر الإسلام منهم بناصر	برى مغنا فى الدين ما كان مغرما
يذب عن البيت المحرم جنده	فلولاهم ما كان بيتا محرما
ولولاهم ما كان زمزم زمزما	ولولاهم كان الحطيم محطما
وقد تنسك بالإسلام ولكن الشرع أحل له أن يشرب دماء الأعداء . وكل حمى أمامه لا يحى صاحبه :	
تنسك بالإسلام لكن رأيتـه	يحل له بالشرع أن يشرب الدما
فكم سل لما سل من بطن نغمده	إسان دم من ضربة خلقت فما
إذا ما صلاح الدين سار بجيشه	فليس الحمى أن أمه الجيش بالحمى
تكائف فيه النقع واستلت الظى	بآفاقه حتى أضاء وأظلم

وهى كما ترى من الشعر الحماسى الذى خلقته الح. وب الصليبية ، وقد اعتذر الشاعر عن تأخير النسب لأن  
مدائح السلطان أوجبت تأخيرها :

ففى مدحه صار النسب مؤخرا	ومن أجله عاد المديح مقدما
رأى مادحوه المدح أولى فأقبلوا	عليه وخلوا ذكر سعدى وكلثا

وفى هذه السنة نفسها زعم المنجمون أن الكواكب الستة سوف تجتمع فى الميزان وعندئذ تهب رياح زرع تهلك  
الحرث والنسل ، وخوفوا الناس حتى شرعوا فى حفر مغارات وسرايب ، ونقلوا إليها الماء والطعام ، ولكن  
لم يحدث شئ فى هذا التاريخ (١) الذى حددوه ، فكتب الشعراء معرضين بكذب المنجمين ، ساخطين عليهم ،

(١) الروضتين ج ٢ : ٧٢ ، تاريخ ابن الأثير فى ذكر حوادث سنة ٥٨٢ هـ . وقد قال أبو الفنائم بن المعلم فى هذا :

قل لأبى الفضل قول معترف مضى جمادى وجاءـ رجب  
وما جرت زعزعا كما حكموا ولا بدا كوكب له ذنب

وفي هذه المناسبة يكتب ابن سناء هذه القصيدة إلى الملك الناصر ، ويبدوها بالاعتريض بالمنجمين :

سعودك ردت ما ادعاه المنجم      وقد كذبت في الذي كان يزعم  
ييشر بالريح العقيم وإنهــا      كما قال عما قاله بك يعقم  
ويقسم أن الأمر لابد كائن      وبالأمر قد أحثته حين يقسم  
وجودك أمن للوجود من الذي      عن الريح يحكى أوبه النجم يحكم  
وقد قيل أحكام النجوم على الورى      وأنت على أحكامها تتحكم

ويشته فيها بالسلامة من المرض الذي كان قد أصابه وبحلول شهر رجب :

نهنيك بالشهر المرجب إنه      يرجب فينا كاسمه ويعظم  
وبالبرء من بعد البشارة إنه      لجسمك برء بعده ليس يسقم  
ونشهد أن الشهر شهر مبارك      عليك وأن البرء برء متمم

ويلمح بمطالبه :

وإنك في البأساء تخشى وتقى      وإنك في السراء تعطى وتنعم  
فما يبرم المقدار ما أنت ناقض      ولا ينقض المقدار ما أنت مبرم

وهذه القصيدة أشبه ما تكون بروح المتنبي قوة وسهولة ووصف بطولة وقد آخر فيها النسيب كما آخره في القصيدة السابقة وأشار إلى ذلك بقواه :

فيا ناصر الدين الحنيف حسامه      ونائله القياض يسلو المقيم  
لمدحك أخرت النسيب تهييـا      وعندهم أن النسيب يقدم

وهذه القصيدة قالها الشاعر قبل سابقتها - لأنه أشار هنا إلى أن النجم المذنب لم يظهر وهناك أشار إلى ظهوره ... وهذا يؤكد أسبقية هذه القصيدة عن تلك .

وتوالت انتصارات « صلاح الدين » فخرت له قلعة الكرك ، ودكت أمام قوته نابلس وانتصر انتصاره الحاسم في المعركة الخالدة « حطين » فهنأته القلوب وتبارى الشعراء في إظهار مشاعرهم ، وأنشد ابن سناء يقول :

هل الكرك الثكلي بأولادها انتهت      عن النسل مما جرّعته من الثكل  
وكانوا لها كالعقد لكنه وهى      وأضحى لها جيش ابن أيوب كالغـل  
أناهم بمثل الرمل ينقل خيلهم      إلى الأفق ما فوق الطريق من الرمل

ثم يقول :

فناבלس لما أن نزلت بربعها      أقامت بهم حق الضيافة والتزل  
أحسوا بطل للخريف فجاءهم      ربيع من النبل المسدد كالوبل  
ولم أر أرضا جادها الغيث قبلها      وتصبح تشكو بعده غلة المحل  
وما شرقوا بالماء والريق إذ رأوا      جيوشك لكن بالفوارس والرجل

وفي هذه القصيدة لم يطلب شيئا ولم يشر إلى شيء ، ويبدو أن الحماسة والرغبة التي امتلكت الملايين المتطلعة إلى القضاء على الصليبيين جعلته ينسى نفسه في هذه القصيدة ولا يذكر شيئا غير اعتزازه ببطولة الملك الناصر ،

والحقيقة أن هذه القصيدة تندفق فيها حرارة العاطفة ، وصدق الوطنية ، وثورة الشعب وأمله في القضاء على الغازين المعتدين .

وقد رجمتها المنجنيات إذ رمت لشيخ لعين كافر جاهل رذل

فالكلمات تتسابق على لسانه بالغليظ والضييق ، والأمل في الخلاص والرغبة في تحطيم أولئك الكافرين الجاهلين الأراذل .. ومن هنا نرى أن الشاعر قد خرج على ما استخلصه الدكتور الأهواني من أن جهد الشاعر كان منصرفاً إلى هذا الافتتان العقلي حتى في أمس الموضوعات بالانفعال العاطفي ، وهو انحراف الشعر عن وضعه الطبيعي وعن وظيفته أو مهمته الأصلية ، وأن الفن كله والشعر لم يخلق ليكون مجالاً لهذا النوع من الجهد العقلي الذي يكون على حساب التعبير العاطفي ، والذي من شأنه أن يطمس هذا التعبير ، ويخرج إلى نوع من الصناعة العقلية تشبه الرياضيات والعلوم العقلية (١) .

في خلفاء صلاح الدين :

وبعد موت صلاح الدين حاول ابن سناء أن يكسب ثقة الملوك الشبان أبناء صلاح الدين ، فوجه كثيراً من القصائد إليهم يمدحهم ، ويرجو فضلهم ونوالهم ، وعونهم على التقدم والرقى ، مدح الملك العزيز بثمانى قصائد استطعنا أن نتعرف على تواريخ اثنتين منها هما قصيدته الميمية التي مطلعها :

من فر منك فما يلام وطريد بأسك ما ينسام

فقد قالها سنة ٥٩٢ هـ عندما فر الأسدية ( عبيد أسد الدين شيركوه ) من الملك العزيز إلى الملك الأفضل . وهي قصيدة بلغت سبعة وأربعين بيتاً ثم وجه إليه قصيدة رائية بعد أن خلص قلعة تبين من يد الفرنجة سنة ٥٩٤ هـ ومطلعها :

الشام للإسلام دار القرار وكان من قبل طريق الفرار

وفيها يقول :

جئت لتبين ومن حولها قوم كأعداد الحصى للحصار

سدوا عليها الطرق حتى لقد كادوا يسدون طريق القطار

وقد بلغت ثلاثة وأربعين بيتاً ، وأما بقية قصائده في العزيز فمن الصعب أن نستدل على تواريخها لأن ماورد فيها من مدح للملك أوصاف عامة لا تحدد مناسبة ولا تشير إلى أحداث ووقائع يمكن أن نستغلها في معرفة التواريخ . وقد وجه الشاعر إلى الملك الأفضل إحدى عشرة قصيدة إحداها لامية ومطلعها :

هوأي لمحجوبى الأول فقصر من العذل أو طول

ويبدو أن الشاعر وجهها إليه عند عبوره عليه في عكا سنة ٥٨٣ هـ أثناء سفره إلى سوريا ، ولذلك نرى أنه يدعوهُ إلى العودة إلى مصر :

بكت مصر بالدم شوقاً لايك وحتت إلى حكمك الأعـدل

تناديك عن كمد مسرف وتدعوك عن سقم معضل

(١) ابن سناء الملك ومشكلة المقم والابتكار ص ٤٧ ، ٤٨ .

وكم لك فضل على أهلها      فسمتك بالأفضل المفضل  
وقد جئت منها رسولا إليك      فكن بالرجوع لها مرسلي  
فأنت فتاها ونعم الفتى      وأى فتى كان إلا على  
وقد وجه إليه قصيدة رائية مطلعها :

سافر فوجه العيد سافر      فلترجع من وأنت ظافر  
ولتظهرن على عدو      ك إن حزب الله ظاهر  
وفي هذه القصيدة يشير إلى حياة الورع والزهد التي انصرف إليها الملك :

كم ليلة أحيتها      نام الأنعام وأنت ساهر  
لله فيها قائما      وعلى سواك الكأس دائر

ولهذا نرجح أن تكون هذه القصيدة قيلت حوالى سنة ٥٩١ هـ إذ أن انصرافه عن اللهو وترك الملذات كان في هذه السنة .

والظاهر أن الصلة قد توطدت بين الشاعر وبين الملك الأفضل حتى استدعاه الأفضل إلى سوريا كما يفهم من قصيدته التي مطلعها :

قمر بات بين سحرى ونحرى      وخيول الدموع بالأم تجرى  
وفيه يقول :

هو في الدست جالس وعطايها      ه إلى الخلق والأقاليم تسرى  
أنا من سرت إليه وجازت      كل بر وجاوزت كل بحر  
طرقني في كل ليل بصبح      وأتني في كل عسر بيسر  
جل مقدار ذكره لى على البع      ل لقد جل في البرية قدري

وفي قصيدة دالية مطلعها :

عاد قلب المشوق إذ عدت عيسده      ووفى وعده ووافت سـودده  
قيل عنها في النسخة التيمورية أن الشاعر مدح بها الملك العزيز ولكن الظاهر أنها في مدح الملك الأفضل — كما رجح ذلك الدكتور محمد عبد الحق إذ أنه يشير في أحد أبياتها إلى الجفوة التي كانت بين الأفضل وأخيه العزيز فيقول :

خمدت نار من عصاه ونور الـ      دین هیئات لیس یخشى خموده  
بعده لا عصاه عاص ولا یخـ      نق فى الخافقین إلا بنـوده  
وأشار فيها إلى حياة التنسك والزهد :

ملأ الليل بالتهجد حتى      فاض عنه ركوعه وسجوده

والظاهر أنه كان قد أعدها لمدح بها الملك العزيز ، فلما حضر الملك الأفضل إلى مصر بعد موت العزيز غير الشاعر بعض أبياتها وزاد عليها ووجهها إلى الملك الأفضل :

ولم يدم حكم الأفضل طويلا في مصر فسرعان ما حل العادل محله سنة ٥٩٦ هـ وغادر الأفضل مصر ، حيث قضى

بتمية حياته في التقشف والزهد ولا نظن بعد ذلك أن الشاعر قد وجه إليه أية قصيدة إذ أنه لا يمكن أن يكون أي تقدير للنجوم المساوية .

ولما سطع نجم الملك العادل وآل إليه أمر مصر انصرف الشاعر إلى مدحه ولذا نجد قصائده فيه قد وجه معظمها إليه بعد سنة ٥٩٧ هـ أي بعد أن انتهى أمر منافسيه من أبناء صلاح الدين ومن كان يشجعهم كالقاضي الفاضل . وليس لدينا سوى قصيدة واحدة وجهها إليه سنة ٥٧٧ هـ هيته فيها بمطلع العام الجديد ، ومطلعها :

سجى ليل همى بالعذار الذي سجا وعرج قلبي نحوه حين عرجا  
وبالطبع وجهها إليه في حياة أخيه « صلاح الدين » ولم تكن الخلافات الشخصية ولا كراهية القاضي الفاضل للعادل قد اتضحت بعد ، ولذا كان الشاعر في أمن وحل من أن يمدحه .

ومن الذين حظوا بمدح ابن سناء الملك المعظم « توران شاه » ، فقد مدحه الشاعر بقصيدة واحدة مطلعها :

تقنعت لكن بالحبيب المعمم وفارقت لكن كل عيش مذمم

وقد أثار هذا المطلع ضجة النقاد فمنهم من هجنوا التقنع بالحبيب ومنهم من دافع عنه ، وقد جعل منها ثلاثة وعشرين بيتا للغزل حشدها بالإشارات الأدبية والتعبيرات الغزلية التي استعملها الأقدمون ، ثم مدحه بالمألوف من الصفات ولكن في ثوب خاص به فهو المعطى الممالك مجدداً صميماً ، وملوك البرايا يخرون له رهبة ، ويسجدون في حضرته ، ويلثمون الأرض بين يديه ، حتى تظهر أثر مباسمهم عليها ، وقد غدا ينصر بالعرب حتى ليحمي بأسه حماه ، وإن سمعته إذا تعوذ بها الطير أمن شر اعتداء النور الكاسرة عليه ، وقد أربب الكفار وأمن في ظله الإسلام ، وقد تعلم السيف منه العزم والحزم ، ودروع الأعداء لا تحميهم من سهامه بل لأنها لتصير مثل البرود تمرق فيها سهامه في يسر وسهولة ، وإذا صاد غيره الغزلان فهو لا يصيد غير الضياغم ، وركض الخيل عنده نوع من الاستراحة ، ولبس الدرع نوع من التنعم ، وأجمل ما يتطيب به نقع المعارك ، وألين مهاده ظهر خيله وإبله ، وكثير من أهل الصليب إذا رأوه أسلموا .

وهي قصيدة حماسية تمجد البطولة ، وتشيد بالعزم والحزم الذي اتصف به الملك المعظم « توران شاه » أخو صلاح الدين ، وقد بلغت هذه القصيدة سبعة وخمسين بيتاً ، وقد صرح في الأبيات الأخيرة منها بطلب نداءه ، وأمله في أن يمهده له طريق التقدم والرقى ، ولم ينس أن يفتخر بأدبه ، وروعة لفظه :

سيخدم منك الشمس منى عطاردي ويبدى كلامي في سماءك أنجمي  
ويغنيك انظي عن حسام مجردي وتغنيك كتي عن خميس عرمرمي  
فخذها فقد جاءتك من متأخري مجيدي وليس الفضل للمتقدم

ويحتمل أن هذه القصيدة وجهت إلى « توران شاه » ما بين سنة ٥٧٤ ، ٥٧٦ هـ إذ أن ذلك هو الوقت الذي استقر فيه « توران شاه » في الاسكندرية وظل حتى مات سنة ٥٧٦ هـ .

ومن الشخصيات التي حاول الشاعر أن يكسب عطفها ، وودها الوزير « صفي الدين » المعروف بابن شكر فقد كان الطريق الطبيعي إلى الملك العادل ، وكان بينه وبين القاضي الفاضل عداوة مستحكمة ، صرح كل منهما به ، وبالطبع لم يحاول ابن سناء أن يمدح ابن شكر في حياة القاضي الفاضل ، ولذا يمكن أن نستنبط دون عناء كبير أن

الإحدى عشرة قصيدة التي وجهها ابن سناء إلى ابن شكر ألفت بين ٥٩٧ هـ ، ٦٠٦ هـ أى بعد وفاة القاضي الفاضل إلى وفاة الشاعر .

ومن المؤكد أن الشاعر استطاع أن ينفذ إلى قلب «ابن شكر» واكن بعد عناء ومشقة حتى أنه حصل على خلع عديدة من الملك العادل كما أشار إلى ذلك في قصائده وكذلك حصل على هدايا الوزير نفسه ، فقد أهدها بغلا يسمى الجمل ، وقد صرح بذلك في إحدى قصائده إذ يقول :

حملتني فوق مركوب قوائمه كالسبل مع أنها قدت من الجبل  
تمثال حسن بلا مثل بمائله في الحسن لكنه في السير كالمثل  
علوت منه على الأفلاك أورده نهر الحجرة بين القوس والحمل  
وياؤه حذفت من اسمه غلطاً فهو الجميل وإن سموه بالجمل

وبعد : فقد استعرضت ألوانا هامة من مدائح الشاعر حاولت فيها أن أوضح المنهج الذي أثره ، والصفات التي خلعتها على ممدوحيه ، واستغلال بعضها للتصريح بمطالبه وحاجاته التي كان يسعى في الوصول إليها .

وإن مدائحه التي وجهها إلى الشخصيات الأخرى كالظاهر غازي ، والمظفر تقي الدين والملك الكامل ابن العادل لا تختلف كثيراً عن تلك القصائد التي قدمناها .

و يمتاز مدحه بالحماسة المتدفقة في أرجائه ، وبجراحة العاطفة التي تبعث في هذا الأدب الحياة والقوة ، بسبب اندلاع نيران الحروب الصليبية ، وتدل على ما كان يعتمل في نفوس الشعراء من اضطرام نيران الألم لاغتصاب هذه الأرض من المسلمين ولما أصاب سكانها من تشريد وذبح وتقتيل ، ويدلنا هذا الأدب على أن سكان مصر والشام لم ينسوا برغم مرور الزمن وتطاول الأعوام هذه البلاد التي اغتصبها العدو منهم ولم يفقدوا الأمل في أنهم سيستردون يوماً ما فقدوه .

وقد تلون هذا الأدب ألوانا شتى بين حزن وحسرة ، وفرح وبهجة ، وبين تمجيد للأبطال وحث على النزال ، وبين قوة وإقدام ، أو خوف وذعر إلى غير ذلك من ألوان العواطف والانفعالات التي أملت بالأمة في تلك العصور ، وصورها الأدب وأبقاها على مر الدهور (١) .

وقد تأثر ابن سناء تأثراً واضحاً بالحروب الصليبية ، وانعكس في شعره أثرها فأدى دوره في معركة التحرير ، وكانت له حظوة وأثرة عند السلاطين والوزراء والأمراء وطبع بطابع الحماسة والبطولة فيشيد بجهاد السلاطين وبطالتهم ، ويدفعهم إلى خوض المعارك ، ويبدى مهارتهم في الضرب بالسيف ، والطعن بالرمح ، فيشيد ببطولة صلاح الدين ، ويرى الأعداء قد فروا أمامه حين عابنوا خيله التي تنطلق في أعقابهم<sup>٢</sup> ومن تباطأ منهم كان نصيبه أن طارت رأسه ، وجزت رقبتة ، وقد كره السيف الطلاء من كثرة ما انغمس في دماءهم وقد فر ملكهم وهو يتحسس قفاه ويظنه مطعوناً من شدة الذهول فيقول :

أقمت بها التوحيد لله وحده وأنسيت فيها الروح والأب والابنا  
ولما رأوه أدبروا حين عابنوا أعنة خيل لا تعود ولا تنسى

(١) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية للدكتور أحمد بدوي : ٤٠٧

وقد وقفوا لكن لأسر رقابهم  
ثبت لهم والسيف قد كره الطلى  
بضرب يذيب الشمس في الأفق حره  
مضى ملكهم في أول الأمر هارباً  
ويقول في مدح الملك العادل :

إذا سل سيف الدين في حومة الوغى  
فقد سل أدرى بالقراع وأدرب  
وجرد ماضى الكف والقلب ثابت  
فما قلبه يوم الوغى يتقلب

ويمدح الملك المظفر «تقي الدين» ، فيفتن ببطولة جيشه ، وإحرازه النصر ، وتوثب الأبطال منه واندفاعهم إلى الموت ، وترفعهم عن الأسلاب والمغانم ، فهم لا يسلبون سوى الأسود أما المها فيعرضون عنها فيقول :

لك الجحفل الجرار للبيض والقنا  
تخط خطوط النصر حتى على التراب  
به كل وثاب إلى الموت باسل  
ومن ذا يرد الأسد عن عادة الوثب  
يعفون عن كسب المغانم في الوغى  
فليس لهم غير الفوارس من كسب  
ويشغلهم سبي الأسود عن المها  
ويلهيمهم نهب النفوس عن النهب  
لهم معجز في الطعن والضرب باهر  
فلا طعن في طعن ولا ضرب في ضرب  
ويرهب من أسيافهم قبل سلها  
ورب سيوف قطعت وهي في القرب

ويمدح الملك الأفضل ، فيذكر انتصاره على الصليبيين ، ويرمز إلى هذا بتخطيطه الصليب ويشيد ببطولته التي ترهب الأعداء فينتصر عليهم بالرعب قبل أن يراهم أو يروونه فيقول :

أنت الذي قصم الصليب  
تسرى إلى الأعداء قب  
ب وهد منه كل صلب  
ل الجيش منك بجيش رعب  
تلقى الأعادى واحدا  
أبدا فتهم ألف طنب  
وبعض بأسك كم غزو  
ت وكم قتلت بكل غلب

ومن الظواهر الهامة التي نلمسها في مدائحه تأثيرها بشكل ملموس بثقافة عصره : فقد تأثرت ألفاظه ومعانيه ، وتشبيهاته ، وصوره وأخياته تأثراً واضحاً بتلك الثقافة . فيستمد من النجوم والأفلاك والأبراج ألفاظه وتشبيهاته ، ففي مدح صلاح الدين يقول :

لورامها الدهر لم يظفر ببغيته  
ولو أتى أسد الأبراج منتصرا  
حارت قوائمه عنها ولم يشب  
وطالما غاب عنها وهي لم تغب  
تلقى إذا عطشت والبرق أرشية  
كواكب الدلو في بئر من السحب

وفي مدح الملك المظفر تقي الدين يقول :

لنصرك حتى تملك الغرب بالغلب  
وما اجتمعت إلا لانتجد عسكرياً  
قد اجتمعت زهر الكواكب في الغرب  
بسعدك يغني عن مساعدة الشهب

والظاهر أن الفلكيين والمنجمين - على الرغم - من تهجين الشعراء لهم ، وحرصهم على تكذيبهم كان أثرهم في المجتمع ، وفي تدبير الأمور عظيماً .

وفي مدح الملك المظفر تقي الدين يقول أيضاً :

ويسعده البرجيس في السلم مثل ما يساعده المريخ في حومة الحرب  
وينحس كيوان بلاد عدوه ويُعجّله بالسسل منها وبالسلب  
يفتح ديوان السماء عطاردا لإنشاء أخبار البشائر والكتب  
وما الزهرة الزهراء إلا مليحة يبعث سرور النصر للنفس والقلب  
وهذا هو القول المحقق لا الذي يحرفه أهل النجوم من الكذب

كما ينعكس في شعره أثر الثقافة الدينية : ويتجلى ذلك واضحاً في ألفاظه ومعانيه فأحياناً يقتبس ، وأحياناً يضمن أبياته معنى آية أو حديث ، وأخرى يذكر مصطلحات دينية فيقول :

جمالمهم من مغازيهم إذا قفلوا حمالة السبي لاحمالة الخطب  
فقد ضمن البيت معنى قوله تعالى : « وامرأته حمالة الحطب » . ويقول في القصيدة نفسها :  
تطوى البلاد وأهلها كتائبه طبا كما طوت الكتاب للكتب  
فهي من قوله تعالى : « يوم تطوى السماء كطى السجل للكتب » .  
ويقول في مدح الملك المظفر تقي الدين :

وباسمك من قبل الوغى تهزم العدا وباسمك قبل الحرب تنصر بالرعب  
فهو يضمنه معنى الحديث الشريف : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » .  
ويأتى بالمعنى نفسه حين يقول في جيوش المظفر :  
ويرهب من أسيافهم قبل سلها ورب سيوف قطعت وهي في القرب  
ويقول في مدح الملك الأفضل :

تسرى إلى الأعداء قبـل الجيش منك بجيش رعب  
ويستعمل كلمة « الفرض » و « الندب » وهما كلمتان شاع استعمالهما في عاوم الفقه الإسلامى ، فالفرض ما فرضه الله وأوجب القيام به بالقرآن أو بالحديث القدسى ، والندب هو السنة وهو ما كان من عمل النبي أو فعله أو قوله ، فراه يستخدم ذلك فيقول :

وردك فينا من سميك سنة فأظهرت ذاك الفرض من ذلك الندب  
ويستخدم معنى قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ... الآية في مدح الملك الأفضل فيقول  
في المقدمة الغزلية :

ختم الحبيب بخـاتم منه على سمعى وقلبي  
هو خاتم في فيه يا ما فيه مما صاغ ربى (١)  
وفي مدح الأفضل يستخدم أيضاً الفرض والندب :

(١) في هذا التعبير أصالة مصرية



والرسم شيء لا يـزـا ل يراه فرضاً كل ندب (١)

وهو ملم بالفلسفة الإسلامية ومذاهبها ، ويكثر في شعره الإشارات الفلسفية فالأشعرية لا يثبتون للمعدوم وجوداً ولا ذاتاً ، فيشير إلى هذا المعنى بقوله :

وأشعري الحب لا يقول بالمعدوم

تعدد الأغراض في القصيدة فيتغنى بمصر والنيل الخالد : ويظهر أنه كان يحب وطنه حباً شديداً

عاماً ، نرى ذلك حين يغادر مصر ويذهب إلى الشام فيزيد شوقه ، وسرعان ما يحن إلى العودة إلى بلاده ، وقد كثرت إشارات إلى النيل وإلى ذكر مصر وفضلها مراراً على الشام وعلى غيرها ، وفي مدح العادل يقول :

أعدت لأهل النيل رى بلادهم	بأجر نيل عندها النيل مذنب
هنيئاً لمصر وصله ووصواه	فقد كان يؤذى مصر منه التجنب
أخذت لمصر من دمشق بحقهـا	فمصر بما أوليت تطرى وتطرب
وما برح الفسطاظ مذ كان طيبا	على غيره لكنه اليوم أطيب

ويتغنى بالأتراك ويشيد بجهودهم ، وهذا مظهر لم يكن مألوفاً من قبل ، ولكنهم كونوا في عهد صلاح الدين قوة ضاربة ، فلاقوا الأعداء وأبدوا من البطولة والشجاعة ما جعل الشعراء يشيدون بهم ، والواقع أن الرابطة الإسلامية كانت هي الرابط الوحيد بين أبناء المسلمين ، ولذا أشاد بهم «ابن سناء» في مطلع قصيدته التي مدح بها صلاح الدين فقال :

بدولة الترك عزت ملة العرب وبابن أيوب ذات شبيعة الصلب

كان يفتخر بنفسه في قصائده مدحه كثيراً : فهو لا ينسى نفسه ولا ينسى شخصيته فهو يأخذ ويعطي :

يأخذ الفائ ويعطى الباقي ، يأخذ مالا ويعطي مجداً وهو في ذلك يحذو حذو المتنبي في مدائحه سيف الدولة ، فيشيد بشعره ويعجب به فيقول في مدح العادل :

وغنى بشعري فيك كل مغرد	ونال الغنى منه مغن ومطرب
وكل قصيد قلتها فيك إنها	بلا مزية في الحسن والسير كوكب
فلا منطقي إلا لقولي مشرق	ولا مسموع إلا لقولي مغرب

ويقول في مدح صلاح الدين :

لك المدح منى تنتشى السامعون به	كأن مديحي في معاليك أكزوس
كلانا بديع الصنع مدحى مطبق	وجأشك في قهر الملوك مجنس

مظهر آخر ظهر في مدائح ابن سناء هو نغمة السؤل والاستجداء : ويظهر أن ذلك كان مرضاً عاماً

وشائعاً بين الشعراء في هذا العصر ، ظهر في شعر ابن التعاويذي بصورة مزرية فيقول لأهل بغداد :

أترضون يا أهل بغداد لي	وعنكم حديث الندى يستند
بأنى أرحسل عن أرضكم	أجوب البلاد وأسترفد

(١) الندب : الخفيف في الحاجة ، الطريف النجيب

ألا رجل منكم واحد يحركه الجسد والسودود  
يقلدني منة يسترق بها حرّ شكرى ويسترفد (١)

وقد ظهر الاستجداء والسؤال في شعر ابن سناء ، ولكن ليس بتلك الصورة المزرية فيقول في مدح الملك العادل :

ولما كما أن تتركاني على الظما      فكف أبى بكر بسقيائى تسكب  
ولى ثقة فى جوده لا يخوننى      ولى أمل فى فضله لا يخيب  
أمنت زمانى وارتقت نواله      وبحر نوال عنده البحر مذهب  
وطرى جفاف الحال منى بجوده      فهما أنا أطرى بالمديح وأطرب  
هو الملك المحيى المميت ببأسه      ونائله أيان يرجى ويرهب  
وفى مدح الملك الأفضل يلوح بمطالبة فيقول :

أنت الذى أو شئت ما      فل الزمان على غربى  
والله ما أسفى على      قطع النوال المستتب  
كلا وليس معيشتى      نظم ولا بالشعر كسبى  
لكن لأن نذاك يسـ      حرنى فسيبى وبصبي  
ولطالما قد فاض (٢) ما      بى من نذاك وطال عتبى  
وبمدح الملك الناصر صلاح الدين فيقول :

إنى أحب بلادا أنت ساكنها      وساكنها وليسوا من ذوى نسبى  
فجود كفك ذخرى فى يدى ويدي      وحب بيتك لارثى عن أبى فأبى  
ومع القاضى الفاضل يقول :

فأقرب شىء بعد رؤيته الغنى      وأبعد شىء بعد رؤيته الفقر  
ولا عيب فى إنعامه غير أنه      تعلم منه كيف يستعبد الحر

وبعد فهذه أهم الخصائص التى ظهرت فى مدائح ابن سناء وإن لم يقتصر بعضها على مدحه كأثر الثقافة ، وانعكاسها فى شعره فإن ذلك الأثر ليس مقصوراً على المدح وحده - غير أنه أبرز فيه من غيره من بقية الأغراض .  
بقى أن أشير إلى المنهج الذى سار عليه فى مدائحه من التقديم لما بالنسب المطول حتى لتبلغ المقدمة أحيانا الثلاثين بيتا ، وقلما يترك هذا المطلع إلا حين تلهيه مدائح المدح عما عداها كقوله فى مدح صلاح الدين :

لمدحك أخرت النسب تهيبا      وعندهم أن النسب يقدم

وفى مدح الملك المظفر تقي الدين يترك التقديم بالنسب ويشير إلى ذلك بقوله :

ألهى مديحى فيك قلبى عن الهوى      وإن كنت صيبا بالمديح الذى يصبى  
فشخصك أبهى فى فؤادى وناظرى      ومدحك أحلى فى لسانى وفى قلبى

(١) الأدب فى عصر صلاح الدين : للدكتور زغلول سلام ص ٢٦٧ ، ديوان ابن التعاوينى ص ١٣٩

(٢) تعبير مصرى أصيل فى العامية المصرية ( فاض بى ) .

بقيت ملحوظة أخيرة هي انعدام الوحدة الفنية في مدائحه : - وهو مظهر عام في الشعر الأيوبي بل الشعر العربي كله فإن القصيدة الواحدة تتعدد فيها الأغراض والأفكار دون أن يربط بينها رابط فيفيد القصيدة بالنسب : ثم يتحدث عن صفات الممدوح وأحياناً يفصل بين تلك الصفات بالتصريح بمطالبة ثم يعود لاستكمال صفاته ، وبعد قليل يعود من جديد لينوه بمطالبة وآماله ، بل إنه أحياناً في تناوله صفاته وفضائله يفصل بين الصفة الواحدة بصفات لا ترتبط معها .. يبدو ذلك في مدح صلاح الدين في قصيدته التي مطلعها :

أجلس لهوى ليس لي منك مجلس لأوحشت لما غاب لي عنك مؤنس

فبعد عشرين بيتاً في النسب ، يتحدث في البيتين التاليين عن عظمة الممدوح وأنه يضئ على مدحه التقديس والإجلال ، ثم يترك هذه الفكرة ليتحدث عن جهاده في البيت الثالث والعشرين :

ومن شاد داراً للجهاد فأصبحت بها الرمح بيني والحسام يهندس

وقبل أن يمضي في إتمام هذه الفكرة يقف في البيت الرابع والعشرين ليتحدث عن رفعة وعلو شأنه ، وليست هذه صفة من صفات الجهاد ولا من لوازمه فيقول :

ومن هو يسرى في الفياق وإنما إلى النجم يسرى بل عليه يعرس

ثم يعود من جديد للحديث عن الجهاد ، وفتح بلاد الأعداء ، وشجاعته وخوضه المعارك في استهانة فيمضي من البيت الخامس والعشرين :

ويرسل عزماً للأعداء مبكراً فيأتيه فتح الأعنادى مغلس

حتى البيت الثلاثين حيث يتحدث عن نتيجة المعركة :

فكم أسلموا من خوفه وهو مغمد ولو أبصروا نيرانه اتمجسوا

ثم يعود في البيت الثاني والثلاثين ليتحدث عن جيشه الجرار وظلام المعركة واشتدادها من جديد - ويستمر على هذا النحو حتى البيت التاسع والثلاثين حيث يذكر ما حققه أن يكون مقدماً وهو أن صلاح الدين يعند بقوته وجبروته فلا يرضى مهاجمة أعدائه قبل أن ينذرهم بقدومه :

أمرتهم أن ينذروا قبل حريمهم ولم ترض أن الجيش في السر يكبس

ثم يتوعد أعداءه وينذرهم ويخوفهم بطش صلاح الدين ، ثم يتجه من جديد إلى صلاح الدين فيعمل من شأنه ويذكر بطولته وانتصاره ، وتبرده بصفة الملك القوية ، ويصرح بعد ذلك بمطالبة ويفتخر بشعره ومدحه ، وهكذا يظهر انعدام الوحدة الفنية وعدم ترابط أبياتاً بحيث نجد من السهل علينا أن نقدم ونؤخر في أبياتها دون أن يضطرب المعنى أو يختل ... وهذا مثل يمكن أن يطبق على كثير من قصائده إن لم يكن كلها بل إنه لينطبق على شعراء العصر أجمعين فمقياس الوحدة الفنية في القصيدة أثر من آثار المدرسة الحديثة في النقد ، أما في العصر الأيوبي فقد سار الشعراء على مذهب المتقدمين الذين يرون أن البيت هو وحدة القصيدة .

## ٢ - الغزل

والغرض الثانى الذى حظى باهتمامه بعد المدح غزله ومجونه ، فقد أربت قصائده ومقطعاته فيهما على المائة ، وتجاوزت أبياته الألف بيت ... هذا عدا مقدمات النسب الطويلة التى استهل بها مدائحه .. كما أسلفنا .

ويشتمل ديوانه على شتى أنواع الغزل فيغزل تارة فى جاريته ، وأخرى فى غلامه ، وثالثة فى محبوب جميل الصورة حسن الخرطوم ، ويتغزل فى أشيب ، وفى عمياء ، وفى جارية فى خدنها ماسور .

واختلف النقاد فى غزله من ناحية الإجابة : فقد رأى الدكتور « محمد زغلول » أن له المرتبة الأولى فهو أكثر ما يجيد فى الغزل والوصف - على حد تعبيره - وله غزل جميل يكاد يذوب فيه رقة وعذوبة (١) ، وقد عارضه فى هذا رأى معارضة تامة الدكتور الأهوانى ، فقد رأى أنه عاش بشعره فى واد ، وعاش حياته العاطفية فى واد آخر (٢) .

ورأى الدكتور « محمد كامل حسين » أنه من مدرسة الكتاب الذين اتجهوا بفنهم الشعرى إلى الصناعة النظمية التى تسلت إليهم من كتاب الفاطميين التى عرفت - خطأ - بمدرسة القاضى الفاضل ، وليس على حسب تسميته بمدارس الشعر من مدرسة الرقة والسهولة (٣) .

ولذا رأيت إزاء هذا التضارب التام فى الآراء أن أسلك طريقة علمية فى دراسة هذا الغرض حتى أصل إلى وجه الحق والصواب فسلكت طريق الإحصاء ، واستطعت أن أحدد ثلاثة اتجاهات أساسية فى غزل ابن سناء .

(١) أول هذه الاتجاهات :

غزل تقليدى ( نسب ) خالص نهج فيه ابن سناء منهج الأقدمين ، وأعظم ما يتجلى هذا الاتجاه فى مطالع مدائحه - التى كانت مظهراً عاماً لدى شعراء هذا العصر - ويتحدث فى هذا النسب عن الأوصاف القديمة ألوفة كالوصال والهجر والوشاة والعاذلين ، والتقدّم السمهري ، والثغر الأقحوانى ، والطيب والنشر ، وصورة البدر وإشراق الشمس .. ولكن فى روح مصرية يتجلى فيها الخفة وروعة الافتنان ، وحسن السبك .

ويسرف ابن سناء فى هذا النسب الذى يبدأ به قصائده فتبلغ مطالعه أحياناً الثلاثين بيتاً حتى انظن أنه هو الغرض الأساسى ، وهو يحسن التخلص إلى المدح .

استمع معى إلى هذا المطلع فى مدح القاضى الفاضل .. لقد بدأ الحديث عن ليلة الوصل التى هى أحلى نبالى العمر ، التى مضت بسرعة فأحس بها قصيرة ، ولم يملك إلا أن يتمنى بقاء النجم ، وعدم قدوم الصبح من سفره فقال :

يا ليلة الوصل بل يا ليلة العمر أحسنت إلا إلى المشتاق فى القصر

(١) الأدب فى عصر صلاح الدين : ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

(٢) ابن سناء ومشكلة العم والابتكار : ٥٤ ، ٥٥ .

(٣) دراسات فى الشعر فى العصر الأيوبي : ٢٠٤ .

يا ليت زبد بحكم الوصل فيك له ما أطول الهجر من أيامه الآخر  
أوليت نجمك لم تقفل ركائبه أوليت صبحك لم يقدم من السفر  
أوليت لم يصف فيك الشرق من غيبش فذلك الصفو عندى غاية الكسدر

ثم يتبع التمنى بطول ليلة الوصل بأمنيات أخرى عن المحب ، فكان يتعنى أن يبقى المحب بعد ذهاب الليل  
ويتمنى ألا تطلع الشمس على محبوبه الذى يشبه القمر ، بل ويتمنى أن لو نظر محبوبه إلى العشاء فيفتنها بسحره  
وجماله فتقف مبهورة ولا يتحرك بها الزمن فلا تأتى ساعة السحر فقال :

أوليت فجرك لم ينفر به رشأى أوليت شمسك ما غارت على قمرى  
أوليت أنى حبيى سحر مقاتمه على العشاء فأبتسأها بلا سحر  
أوليت لو كان يقضى من كلفت به در النجوم بما فى العمد من درر

ثم تحدث عن الواشين الذين حاولوا أن يحاوا بين محبوبه وبين زيارته ، ووصف خطو محبوبه ومشيتيه  
وخصره ، وتبرج الحسن فى خديه :

زار الحبيب وقد قالت له خدعى زره وقال له انواشون لا تزر  
فجاء والخلوا فى ريث وفى عجل كتابه حار فى أمن وفى حذر  
كأنه كان من تخفيف خطوتسه يمشى على الجمر أو يسعى على الإبر  
وقال إذ قالت ما أحلى تخفصره تبرج الحسن فى خديه من خفر

ثم تحدث عن ملاحظته ، وكسر أجفانه ، وحنينه ، ومضاجعته طيف من يحب ، ثم تخلص إلى المدح فى يسر وسهولة  
فقال :

عيش تذكركه ثم امتدحت علا عبد الرحيم فأغنانى عن الذكر

والظاهرة الثانية : التى تتجلى فى هذا اللون التقليدى انطباعه بطابع المدح : فالمدح هو الذى يملئ على الشاعر  
موسيقى الوزن ، وموسيقى القافية بل وهو الذى يملئ عليه قاموسه اللغوى . والمدح كالفخر من الموضوعات  
القوية التى تحتاج نغما موسيقيا قويا ، وقافية جياشة ، ولذا نرى أن الأوزان التى يهتدى إليها الشاعر فى معظمها  
من الأوزان القوية الطويلة النغم ، والألفاظ والعبارات يظهر فيها طابع القوة والضحامة أكثر ما تتجلى فيها  
الركة والسهولة .

استمع إلى تلك المقدمة التى ابتدأ بها مدح الملك الناصر :

نظر الحبيب إلى من طرف خفى فأتى الشفاء لمدنف من مدنف

فأنت تسمع هدير ذلك البحر ، وقوة جيشانه وتدفعه من وراء تلك الرؤية الخفية التى شفت الحب المدنف .  
وحين تمضى فى قراءة الأبيات ترى الضغط المتكرر على مقاطع الكلمات يحدث نغما قويا وموسيقى صاخبة أشد ما  
تكون شبيها بموسيقى الحرب ، لا بموسيقى الفرح والطرب ، ردده هذه العبارات لتشعر بذلك الاحساس «سكن خده  
نار قلبى» «كفى فقد جاء الحبيب» «عاشقة المروع قد كفى» «وملية بالحسن» بل إن اختيار تلك الكلمات لما  
يحسن ويليق بالمدح منه فى الغزل .. فأنت تحس بالنار المشتعلة فى القلب وتحس بالجرى والخوف حين تقرأ :

ودنا فسكن نار قلبى خده أسمعتم نارا بنار تنطفئ  
وأرادت العبرات عادة جريها أو جرى عاداتها فقلت لها قفى

وتشعر بالفزع والروع حين تقرأ قوله :

كفى فقد جاء الحبيب بما كفى وصلا وعاشقه المروع قد كفى

وتشعر بالسخرية والاستهزاء وتلك المعركة القائمة بين البدر وبين المحبوب :

ومليّة بالحسن يسخر وجهها بالبدر يهزأ ريقها بالقرقف (١)

وما توحى به كلمة السخرية والاستهزاء من حركات وتقلصات في عضلات الوجه .. أشبه ما تكون بالمعركة وإن لم تستخدم فيها الأسلحة المادية فتلك أسلحة معنوية .

ثم تمضي فتنتقل من هذه المعركة المعنوية بين القمر والمحبوب لشاهد دم العاشق المتيّم وقد سفك ظلما فلا يخامرك شك أنك في وسط معركة وأمام عدو معتد لا في حضرة عاشق متميم ، أو محب عاطف :

فقول من هذا وقد سفكت دمي ظلما وتسأل عن فؤادي وهي في

ثم تنتقل إلى بيت آخر فترى حريقا هائلا ولها قانيا ، ذلك هو تلهب خدها وبعد ذلك تقابل بالضغط الشديد على المقاطع وكان الشاعر يعرض على نواجذها ، ويتوعد ويظهر عليه العزم والتصميم حين يقول : «أنا أنتوى عنها» ثم يحبس أنفاسه ليخرج العبارة التالية في قوة تتناسب مع الضغط الشديد على مقاطعها «لئلا أرتوى» ويخيل إليك أن وجهه ينحبس فيه الدم فيبدو أحمر قانيا وهو يردد قواه : «أظن أني أشتبهى أن أشتفى» ثم يسترسل ويمضي مسرعا وكأنه يجري وينطلق فيدعو على نفسه ألا يستمر عشقه ، ولا يبقى تصبّره ، ولا يقل تلهفه :

لا سار عشقي ، لا أقام تصبري لا قل مع نيل الوصال تلهفي

ثم تكون نتيجة المعركة هزيمة أمام معشوقته ، ويصبح أسيرا بين يديها ، وما عليه حينئذ إلا أن يستعطفها ويطلب منها العفو والغفران :

يا من تجور لقد ملكت فأسجعي يا من تهين لقد غنيت فأسعني  
فبحق حسنك يا مليحة أحسنى وبعطف قديك يا نخيلة أعطني

وهكذا نشعر إزاء تلك المقدمات في مطالع المدح أن جو المدح قد انعكس عليها ولبيعها بطابعه في اختيار الألفاظ والعبارات ، وفي اختيار التشبيهات والاستعارات ، بل وفي اختيار النغم الصوتي الذي ينبعث من موسيقى الوزن وموسيقى الكلمات . لأن القوة الدافعة ، والأفكار المسيطرة على الشاعر ، والمدد الذي يستمد منه هو ما يختزنه من مادة المدح ، والصفات التي يحاول أن يصف بها الممدوح ، والجو العاطفي الذي يشده إلى ممدوحه لا إلى معشوقه .

والظاهرة الثالثة التي نتجلى في هذا الاتجاه التقليدي : افتنانه العقلي ، فهو يتجاوب مع عقله أكثر مما يتجاوب مع عاطفته حتى ليطمس العاطفة ويخفيها ويخرج إلى نوع من الصنعة العقلية تشبه الرياضيات والمعلوم العقلية .

وقد رأى الدكتور الأدواني تغليب هذه الصفة عليه وشملها أدبه كله (٢) . ونحن نوافقه على هذا في نسبيته الذي يصدر به مدائحه فقط ، ولنؤكد ذلك نعرض نضائنا قصيدة بمدح بها القاضي الفاضل :

(١) القرقف : الحمر

(٢) ابن سناء ومشكلة المقم والابتكار : ٥٢

يا ضنينا شوقى إنيه كـرـيـم  
سافر القلب فالدموع بخار  
للتقيك والضامع سفسين  
دمع عيني قد عاث فيها وقد ضا  
عت لديها أهداها والجفون  
ليت دمعى لو كفف عن منزل الطير  
لك نعم الوكيل منى دمع  
وخؤونا قلبى عليه أمين  
وهو للمقلتين بشى القريـسـن

فقد خص الشاعر الدمع بخمسة أبيات ، بسط فيها صورا وقضايا أطال لها التفكير والتأمل وأنفق فيها جهدا ذهنيا كبيرا ، فما دامت الدموع توصف لكثرتها بالبحار ، وما دامت السفينة فى انحناء جوانبها تشبه بالصدر ، وما دام القلب يشتاقي إلى لقاء الحبيب ، فقد صار القلب مسافرا فى سفينة الضامع فوق بحر الدموع ، وما دام الحبيب يعذب المحبوب ، وما دام الدمع يعذب العين ويعيث فيها فسادا فهو إذن وكيل المحبوب ، ونعم الوكيل لإخلاصا لموكله ، وهو قرين للعين يخرب منها منزلا يستقبل فيه طيف خيال ذلك المحبوب ، وإذن فهو للعين بشى القرين . وهذه الظاهرة كثيرة واضحة فى مقدماته الغزائية .

وخلاصة هذا القول : أن النسب التقليدى الذى يصدر به مدائحى تتجلى فيه صفات أساسية أهمها :

- ١ - استعمال الأوصاف القديمة فى الغزل .
- ٢ - انعكاس صفات المدح وما يتضمنه عليه .
- ٣ - الافتنان العقلى ، والتوايد الذهبى والبعد عن العاطفة .

(٢) ثانى هذه الاتجاهات : غزل رقيق :

ينفـض عذوبة ورقة ، وينساب فى يسر وسهولة ، ويتجاوب فيه مع مشاعره وعواطفه يغترف فيه من بحر ، ويصقل ما ينحته من صخر .. إنه يحكى نبضات قلبه ، وروعة نفسه ، وفيض إحساسه . استمع إلى قوله :

أواصل اللثم من فرع إلى قدم  
وأوصل الضم من صدر إلى كف  
وبات يسمعى من لفظ منطلقه  
أرق من كلمى فيه ومن غزلى  
وددت أعضائى أسامعا لتسمعه  
ولو تحملن فيه وطأة العذل  
ودمعة الدل تجريها على جسدى  
فهل رأيت سقوط الطل فى الطلل  
ونلت ما نلت مما لم أهم به  
ولا ترفت إنيهمه الأمـل  
ومر والليل قد غارت كواكبه  
لما نوى الصبح تطفيلاً على طفل  
لم أسحب الذيل كى أمحو مواطه  
لكننى قمت أمحو الخطو بالقبل  
يا ليلة قد تولت وهى قائلة  
لا تنظمنى مع أيسامك الأول

فانظر إلى الصورة التى تحدث فيها عن تجربته الشخصية مع محبوبه فى ليلة حلوة من ليالى الوصال . لقد كانت لفاظ المحبوب وكلماته موسيقى تنساب من فيه فتشغف الآذان — أو هكذا رأى العاشق المتيم -- حتى تمنى لو كانت جوارحه تتحول إلى مسامع لتنعيم بما ينعم به سمعه الحقيقى . وهذه دموع الدلال تتناقص فى رقة و كأنها قطرات الندى تتساقط على الطلل ، وقد أحس بالسعادة تسرى فى أوصاله مما لا يطمع ولم يطمح فى أن

يصل إليه . ولما غابت كواكب الليل ، وبدأ الصبح يزحف متطفلا ، رحل المحبوب فقام في أثره يحمو الخطو بالقبل .

هذه المعاني الرقيقة التي تحكى تلك التجربة الذاتية ، تنساب في خفة ودلال ورشاقة زادت العبارات والقوال الفنية روعة وسحرا ، فما أحلى هذه الموسيقى التي تنساب من حروف الصغير في الكلمات والعبارات : « يسمعى - من لفظ - غزلى - أسماعا - لتسمعه - العذل - جسدى - سقوط » - لقد تكررت السين والزين والدال والظاء والصاد ، وتوالى فانبعث منها نغمات موسيقية راقصة .

فضلا عن الإيحاءات الجميلة التي تستتبع تلك التعبيرات الحلوة ، فكل ثغرة من ثغرات جسمه يود أن تكون أذنا لتنعم بحديثها فكأن حديثها هاروت ينفث فيه سحرا ، وهذا جسده يذوب بين يديها فلا يبقى منه إلا طلل بينما تشتعل روحه وتتوهج نفسه ، وهذه دموع دلالها تتساقط على جسده المتهالك عله يفرش صدرها ، أو يضع رأسه على ساقها فتساقط دموعها على جسده ، إنها لوحة فنية ، إنه اندماج الأرواح ، فليست متعة جسدية فحسب ولكنها متعة روحية ونفسية ، لذا لم تزل تلك المتعة بزوال أثرها ، فما زال يذكر تلك السعادة بعد ذهاب صاحبته وكان حريصا على استبقاء تلك الذكرى فوجد لها جذيرة بأن ينحني على الأرض ويلثم خطواتها التي تركت أثرا فوقها : « لكننى قمت أمحو الخطو بالقبل » وهذه ليلة العمر ، لذا لا ينبغي أن تحسب مع الليالى الأخريات .

ومما زاد العبارات جمالا وروعة هذا الانسياب الذى يتمثل في حروف المد التي زادت عدتها في هذه الأبيات « أوصل - إلى - وأوصل - وبات - يسمعى - منطقه كلمى - غزلى - أعضائى - أسماعا - لتسمعه - الغزلى - جسدى » ... الخ . إن حروف المد وتواليها في هذه الأبيات أكسبها حلاوة وطلاوة ، وزاد في جمال النغم الموسيقى الذى ينبعث عنها ، وهى توحى بالتعلق والرغبة واللذة حتى ليود ألا تنتهى الكلمة ذات الدلالة على المعنى .

والعاشق المقيم يجد صدى هذه الأبيات في نفسه ، ويحس بالترجمة الصادقة لما ينطوى في قلبه ، وتزيده تعلقا بها ، وتكرارا لها إذا كان قد مر بهذه التجربة ، فأمضى ليلة سعيدة مثل هذه الليلة مع من يهوى أو من يعشق .

وهجره الحب ، وعبثا حاول استرجاعه ، لقد حلت القطيعة محل الوصل والغضب موضع الرضى ، فأقر عين الحاسدين ، وأرضى العاذلين ... فماذا يملك العاشق المقيم الذى قتله معشوقه .. أيرسل له رسائل الشوق .. نعم فليفعل وقد فعل ذلك ، ولكنها ذهبت أدراج الرياح ، فلم يملك إلا أن يعرض على أصابعه من شدة الغيظ . استمع معى إلى هذه التجربة اللذيذة في تلك الأغنية الممتعة :

ليس حظى من المـ	غـ	غـ	غـ	غـ	غـ
طال حزنى ولم أفـ	مـ	حـ	حـ	حـ	حـ
غضب غير قاطع	ورـ	رـ	رـ	رـ	رـ
وصدود له قضـ	بـ	بـ	بـ	بـ	بـ
أترى هل درى حـ	بـ	بـ	بـ	بـ	بـ
أن هوج الرياح قد	أـ	أـ	أـ	أـ	أـ



إنها أغنية جميلة عبرت في صدق عن تجربة الحرمان والمحر .

ولا أستطيع أن أنكر أن الصنعة تظل برأسها أحيانا في ذلك اللون من الشعر ولكن العاطفة تجربها بفيضها ،  
وتطغى على كلتها ، فتزيد الغزل جمالا فوق جمال كالمراة الجميلة تزيدها الأصباغ والطور جمالا فوق جمال  
وروعة فوق روعة ، استمع إلى قوله :

لا أجازي حبيب قلبي بجرمه	أنا أحنى عليه من قلب أمه
جوره مثل عدله عند من به	- واء مثلى وظلمه مثل ظلمه
ضن غنى بريقه فتحيات	إلى أن سرقة عند ثمنه
وإلى اليوم من ثلاثين يوما	لم تزل في فمي حلاوة طعمه
إن قلبي لصدده ورقادي	ملك أجفانه وروحي لجسمه
قل لأهل الحبيب غنى قد جا	ء إلينا برغمكم لا برغمه
يكسر الجفن بالفتور ومالي	عمل عند كسره غير ضمه
واعتقنا للوجد ثم افترقنا	وكتاب الآثام عنا بختمه
كم يلومون في هواه وماذا	قوا هواه ولا أحاطوا بعلمه

يكفى أن كتاب الآثام ظل مغلقا طول الوجد والعناق ..

١ - لعلك قالمست بعدهذا العرض لذلك الاتجاه اختلاف النغم الموسيقي الذي ينبعث من الوزن والقافية عن  
النغم في الاتجاه التقليدي فالأوزان هنا في جملتها من البحور الخفيفة الرقيقة التي تناسب خفة العاطفة الرقيقة  
والغزل الحقيقي الصادق .

٢ - ومعظم غزله في هذا الاتجاه مقطعات ، والمقطوعة أنسب في الغزل وأليق من القصيدة إذ أنها مجال  
حدة العاطفة ، وتوهج المشاعر أكثر من القصيدة .

٣ - ويبعد هذا اللون من الغزل في جمالته عن المغالاة في الصنعة ، والجري وراء الافتنان العقلي ، والتوليدات  
الذهنية ، كما ظهر في الاتجاه السابق .

٤ - الرقة والعدوبة والطلاوة مظهر الألتناظ ، والتجربة مظهر صدق الشعور والإحساس ويرى الدكتور  
الأهواى أنه كان في غزله يميل إلى الافتنان العقلي والإتيان بالمفارقات العقلية التي يريد أن يثير بها التعجب من  
التناقض الواقع بين الأشياء ويستدل على ذلك بقواه في إحدى قصائده التي مدح بها القاضى الفاضل والتي مطلعها :

ما ثنيناك لؤلؤ مكنون مثلها لم تقع عليه العيون

وقد جاء فيها :

يا غنيا من عسجد فزق خديه تصدق فإننى مسكين  
است أدري إذا سمحت أخذ هو أولى بقبلى أم جبين  
عضة نى من تحت نون بصدغ منك أضحت كأنها تنوين  
كيف طاف اللحاظ بستان خد وعليه من صدغه زرفين

فهذه الأبيات الأربعة يجمع بينها موضوع واحد هو ذكر الخلد ، تمثل هذه القضايا العقلية التي يعرضها الشاعر في قصائده ، فجمرة الخلد صارت ذهباً ، والزكاة أو الصدقة واجبة شرعاً في الذهب ، والشاعر فقير ، وإذن فقد اكتملت مقدمات القضية وصارت النتيجة أمراً بالصدقة ، ثم هذه المفاضلة بين الخلد والجبن ، وأيهما أولى بالقبلة تصدر عن حرص على إثارة القضايا العقلية دون أن يكون وراءها سند من عاطفة ، ثم انتزاع التشبيه من النحو أو من رسم الكتابة العربية ليس بينها وبين الشعور العاطفي أى سبب ، وإنما هو احتيال عقلي ، وفي البيت الأخير تكتمل الصنعة التي شغف بها ابن سناء الملك شغفا عظيماً ، وهى الإتيان بالمنفارقات العقلية التي يريد بها إثارة التعجب الواقع بين الأشياء المتناقضة فإن صدغ الحبيب وهى الشرعات التي تتدلى على الصدغ ثم تنثنى مرتفعة هى الزرفين أى الحلقة التي تكون على الباب ، وإذا فنحن أمام باب مغلق وراءه بستان هو الخلد يجمع اللون في الزهر والمتعة ، فكيف استطاع البصر أن يصل إلى البستان ودونه هذا القفل ، ولا محل لأن نسأل عن غزل ابن سناء وأن نناقش هل كان الشاعر محباً ، وهل تعرض للحب فكان هذا الغزل تعبيراً عن واقع عاشه الشاعر ؟

لا فائدة من التساؤل لأن الشاعر عاش بشعره في واد وعاش حياته العاطفية في واد آخر ، فقد كان يسعى جاهداً لمحاكاة الشعراء الآخرين . (١)

هذا ما عرضه الدكتور الأهواى ، ومع احترامى للدكتور ودراساته التي لا شك أنه بذل فيها جهداً طيباً إلا أنني أحب أن أناقشه في هذا الرأي : ألا يمكن أن يكون هذا التفنن في المزوجة بين الألفاظ واختيارها على هذا النحو دليلاً على اندماج الشاعر بكليته في التجربة النفسية وانفعاله بها ، واستيفائه كل ما يدعمها مما أدى إلى هذه الموسيقى اللفظية ، هل هذا الاستنتاج نتيجة لدراسة الدكتور لكل ما ترك الشاعر من آثار في الغزل حتى حتى يصح تعميم هذا الحكم ؟ أم أنها فكرة طرأت ثم اتهمس الدليل على صحتها فطأعته بعض النصوص .

لقد شاهدت أنه استعرض قليلاً من النصوص وأعتبها بهذا الحكم القاطع العام وأن من الممكن جداً لا بالنسبة لابن سناء وحد بل بالنسبة لأى شاعر آخر أن نستنبط مثل هذا الحكم من بعض المقاطع ولكنها لا تصلح أن تكون حكماً عاماً والآن علينا أن نعرض من النصوص ما يتنافى مع ما قدمه الدكتور فهل قرأ الدكتور ما قاله ابن سناء في محبوبته :

فأقطع من حدّ الحسام إذا مضى	حسام لها بين المحاجر والمساب
تطلع من بدر السماء إلى أخ	وتنظر من ريم الفلاة إلى تراب
أحن لشعب نازل فيه قومها	وما قومها قومي ولا شعبها شعبي
ويلحون نفسى في هواها وإنها	شقيقة تلك النفس ريحانة القلب
وقد نقلتني عن طباع كثيرة	وقد قلبت قلبي وقد خلبت خلبي
تغير فتحي باللحاظ عقواننا	وكم من شعجاع قد أغار ولم يسب

فما رأيي في هذا الغزل ؟ فهل يرى الدكتور في تشبيه الشاعر لحاظها بالحسام الفتاك جرى وراء الصناعة العقلية ؟ وماذا يقول المحب إذا نظر إلى عين محبوبته فاضطرب قلبه ، وترنح في مكانه ولم يستطع أن يديم نظره إليها ... أليس قريباً إلى العاطفة حينئذ أن يشبه عيونها الفاتكة وألحاظها الآسرة بالحسام .

(١) راجع ابن سناء الملك ومشكلة المقم والابتكار : ٥٤ ، ٥٥

وحقيقة لقد دأب الشعراء قديهم وحديثهم على تشبيه المحبوب بالقمر غير أن الشاعر لجأ إلى الكناية :  
فجعل البدر لها أخا : وجعل ريم الفلاة لها تربا ، وليس في ذلك جهد عقلي كبير ، فهو تعبير مألوف ، غير أن  
القالب اللفظي جميل ومعبر وسهل لا عناء فيه .

ثم حنينه إلى شعبها ، وطفته إليه على الرغم من أن قومها غير قومه ، وشعبها غير شعبه فليس إذا حنينه إلا  
من حبه الشديد لها ، وطفته عليها ، وقد جعلها جزءا من نفسه ، وربحانة قلبه ، بل إنها استطاعت بتأثيرها فيه  
أن تغير طباعه ، وأن تملك قلبه وتخلب لبه . وهذا التعبير الرائع الذي كرره كثيرا لإعجابه به .

تغير فتسبي بالمحافظ عقولنا - وكم من شجاع قد أغار ولم يسب  
ثم استمع إلى قوله :

قالوا محبك يا حبيب صبر	ما عند قاتل ذا الكلام صبر
لما أراد بأن يقول صبا	عثر الأسان به فقال صبر
ونعم صبوت إليه حين وفي	ونعم صبرت عليه حين غدر
ولقد أتى لأصب عادله	فنهى ولكن الغرام أمر
ويقول دمعتك لم يدع بصرا	أسمعت قط لعاشق ببصر
بأنى وأمى من أسر إذا	قسالوا غزاه غزاله فأسر
يا سافكا دمعى وناهبسه	حسبي وحسبك قد أخذت فبذر
عانقته سحرا وغبت هوى	فكأنه لى بالعناق سحر

نعم نلمس في هذا الغزل ألوانا من الحلية اللفظية كالجناس الناقص بين صبا وصبر ، وصبوت وصبرت ،  
وغزاه وغزاله ، والطباق بين وفى وغدر . ونهى وأمر ، ولكن هذا الجمال اللفظي لا يغض من لطفة العاطفة ،  
وشوق الحب خاصة إذا أدر كنا أن الجناس الناقص لا يدعو إلى التأمل الفكرى ، ولا يستوجب جهدا عقليا ،  
وكذا الطباق فإنه من قبيل الحسن اللفظي الذى لا يتخفى شيئا من سمو العاطفة إذ أن الضد أعرف بالضد ، وله  
أيضا قوله :

فرطت فيك بسوء تدبىرى فجبرى القضاء بعكس تقادىرى

وفيهما يقول :

القلب بعدك غير مسرور	والربع بعدك غير معمر
والشمس فى عيني قد خلعت	من بعد بعدك خلعة النور
والعيش بعدك مظلم حرج	فكأننا هو قلب مهجور
والجناس المشهور رونقه	قد صار بعدك غير مشهور
ولقد بكيت ونحت من حزنى	بغريب منظومى ومنشورى
وشكرت طيفك حين يطرقتنى	فعلمت أنى أى مغرور
ضيعت منك الحق متضحما	ورجعت أقنع منك بالزور

الشاعر لا يمكن أن يتجرد من عاطفته ويعيش بعقله فقط . نعم قد تسوقه العاطفة للتعبير عنها ويقوده العقل والتأمل إلى أن يمزج بين فكره وعاطفته مزجا جميلا ، وهو ما حدث من الشاعر ، أما أن يتجرد تجردا تاما من عاطفته ويخلعها ولا يستجيب لها فهذا ما يأباه المنطق ، وقد يكون غزله في معظمه ماديا يميل إلى العناق والضم ويصرح بالقبل وتغريه محاسن المحبوبة الجسدية ، فيفتنه قوامها ويضل في ليل حالك مسدل خلف ظهرها ، وبغير ذلك من المحاسن المادية الصرفة .... ولكنى مع ذلك لا أستطيع أن أجرده من العاطفة الصادقة لدى الحب بل إن في ذلك تعبيرا صادقا عن مشاعر الحب .. فأى محب لا يتمنى أن يحظى من محبوبته بالعناق والقبل والضم ، وحتى إذا لم يتحقق ذلك له في عالم الحقيقة فلماذا لا تدفعه عاطفته أن يحققه في عالم الخيال إرواء لعاطفته الملتهية ، فهذه هي نظرتي إلى الحب ، ولا يمكن أن نقض اتجاهها باتجاه آخر ، كما لا يمكن أن نسلك المحبين جميعا في قلادة واحدة ما دامت العواطف الإنسانية فيها هذا وذاك .

وليس معنى هذا أن كل شعره في الغزل كان استجابة للعاطفة لأن كثيرا منه قد استجاب فيه الشاعر للصنعة المطلقة كما صرح هو بذلك كغزله بشائب وكطالع قصائده في المدح فكل ما في ذهن الشاعر عادة يكون منصرفا إلى عظمة المدوح ، واستجلاء المعاني التي يحاول أن يخلعها عليه .

### (٣) ثالث الاتجاهات : غزل هاجن وتهتك سافر :

وقد كثر هذا اللون في شعر هذا العصر لانتشار الشذوذ الجنسي ، حتى أصبح اللون المفضل الذي يجذب أنظار القارئ ، تهفو له أسماعهم ، وتطرب لترديده أفئدتهم ويمكن أن نرجع أسباب ذلك إلى ما يأتي :

١ - كثرة الحروب الصليبية ، شغلت الرجال عن الزواج وصرفتهم عن الاستقرار الذي يدفع إلى تكوين الأسرة ، وكان الأكراد والأتراك يمثلون العنصر الأساسي في هذه الحروب ، وقد وجدوا في الشذوذ الجنسي تنفيسا أغريزتهم .

٢ - كثرة وجود الغلمان من الترك والأكراد والفرنجة (سبي الحروب الصليبية) وقد امتازوا بجمال مفرط مما دفع الشعراء إلى التغزل بهم .

ومع أن الغزل بالمذكر يرجع إلى عصر أبي نواس إلا أن الشعراء الذين قالوا في هذا الباب كانوا من عرفوا بالخلاعة والمجون ، أما في عصر الحروب الصليبية فقد رأينا رجالا عرفوا بالتقوى والورع يكثر من الغزل بالمذكر ، ويفحشون في ذلك إفحاشا كبيرا .

٣ - انتشار الزوايا والتكايا شجع الناس على البطالة ، فلم يكن لديهم من وسائل العيش ما يمكنهم من الزواج إذ أصابهم الكسل والحمول ، ورضوا بأن يعيشوا عالة على المجتمع ، فتفتش فيهم الشذوذ الجنسي حتى تعرضوا بسببه لكثير من الحملات الشديدة من كتاب كثيرين . ولم يتردد أكثر الشعراء تقوى وورعا عن الغزل في المذكر ترويجا لشعره ، فترى ابن الوردي نفسه يقول :

ما المرد أكبر همى      ولا نهاية علمى  
ولست من قوم لوط      حاشا تقاى وحلمى  
وإنما خرج دهرى      كذا فنفتت شعرى

فهكذا كان خرج دهره ، وكانت رغبتهم واتجاهاتهم . ويقول فيما بعد :  
استغفر الله من شعر تقدم لي في المرد قصدى به ترويح أشعاري

وكان ابن سناء واحدا من شعراء عصره ، استهتر كما استهتروا ، ومجن كما مجنوا فتغزل بالذكر ، وتغزل بعمياء ، وتغزل بشائب ، وتغزل برومى أعجمى .

ويبلغ في مجونه غاية التهلكة والفجور فيتحدث عن اثنين عاشر كل منهما الآخر ويصف ليلة قضائها في بيت الخنا والفجور فيتحدث عن العملية الجنسية وعن أعضاء الذكر والأنثى ، ومن يقرأ مجونه واستهتاره يشم رائحة العصر الذى سادت فيه المابذل وكثرت فيه الانحرافات الجنسية فمثل هذا حين يصدر من ابن سناء الملك الذى كان يحتل مركزا مرموقا يطمح إليه الكثيرون — لذو دلالة واضحة في عدم التخرج عن قول وفعل مثل هذه الأفعال المشينة ، استمع لايه يدعو إلى عدم وصل المرد :

إن وصل المرد مردى وهو لا ينفق عنى  
علة في العلق والعلة في الأكثر تعلى  
هات من ينقض قولى باعتراض أو بررد

ثم ينقض هو رأيه ، فيتغزل في المرد ، ويهيم بصبي صغير القد :

وصغير القد همت به تم فيه الحسن في الصغير  
قد علا بدر السماء وإن كان دون البدر في العمر  
خده مع ماء رونقه مجذب من خضرة الشعر

ولا يقف عند حد الصبي ، وإنما يتغزل في شائب :

قالوا لقد شاب الحبيب وشاب فيه كل عزم  
وأراك تظلم في هواه النفس ظلما أى ظلم  
فقلت من شرهى عليه أذوقه في كل طعم

ويعجب برومى فيقول :

نال فمى من ذلك الريم مثل اسمه لكن بترخيم  
له فم ضاق فلم يستطع أن يخرج اللفظ بتقويم  
له فم للترك يعزى وإن أصبح مولاه من الروم  
ولفظه ساكران من ريقه فهو لهذا غير مفهوم  
ما نعه ميم ولكننه علامة الحزم على الميم

وتنزل في عياء :

إن الكمال أصاب في محبوبتي      لا أصاب بعينه عينيها  
زادت حلاوتها فصرت تحالفا      وسنى وقد كسر الكرى جفنيها  
وكذا علمت وللدبيب حلاوة      فكأنني أبدا أدب عليها  
ولئن عدمت السكر من الحلاظها      فلقد وجدت السكر في شفتيها

ولم يقف عند هذا الحد فقد صرح كثيرا بما يستتبع ذكره ، وديوانه ذو حظ عظيم من المجون والاستهتار فلا داعي لذكر نماذج منه ، وقد سبق في الفصل السابق أن أشرت إلى أنه تحدث تعابفا على غزله بشائب في « فصوص الفصول » أنه إنما عمله تدريبا لنفسه حتى يتمكن من القول في كل غرض .

وبعد فلعل أن أكون قد أوضحت هذا الغرض ، وبينت تفصيلا الاتجاهات الأدبية في غزله ، ومن ثم فلا يصح أن نطلق حكما عاما شاملا ففيه حيف وجور .

## ٣ - الرثاء

الرثاء في المنزلة الثالثة بعد المدح والغزل من ناحية الكم ؛ فقد بلغت قصائده في الديوان ثلاثاً وعشرين قصيدة في ثلاث وثلاثين وستة بيت . أما من الناحية الفنية ومقدار تجويد الشاعر فيه ، وتعبيره عن واقعه النفسي ، أو واقعه الفكري وأثر الصنعة والطبع فهذا ما يمكن أن نصل إليه بعد استعراضنا لمأذجة القصائد في الرثاء .

وينبغي أن نشير إلى أن قصائده في الرثاء قد وزعها بين أهله كإبيه وأمه وجدته ، وبعض أقاربه من جهة ، وبين أصدقائه الذين لم تربط بينه وبينهم المطامع والأهواء كعفيف التلمساني ، والسيد شريف أبي القاسم عبدالرحمن الحلبي ، والشريف السعيد أبي الحسن على الحسيني ، وصديقه وثاب ، وبين جاريته التي أحبها من أعماقه وبذل النفس والنفيس لإنقاذها من مخالب الموت من جهة أخرى . كما أن بعض هذه القصائد كان عزاء وبجاملة ، كعزائه الأسعد بن ممان بنفقد أمه .

فرثى أمه ووالده وجدته بأربع قصائد ، ورثى جماعة من أهله بقصيدتين ، ورثى جاريته - بثلاث قصائد ، ومما يؤسف له أشد أسف أنه نسي أو تنامى أستاذه وصاحب اليد الطولى عليه القاضي الفاضل فتتكر له ولم يرثه ، كما لم يرث صلاح الدين ، أما تنكره للقاضي الفاضل فلأنه كان يخشى نفوذ الوزير ابن شكر الذي كان شديد العداوة والحقده على القاضي الفاضل ، وكان ابن سناء يتورده ويرجو أن يتخذه معبراً لتحقيق أهدافه فلم يشأ أن يغضبه أو أن يثير حفيظته ولكن الحبر حقاً أنه لم يرث صلاح الدين الذي رثاه الشعراء جميعاً ، وبكوه بقصائدهم وبدموعهم ، ولذا أرجح أن تكون قصائده في رثاء صلاح الدين وأستاذه القاضي الفاضل - إن كان رثاهما - قد فقدت وضاعت .

وتتمثل حرارة العاطفة ، وألم الفجيعة ، وشدة المصيبة ، في رثاء أمه وإن لم ينس الصنعة التي أصبحت ملازمة له في كل شعره فقال في قصيدته الحمزية التي مطلعها :

صبح من دهرنا وفاء الحياء      فليطل منكما بكاء الوفاء

ويستجيب للخطب الأدهم فينطلق على سجيته قائلاً :

قد رماني الزمان منه بخطب      أنحمت عنه ألسن الخطباء

ويقدم من امرئ القيس تلك الصورة التي يرى فيها الموم والأحزان نجم عليه كفافلة وتستقر في أحشائه وتأنب ألا تتركه حتى يموت :

وأناخت ركائب المم في قل      بي ولم تحشم لطلول اشواء  
ثم آلت ألا تفارق ربي      وفنائى إلا عقيب فنائى  
صادفت منهلاً يصيب من العي      من وناراً تشب في الأحشاء

ثم يذكر فضلها في عالم النساء ومنزلتها ، ويثب بها فيقول :

قد تيقنت مذ غدت لي أصلاً      أننى مثمر فنون العلاء  
يعذر الناس من تكون له      أما إذا ما ازدهى على الآباء

ويرون الصواب أن تنسب الأول      لاد لا لرجال بل للنساء  
وفي قصيدة أخرى يزوره طيقها فيحل عليه الهم من كل جانب ، وتقل آماله في الدنيا ، ويود اللحاق بها فيقول :  
مالى أنهنه عنك آمالى      وأصد عنك كأنى قـالى  
ثم يقول :

يا من رأيت بعين أحوالى      لما نأت إدبار إقبالى  
ورأيت قطعى صار متصلا      مذ قطعت بالبين أوصالى  
والله لو حدثت عن خبرى      لعلمت أنى بعدك التالى  
ويرثى أباه في لهفة عارمة كما رثى أمه فيقول :  
أيا دار فى جنات عدن له دار      ويا جار إن الله فيها له جار  
وهى قصيدة بلغ فيها الذروة لأنها عصارة نفس ، وذوب فؤاد ، وحرقة فى الضلوع ، تندفق فيها عاطفة  
البنوة المفجوعة ، على الأبوة الحانية :

سأبكى أبى بل ألبس الدمع بعده      وإنى لذيل الدمع فيه لجرار  
وإن فئت من ناظرى فيه أدمع      لما فئت من مقولى فيه أشعار  
لعل بعد الموت ألقاه شافعا      إذا أثقلتني فى القيامة أوزار  
وقد بلغت هذه القصيدة تسعة وستين بيتا ، وكثير من أبياتها فرائد نفيسة .  
ورثى جاريته فى أوة وحرقة ، وكان بها صبأ مفتونا فلم يفته أن يصرح بذلك وقد دافع عنها الموت بالطب  
ولكن قضاء الله لا يقف أمامه طب ، ولا يؤخر زحفه دواء .

ودافعت عنك الموت بالطب جاهداً      وذا غلط هل يدفع الموت بالطب  
وقد زارتها الحمى ودخلت عايبها حماها كما زارت المتنبي غير أنه فلت منها ، أما هى فقضت عليها .  
وحماك غاثت فى حماك وأدخلت      عليك الضنى حتى أباحتها للنهب  
وزارتك غبا كى يحب مزارها      ويا جهلها بالموت فى ذلك الغب  
وأظهر لوعته وحرقة وحزنه فى قوله :

وما أنا ممن شق ثوباً وأنه      لفعل خلى "عن تفعله ينسبى  
نعم كبدي والقلب منى شققا      عليك أسى هذا شعانى وذا خلبي  
ورمت نهوضاً إذ عثرت فلم أقم      على قدمي لكن سقطت على جنبي  
فيا مهجتي ذوبى ويا دمعتي اسكبى      ويا كبدي شئى ويا لوعتي شبي  
ولم أبق منى العين إلا لأنها      تريخ ثراك الحر من منة السحب

وحين عزى الأسعد بن ممانى بأمه وكانت مسيحية لم تظهر لوعته ، ولا شدة أساه لأنه تزيا بزي الحكماء ،  
فكان مقلداً لصحا مذكراً بالدهر وتصاريفه ، والأيام وأفاعيلها وعلل لشدة الحزن مع اختلاف الدين أن النبي  
عليه السلام بكى عمه ولم يكن قط على دينه ، واستمع إلى بعض ما قاله فيها :



ما أختن الدهر على لينه      وأحصد المرء بتلوينه  
ينقل الإنسان من عزه      أسرع ما كان إلى دونه  
ويفجأ المرء بتحريكه      أوثق ما كان بتسكينه

إلى أن يقول :

ولا تلم دمعك في سكب      فإنه وافاك في حينه  
فسيد الخلق بكى عمه      ولم يكن قط على دينه

ومن استعراضنا مراثيه نستطيع أن نحكم أنها في مجموعها صورة صادقة لأحاسيسه ومشاعره ، وأنه ينقل إلينا لوحة نفسه في رثاء والده وجده وأمه ، وسخطه على الزمن وتبصيره بفعل الأيام ونوبها ، والاستسلام للمقادير والحزن التقليدي حين يكون الرثاء في شخص آخر .

والسؤال الهام بعد معرفتنا للشخصيات التي رثاها ، واختلاف طبيعتها ومزلتها بالنسبة لمشاعره هو : هل كان فيه متساوفاً ومنسجماً مع ما تقتضيه طبيعة الرثاء في تلك الشخصيات ؟ وبمعنى آخر : هل كان يصدر عن نفسه وعاطفته ومشاعره أو كان التيار الفكري هو الغالب ؟

إننا نتوقع أن يكون دافع الحزن وحده هو الذي أملى عليه رثاء أقاربه الأذنين ، وأن مشاعره وعواطفه هي نبعه الوحيد الذي استقى منه أفكاره وتعبيراته ، وأن الحزن والأسى قد انعكسا في تجربته التي اتخذت تلك القوالب الفنية لها إطاراً .. فتحدث في نفوسنا أثراً مشابهاً ، فنحزن كما حزن ، ونتألم كما تألم لأن الأسى يبعث الأسى ، وإذا تجاوزنا أثر الصنعة والافتنان العقلي ، والتوليد الذهني في عزائه الأسعد بن ممتى أو غيره ، فإن ذلك لا يغيض من شعره في رثاء أقاربه الأذنين ، فلم يطغ فيه أثر العقل على أثر الشعور ، ولا فيض الذهن على نبضات القلب ولوعة الأسى والحزن .

ولننضم إلى قصائده وجهاً لوجه :

قال في رثاء أمه في قصيدته التي مطلعها :

صبح من دهرنا وفاة الحياء      فليطل منكما بكاء الوفاء  
والقصيدة طويلة تبلغ تسعة وستين بيتاً . وفي هذه القصيدة يضيق صدره ولا ينطلق لسانه فيقول :

أنت عندي أجل من كل تأبين      ولو صغت بالثرىا رثائي  
في ضميري ما ليس يبرز شعري      لا ولو كنت أشعر الشعراء

ثم يخاطب القبر ويناجيه فيقول :

وإذا ما دعوت قبرك شوقاً      فبحقّي ألا تجيبي نلدائي  
هل درى القبر ما حواه وما أخ      فاه من ذلك السنّ والسناء  
فلكم شف باهر النور منه      فرأيت الإغضاء في إغضائي  
فاحتفظ أيها الضريح ببدر      صرت من أجله كمثل السماء  
وترفق به فإنك تسدى      منة جمّة إلى العلياء

أنت عندي لما حوت من الطه  
ر يحاكك مسجد بقاء  
لك حمي وهمجتي ومن في  
ك ثنائي ومدحتي ودعائي

الجنة تحت أقدام الأمهات :

اذكرني يوم القيامة يا أمــــــــــــــــم انلا أعد في الأشقياء  
 واشفع لي فجنتي تحت أقداسك  
 مك من غير شبهة وامــــتراء  
 بقدومي عليك وفد الهناء  
 ففريب لاشك يأتيك عني  
 إنها في الزمان أعظم دائي  
 عجل الله راحتي من حياتي  
 وإذا ما الحساة كانت كمثل الداء  
 ء كان الممات مثل الدواء

ونحنس من قراءة المطلع أن الشاعر قد التزم في روابط جملة « المنطق النحوى » فصارت راکدة مستویة الأَطراف ، خلوا من الحركة ومن الاهتزاز الذى يهب الشعر جماله وحيويته فكرر المضاف والمضاف إليه ثلاث مرات متوالية : « وفاة الحياء – بكاء الوفاء – وكاء البكاء هو الذى أحدث هذا الركود ، وتكرار « منكما » فى قوله : « فليطل منكما » وقوله فيما بعد : « ليست العين منكما لى بعين ... » تدل على افتقاره لحسن التصرف فى تراكيبه فخرجتنا كالحشو الذى يكمل به الوزن .. وهذا المنطق النحوى هو سر الركاکة والضعف فى معظم الشعر بصرف النظر عن الأخطاء اللغوية أو الصرفية أو الإعرابية وقد جاء هذا المنطق الشعراء من أن اللغة ليست سلیقة لديهم، وجاءهم من طول ما ألفوه من قراءة النثر فى العلوم الدينية واللغوية وغيرها التى كان معظمها مختصرات مركزة ذات شروح ، وقد انتقل هذا الأسلوب إلى الشعر ؛ لأن أكثر الشعراء كانوا ممن انتظموا فى سلك هذه الدراسات وتخرجوا فيها ، وهذا أسلوب يفقد الشعر الحزالة والقوة (١) .

فقصيدة ابن سناء هذه تفتقر من ناحية التركيب واللغة إلى الطرافة والمفاجأة ، على أن حيوية الأسلوب ليست بمعزل عن حيوية الأفكار والمعاني وما وراءهما من انفعال عاطفي ، فالتفاعل قائم بين الجانبين ، وقد زاد الشاعر أبياته ركوداً ومواتاً حين خذله طبعه ، وجره تقليده إلى أن ينتهي في مطلع قصيدته هذه الصور التي استخدمها الشعراء في الوقوف على الأطلال ، فتوجيه الخطاب في تلك الأبيات إلى رفيقين يسألهما البكاء ، ويستحثهما عليه ، ويقرر عليها أن الوفاء منهما لا يكون إلا بهذه المشاركة — كل هذه أفكار تقليدية نقلها الشاعر من باب إلى باب آخر فأساء ولم يحسن ، لأنه أضعف من شأن عاطفة الحزن بوفاء أعز الناس عليه ، وقرنها بعاطفة البكاء على الظلل الذي داعبه فراق الرحلة لا فراق الموت (٢).

وكان الشاعر قد أحس بهذا الإحساس وأن العبارات والكلمات تتخلله ، وتتأني عليه فعبّر عن الإبانة عما في نفسه ، فنهض مصرحاً بذلك :

أنت عندي أجل من كل تأييد  
في ضمري ما ليس يبرز شعري

ن ولو صغت بالثرى رائى  
لا ولو كنت أشعر الشعراء

ولا نملك إلا أن نوافق على هذا الاعتراف بالعجز والتصور ... وكلما مضينا في القصيدة التمسنا أدلة جديدة

( ١ ) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) المصدر السابق ٤٣ .

على هذا العجز . فلقد خذله طبعه وجره تقليده كذلك إلى أن يختار من الكلمات والعبارات ما يقلل من جو الأسمى والحزن ، ولوعة الفراق ، فيردد كلمات مثل : « شوقا - والسنى والسناء - شف باهر النور منه - بدر - السماء » فكلمة « شوقا » أضعفت من معنى الحزن لأنها مما يحسن في الشوق أو الغزل ، وكان الأنسب أن يستعمل مكانها كلمة « لوعة » أو أسى أو وجدا أو نحو ذلك ، وفي آخر البيت يقول : « فبحق ألا تحبى ندائى » ، وهذا لا يستقيم مع أوله فكيف يطلب منها إذا دعاها ألا تحبى .. إن المرء في هذا الموقف يتمنى المستحيل فيتمنى أن ترد عليه وألا تحبى ندائه .. وأنا أرجح أن تكون العبارة : « ألا تحبى ندائى » بالخاء لا بالجيم وأن هذا تحريف .

والبيت الثانى فيه حشو في كلمة « وما أخفاه » ، فقد جمع بين « حوى وأخفى » دون أن يستتبع ذلك زيادة في المعنى . وختام البيت « بالسنى والسناء » أى بالضياء واللمعان ، وهذا مما لا يحسن في هذا الباب ولو قصد الضياء المعنوى ، فهذه الكلمات أليق في المدح والغزل منها في الرثاء وكان الأنسب في « الطهر والوفاء » وهما صفتان لازمتان للحياة الأخرى أما الأوليان فهما أليق في المدح في الحياة الدنيا .

وفي البيت الثالث توليد ذهني لانه لما ذكر السنى والسناء ، أو حى إليه ذلك بإشعاع الضوء الساطع الذى يشف من القبر . وفي آخر البيت « فرأيت الإغضاء في إغضائى » فعن أى شىء أغضى وانصرف ؟ وما الذى استوجب إغضاء ؟ إن أول البيت لا يستدعى آخره ، وآخره لا يتوقف على أوله ، والمجانسة بين اللفظتين باردة .

وفي البيت الرابع : « فاحتفظ أيها الضريح ببدر » فهل يليق به أن يتحدث عن جمال أمه ، وأنها كالبدر الساطع في السماء ، إنه يداوم النقل من باب الغزل والمدح إلى باب الرثاء .

أما الأبيات الثلاثة التالية من قوله : « وترفق به فإنك تهدى .. الخ فلإنها تحمل في صدق عواطفه وأحاسيسه ، وهى جميلة رائعة غير أنه تكلف في الإتيان بتلك الكلمة « قباء » لإتمام الوزن ، وقد أرغمته القافية على استعمال هذا اللفظ الذى لا يتصل بما قبله ، ولا يوحى به أول الكلام .

وفي تقسيم البيت الأخير من هذا المقطع شحنة عاطفية جميلة بلغ بها الذروة ، حيث مثل هدوء العاطفة المضطربة في حناياه ، والاستسلام للقضاء والقدر ، وليس عليه ألا أن يجعل إلى هذا القبر حجه وهجرته ، ويجعل لمن فيه ثناء ومدحه ودعاه .

وإذا ما انتقلنا إلى المقطع الأخير وهو مكون من خمسة أبيات يجمع بينها فكرة واحدة ، وهى مناجاة أمه ، وجدنا مطلع هذه الأبيات نجوى رقيقة تنبعث من كلمة « اذكرينى يا أم » ثم جعل ذكرها منجياً له من الشقاء والهلاك وهذا تعبير يوحى بما يصادفه المرء في حياته من شعور بالشقاء والألم إذا ما أحس أن قلب أمه غاضب عليه . وجعل شفاعته مقبولة فكما تنجى شفاعته النبي يوم القيامة أمته من النار فكذلك تكون شفاعته أمه له يوم القيامة ، وهذا يوحى بعظم منزلتها عند الله وتقواها حتى لتقبل منها الشفاعته ، وقد ضمن هذا معنى قول الرسول عليه السلام : « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

وفي البيت الرابع : « عجل الله راحتى من حياتى » عاطفة الضيق واليأس بالحياة التى خلت بوفاة أمه من مصدر البهجة والسعادة ، فما فائدة بقاءه بعدها .. فلذا دعا الله أن يعجل منيته ، ويقصر أجله ، وهو تعبير يحمل شحنة نفسية كلها فزع وضيق وحزن عميق .. وهذه الأبيات يصدر عنها نغمة حزينة تشبه رنة الأسى التى تنبعث من القصيدة التى رثت بها عائشة التيمورية ابنتها ...

وقد ختم الأبيات بحكمة صادقة يستوجبها المقام :

وإذا ما الحياة كانت كمثل الداء      كان الممات مثل الدواء

وعلى الرغم من أنها تحمل معنى عادياً مألوفاً إلا أنه في واقعه تجربة إنسانية صادقة ما زلنا نرده حتى يومنا هذا ، ويجرى على ألسنة العامة فيقولون « حياة فلان داء وموته دواء » .

وبعد فمن دراسة هذه القصيدة نرى أن الشاعر قد حالفه التوفيق في آخرها حين ترك نفسه تنساب على سجيتها وطبيعتها في نداء أمه .

وقد خالفه وتأبى عليه في أولها فاستجاب للتراكيب النحوية العقيمة ، وخلط بين مقتضيات الوقوف على الأطلال ، والبكاء على القبور ، وبين ما يقتضيه المدح والغزل من كلمات وعبارات ، وبين ما يستدعيه البكاء من كلمات ينبعث منها الأسى وجو الحزن وعلينا أن نستعرض قصيدة أخرى .

قال يرثي جده ، وكان هو مريضاً :

خانت جفوني لما لم تفض بسدم      لكن وفي الجسم لما فاض بالسقم  
وما بكى الطرف منى وحده ألماً      لكن بكاك جميع الجسم بالألم

وقد بلغت هذه القصيدة تسعة وثلاثين بيتاً ، ابتدأها بهذا الحزن التقليدي الذي اعتاده الشعراء ، فقد ألقوا أن يطلبوا إلى عيونهم أن تبكي بدل الدمع دماً ، غير أنه جدد في التعبير حين عد ذلك الإباء من العين خيانة ، وأحسن التعليل لألم جسمه ومرضه ، إذ جعله وفاء لداعي الحزن والأسى ، وقد أوضح المعنى في البيت الثاني وفردّه فجعل العين تبكي . ويكفي معها كل ثغرة من ثغرات جسمه ولكن بالألم والووعة ، والمقابلة بين « خانت ووفى » مقابلة طبيعية .

والواقع أن الشاعر استطاع أن يغمرنا بجو الحزن من بداية القصيدة ، وأوحى إلينا بفراط المصيبة ، وهول التجربة التي عاناها ، ويؤكد ذلك حين يقص علينا أن أمه ومرضه ، لم يمنعه - برغم شدتها - من الخروج خلفه لتشييع جنازته ، فخرج محمولا في إثر محمول :

خرجت خلفك محمولا كما خرجوا      بحسبك الطهر محمولا على القمم

وحدثنا عن حزنه الذي ورثه إياه جده ، لأنه ابن الابن ، وابن الابن يرث شرعاً عند فقد الأب ، إلا أنه في الحزن هنالم بحجبه والده بل وجد نفسه أحق بالحزن وأجدر وقد بلغ به الشقاء حداً لم يألفه من قبل بينما سينعم جده بنعيم الفردوس ، ولذا ناداه مؤكداً له هذا المقر الجديد في الجنة المزخرفة بالنور مبيّناً له أنه يعيش ما بقي من حياته في ظلام الأحزان ، ويطلب منه ألا ينسى ذوى رحمه في الجنة ، كما كان لا ينساهم في الدنيا ، ثم يصفى عليه من الصفات ما يليق بجلال الآخرة من إخلاصه لله وانشغاله به ، وعبادته وصلاته وطهره حتى انحنى ظهره من الركوع والسجود . استمع إليه يقول :

يا حسرتي إذ رآني راكباً لهم      وما مشيت على رأسي ولا قدمي  
قد حزت حزنك ميراثاً فكنت به      أولى وأحرى من الأولاد كلهم  
تركتني لشقاء لست أعرفه      وأنت من جنة الفردوس في نعم  
يا ساكناً بين جنات مزخرفة      بالنور إني من الأحزان في الظلم

لم تنس في جنة الفردوس ذكرهم      وأنت ما زلت لاتنسى ذوى الرحم  
وقد حفظت عليهم عادة لهم      حاشا لملك ينسى عادة السكرم  
لقيت ربك مشغولاً برؤيته      فما التفت إلى حور ولا خدم  
خمسا وتسعين تسعى في عبادته      لم تشك من ملل فيها ولا سأم  
وقد انحنى الظهر وانهدت قوائمه      من الركوع لإيه لا من المـرم

لا شك في أن الأفكار والمعاني التي عرضها من فجيعة وأسى ، وحزن موروث ، وتنعم جده في الجنة ، والصفات التي وصفه بها من صلته الرحم ، وانشغاله بالله ، وقضائه خمسة وتسعين عاما في عبادته ، والحناء ظهره من الركوع والسجود .. الخ .. هذه كلها من اوازم الرثاء ومقتضياته ، لم يشذ ولم يخرج من باب الرثاء إلى غيره من الأغراض .

وقد اهدى بفطرته إلى الألفاظ والعبارات التي تحمل شحنة عاطفية حزينة ، وتتلاءم مع هذه المعاني والأفكار فأحسن وصفها وسبكها ، وحين نستعرض تلك الكلمات : « يا حسرتى - قد حزت حزنا - تركتني لشقاء - إني من الأحزان في الظلم » ، هذه العبارات لو نثرت واستعملت في الرثاء لم تفقد شيئاً من معناها وإيجاءاتها الحزينة . وفي وصفه يقول : « أنت لا تنسى ذوى الرحم - حاشا لملك ينسى الكرم لقد انشغلت برؤية ربك - عبت ربك خمسا وتسعين سنة - انحنى الظهر من العبادة » ، فهذه الصفات من أخص مستلزمات الميت ، ولو كانت منشورة لو هبت النثر لون الوقار والأسى الذى يستدعيه الحال .

والحقيقة أن شاعرية ابن سناء هنا قاربت الكمال ؛ فطاوعت العبارات في بناء تلك التجربة ذات الوحدة الفنية الحزينة ، وقد استطاعت أن تنقل إلينا إحساسه في صدق .

وأما ما اشتملت عليه القصيدة من أثر الصنعة فلم يكن فيه إسراف ولا مبالغة تسيء إلى القصيدة ، وقد نقل الشاعر تجربة الموت من حدث فردي ، وإحساس ذاتي إلى تجربة إنسانية عامة ، فذكر الناس بالموت ، وخوفهم من الآخرة ، وأرشدهم إلى طريق الجنة في حكم مستقاة من القرآن الكريم ، وتعاليم الدين :

من لم يقدم كما قدمت من عمل      فسوف يأكل كفيه من الندم  
وسوف يدرى إذا ما الموت أيقظه      بأنه كان من دنياه في حلم  
لا تحسبوا كل ميت مثل ميتنا      هيئات هيئات والموتى ذوو قيم

فالبيت الأول يتضمن معنى قوله تعالى : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً » والشرط الثانى منه يتضمن معنى قوله تعالى :

« ويوم بعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا » .

بقى أن نشير إلى أن تعبيره بقوله : « راكمها لهم » .. يا حسرتى إذ رأيت راكمها لهم » هذه الكلمة لا توحى بمرضه وبألمه الجسمي ، إذ أنه يركب الناس ورمما كان ذلك باختياره ، وأحسن منها محمولاً إلى ذكرها في البيت السابق . وفي رثاء أصدقائه يكون هادئ النفس رزيناً ، يسيطر عقله على إحساسه ؛ وتفكيره على شعوره . وتشغله أناقة اللفظ وتكلف الصنعة عن لوعة الحزن وفجيعة المصاب ؛ فلقد مات صديق له يسمى عفيف فأوحى إليه هذا الاسم باستعمال كلمات تجانسها فعاف عيشه . والعفاء على هذا العيش من بعده ..

لقد عفت عيشي بعد العفيف      على العيش بعد العفيف العفاء  
فما غاب ما غاب إلا الجميل      وما مات ما مات إلا الوفاء  
وإلا الصديق وإلا الصدوق      وإلا الصنى وإلا الصفاء  
حبيب قريب به يلهي      وتنسى الأحباء والأقرباء  
يقرب إن بعد الأقربون      ويشكر إن ذمت الأصدقاء  
فنعمة الأسف أبرز وأظهر من نعمة الأسى والحزن .

وفى رثاء جاريته تحس باللوعة والحرقه ، واستعذاب الألم :

خيالك لا يبلى وشخصك بال      ومثلى من لا يلهي بمثال  
وإن كنت فى جنات عدن فرمما      حزنت لبعدى لو علمت بحالى  
على الرغم منى ذا السلو وإنها      على رغمها ألا تجيب سؤالى  
سكونك عن رد الجواب تعمدنا      لمى لسان أم لقرط دلال

وعندما يعزى الأسعد بن مازن فى وفاة أمه يسيطر على قصيدته جو المواساة والدعوة إلى الصبر والسلوان ، ولا يعكس لنا إلا مشاعر عامة إزاء هذا المصائب ، فكأنه يقف متفرجا من بعيد ؛ ولهذا لا يحدثنا عن أحاسيسه ومشاعره ، وإنما يتحدث عن الدهر وخشونته ، وخديعة المرء به ، وانتقال الإنسان من العز إلى الذل ، ومفاجأة الدهر إلى غير ذلك فى صياغة محكمة ، وحكم صادقة ، ويكون واعظاً أكثر منه راثياً حزينا ، استمع إليه :

ما أخشن الدهر على لينه      وأخدع المرء بتلوينه  
ينقل الإنسان من عزه      أسرع ما كان إلى هوننه  
ويفجأ المرء بتحريكه      أوثق ما كان بتسكينه  
ولا يساوى بعض تقبيحه      إلى البرايا كل تحسينه

ولا يتحدث عن حزنه هو شخصياً وإنما يرى أن الناس جميعاً قد حزنوا لفقد أمه :

وكل قلب واجد بعده      كأنه فى عقد تسعينه (١)  
تمز أو قابل حفاظاً ولا      تستقبل الخطب وتهوينه  
ولا تلم دمعك فى سكبته      فإنه وافيك فى حينه

وبحسن التعليل يرى أن لا بأس بالبكاء على المتوفاة مع أنها على غير دين الإسلام لأن النبي عليه السلام بكى عمه ولم يكن على دينه :

فسيد الخلق بكى عمه      ولم يكن قط على دينه

بعد استعراض هذه النماذج المختلفة من رثائه ، والتي يتمثل فيها تعدد الاتجاهات والموضوعات ، نستطيع أن نصلى إلى خصائص هذا الفن على قدر استطاعتنا .

( ١ ) عقد تسعين : عقد الأنامل أن يضم الإبهام بأصل السبابة حتى لا يبق بينهما خلال ، وقد أراد فى هذا البيت أن القلب الواحد بعده معقد غير منفتح كما يكون عقد تسعين فى عقد الأنامل .

## خصائص الرثاء :

١ - يتجلى الحزن الحقيقي ، والأسى العميق في رثاء أقاربه الأذنين ، فيتجاوب فيه مع واقعه النفسى ، وإن خالفه التوفيق في التعبير أحياناً .

٢ - وحين يرثى أصدقاءه تحس بجو الأسف والحزن الفكرى الهادئ الرزين .

٣ - كما ينبعث من العزاء جو المواساة ، والتصبر والسلوان ، وهو يخالف حتماً لجو الحزن والأسى .

٤ - يختلف معجمه اللغوى باختلاف المراثى ، ففي رثاء أقربائه ألفاظ حزينة ، وعبارات باكية صادرة عن قلب باك حزين ، وفي رثاء أصدقائه ألفاظ رزينة ، وعبارات هادئة صادرة عن عقل وتأمل ، وفي رثاء جاريته ألفاظ وعبارات ملتناعة ، فيها الحرقه واستعذاب الألم ، وفي العزاء ألفاظ السلوان ، وعبارات التصبر والعظات تجاوباً مع ما توحيه الجبالة .

٥ - ينعكس على أسلوبه أثر الثقافة والقراءة ، كما تجلّى في رثاء أمه حين استبد به بكاء الأطلال والدمع فتأثر بقول الأقدمين كقول امرئ القيس :

فما نبك من ذكرى حبيب ومثل بسقط اللوى بين الدخول فحومل  
حيث أخذ منه مخاطبة الاثنين فقال :

صح من دهرنا وفاة الحياء فليطل منكما بكاء الوفاء  
كما انعكس على المعنى والأفكار فاستمد قوله :

يعذر الناس من تكون له أمماً إذا ما ازدهى على الآباء  
ويرون الصواب أن تنسب الأولاد للرجال بل للنساء  
ن قول المتنبي في رثاء أم سيف الدولة :

ولو كان النساء كن فقدنا لفضلت النساء على الرجال (١)  
ومن قوله يرثى جدته لأمه :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد إكان أباك الضخم كونك لى أما (٢)

وقد بينت فيما مضى أن الثقافة النحوية والدينية قد أثرتا على شعره ، والأولى تميل به إلى الركافة ، والثانية تميل به إلى الحكمة والعظة .

٦ - ظهور الطباق والجناس في مراثيه بشكل ملحوظ يجعل الصنعة أحياناً ظاهرة منكلفة ، وبحول بينها وبين الصديق الفنى .

(١) الديوان : ٣٠٦ مطبعة هندية بالموسكى ١٩٢٣ .

(٢) الديوان : ١٣٦ مطبعة هندية بالموسكى ١٩٢٣ .

## ٤ - الهجاء

لم يعد النقاد قديهم وحديثهم « ابن سناء الملك » من شعراء الهجاء ، وذلك لمكانته الاجتماعية من ناحية ، وقلّة أهاجيه التي اشتعل عليها الديوان من ناحية أخرى .

وحقيقة لم تزد مقطعاته وقصائده عن ثلاث وثلاثين ، ولم تصل حدود المائتين من الأبيات غير أنني أرى أنه من الهجائين ، أو أن في مقدوره وفي استعدادة الخفي ما يجعله في عدادهم ، فلا ينقصه سلاطة اللسان وحدته ، ولا تعوزه القدرة على السخرية والاستهزاء ، كما أن له قدرة على النقد الاجتماعي اللاذع . وهو وإن لم يبلغ بأهاجيه مبلغ جرير والفرزدق ، ولا بتصويره الساخر ( الكاريكاتيري ) مبلغ ابن الرومي إلا أنه جاراهما . وعلى الرغم من تفاهة المعاني فإن طرافة التعبير أحياناً التي تدعو إلى قراءة الشعر وتكراره .

وقد رأى بعض النقاد أنه في هجوه أبلغ منه في مدحه وقد أشار إلى ذلك بقوله :

قواوا لمن قال إن هجوى	يفوق مدحى بلا امــــتراء
صدقت يا مانعاً ثوابي	منه ويا قاطعاً رجائى
كآبة الكذب في مدحى	ورونق الصدق في هجائى

وقد فازت شخصية ابن عثمان بأوفى نصيب من هجائه وسخريته ومجونه ، وبأقصى ما عرف من السباب . يقول من قصيدة مطلعها :

يامقبلاً أطربنا	حتى رقصنا للطرب
صفعت كلباً أعورا	هرّ وبالصفع هـرب

وفيهما يقول :

فيا ابن عثمان الحـرا	قد كسر الصقر الحرب
تقول جدى عربى	أصله حاشا العرب
قد نزل الصفع به	في داره وما اغترب
تراه إذ تبصر شخصا	سالحا قد اقترب
فبغضه من الحجا	ولعننه من القرب

فبالطبع ليس ثمة أقبح من هذا الشتم ، ولا أقذع من هذا السباب . ويبدو أنه كان مغیظاً محققاً منه حتى إنه تمنى ضربه بالنعال :

وكم له من وقعة	لم تبق منه باقيه
وما عليه قط من	صفع النعال واقيه
وهذه عاشرة	لا تحسبوها ثانية
لكنه جلف القـذا	ل وغليظ الحاشية



ويشند عليه مرة أخرى معرضاً بعرضه واستهائه به :

فما يبالي عرضه بكل هجو مروى  
ولا يبالي رأسه بضرب ألف دلو  
نريد من يزيل عنا وجهه ويزوى

وهو رسام هزلى يذكرنا بابن الرومي في رسم لنا صورة معبرة للحية ابن عمرو التي طالت وعرضت حتى أصبحت كمروحة الجيش :

عرضت لحية ابن عمرو كما طأ لت فحلقنا لها وسحقا وبعدا  
إنما أصبحت كمروحة الجيش — ش حكنها لونا وشكلا وبردا

ويستخدم حسن التعليل الذى يجيد استخدامه فى النيل من ابن عثمان الذى كان جده كذلك يسمى علياً ، فيرى أن تسميته بأسماء الخلفاء الراشدين لا يخيمه من الرجس ؛ فقد سرق أسماء الكرام ، وكثير من اليهود يسمون باسم سليمان ، ولا ينجيهم ذلك من الإثم ولا يرفع قدرهم عن الذم ؟

على وعثمان أبوه وجده على قوله — حاشا عليا وعثمانا  
فإن سرقوا اسما الكرام فربما رأينا يهودياً يسمى سليمانا

وهكذا نراه هجاء مرأ ، يفتن فى أهاجيه ، وتطاوعه شاعريته ويستجيب له طبعه فيقول من غير عمل ولا إجهاد . وفى هذه الأبيات دلالة واضحة على أن جده لم يكن يهودياً ويطن فى شرف شخص يسمى الرضى ، وأنه يقود على نفسه وعلى زوجته ، ويشبهه بالتيس الذى يستعير قرنين من نعجته فيقول :

فكان يقود على نفسه فصار يقود على زوجته  
وكيف يغار على عرسه ففى لا يغار على مهجته  
ولا بأس بالتيس أن يستعير قروناً على الرأس من نعجته  
فأشبعنا الله من هجوه وجوعنا الله من عجته

ويهمنا أن نشير هنا إلى خصائص هذا الغرض بعد تقديم هذه النماذج .

خصائصه ومميزاته :

١ - الهجاء عند ابن سناء لون من السباب والشتم الرخيص يشبه أحياناً ما يردده السفلة وأراذل القوم فى الأزقة والحوارى .

٢ - لا يعصمه خلاق ولا دين فيتناول الغرض والشرف كما فعل مع الرضى الذى جعله تيساً ورماء فى عرضه وشرفه .

٣ - يبلغ مبلغ ابن الرومي فى التصوير الساخر (الكاريكاتورى) فيصف ابن عثمان وقد قصر قذاله من كثرة الضرب عليه ، وترقب الصفع المستمر :

قصوره بالصفع أو ضموره فاعجبوا لاجتماع قصر وضموره

٤ - ويتخذ من هجائه وسيلة للنقد الاجتماعى ، فيذم بالبخل ويقول فى صديق له :

صديقي يرى التوفيق في البخل وحده      فمن ذاك يدعو نفسه بالموفق  
يود لو أن الدهر صيف مهجر      ليلبس فيه فرد ثوب ممزق

وفي النقد الاجتماعي ينقد من يزعم أن له خدما من الجن يسعون لخدمته بينما هو جالس ، ويجلس في مجلس  
الشراب ولا يشرب ، فيضايق الجماعة ويودون التخلص منه كقولہ :

يا قاعداً معنا ويز      عم أنه بالأنس يخدم  
والكأس دائرة تحي      بالتنفس والتبسم  
ويصد عنا أي باني      تائب وكذلك يزعم  
قل لي فما معنى قعو      دك عندنا ضيقت قم ، قم

هـ - ولعلك قد أحسست بسهولة موسيقى الوزن والقافية ، وبساطة الكلمات والعبارات ، وكثير منها نستعمله  
حتى يومنا هذا .

## هـ - الوصف

لم تتجاوز أبيات الوصف في ديوان ابن سناء الملك مائة بيت إلا قليلا ، ومع هذا فقد وصف البستان ، ووصف القصر ، والفرس ، والخنار والسوسن ، كما وصف الجرب الذي أصابه ، ومنظرته الجميلة ، ووصف قوما سكارى ، ووصف جارية صافية السواد . ولكن ما منزلة الوصف بالنسبة لأغراض شعره ؟ وما مدى تجويده فيه ؟ يرى الدكتور محمد زغلول سلام أن الوصف وشرب الخمر يأتیان في منزلة تالية للغزل في شعر ابن سناء (١) .

أما غيره من الأدباء الذين تعرضوا لترجمته فلم يذكروا شيئا عن وصفه لا من قريب ولا من بعيد . وأحب قبل أن أقرر حكما ما بالنسبة لهذا الغرض أن أتساءل : هل كان ابن سناء وصافا حقاً ؟ وهل جاء الوصف في الديوان غرضاً مستقلاً قائماً بنفسه ، وخصه بقصائد منفردة ؟ أم أنه جاء تابعاً لمدحه تارة ولغزله تارة أخرى ؟ وهل فتن ابن سناء بالطبيعة فتأججاها ، ومنحها حياة تحبنا ونحبها ، ونعطف عليها وتعطف علينا ، وتناجينا وتناجينا ؟

إن الشاعر قد يؤخذ بأحمر الطبيعة وبأبيضها ، وأصفرها وأخضرها ، ويفتن بما فيها من الزراكش والأفانين ، ثم لا يعدو بعد ذلك أن يمدح شيئا قد يجد مثله في ألوان الحلى وأصباغ الطنافس ونقوش الجدران ، وهو لا يعدو بذلك أن ينظر إلى دمية فاتنة يروقه منها وجه مليح وقوام ممشوق ، وحسن مفاض على الجوارح ، والأوصال ، ولكنه لا يتطلع منها إلى عطف ولا يفتش فيها عن طوية . وقد يستريح الشاعر إلى الطبيعة لأنها ظل ظليل ، وماء نعيم ، ومهاد وثير وهواء بليل ، وراحة من عناء البيت ، وضجة المدينة فلا يعدو بذلك أن يستريح إليها كما تستريح كل بنية حية إلى الماء والظل والهواء ، كذلك تهيج السائمة في المروج ، وكذلك تهتف الضفدع في الليلة القمراء .

وقد يمنح الشاعر الطبيعة حياة من عنده أو من الخرافات والأساطير فإذا هي حياة بغیضة لا تصلح للتعاطف والمناجاة ، أما الطبيعة التي تحب وتناجي ويتم التعاطف بينها وبين الشاعر فهي الطبيعة التي تبث الإغراء في كل شيء ، في رفرقة النسيم ، ورقرة الغدير ، وتغريد البلابل ، وحفيف الأغصان ...

فعلى هذا النحو تتجلى الطبيعة للعبقريّة التي تحبها وتمنحها الحياة ، فليست هي دمية ولا حلية ، وليست هي مروحة للهواء ، ولا مجلساً للمنادمة ، ولكنها قلب نابض ، وحياة شاملة ، ونفس تحف إليها ، وتأنس بها ، وذات تساجلها العطف وتجاذبها المودة ، ثم هي عمار لا خواء فيه ، وأسرة لا تبرح منها في حضرة قريب يناجيك وتناجيه ، ويعاطيك الإخلاص وتعاطيه .

فهل كان ابن سناء على هذا النحو هل كان يحب الطبيعة كما أحبها ابن الرومي ؟ وهل استروح من محاسنها نفسا تصبى الناظر إليها ، وتبرج له تبرج الأنثى تصدت للذكر كما استروح ابن الرومي وهل رأى هذه الزينة التي تبدو على وجهها عاطفة من عواطف العشق تتعلق بها العفة والشهوة تعلقها بالعاطفة الإنسانية الشاعرة كما قال ابن الرومي :

فهي في زينة البغي ولكن هي في عفة الحصان الرزان

وهل يشف وصفه للطبيعة عن شغف الحى بالحى ، وشوق الصاحب إلى الصاحب ، وتسمع من تشبيهه

(١) الأدب في عصر صلاح الدين : ٣٦٨ .

بها رنة طرب أو شجو لا تخرج إلا من نفس منعمة بأصداء الطبيعة قد نفذت إلى طويتها ، وشاركتها فيما تتخيله لها من حزن وسرور ، فهو يحيا مع الشمس الغاربة حين تضع على الأرض « خدا أضرع » من دهشة الفراق ، وهو يحيا مع النوار حين تخضل بالدمع عيونه ، وتهبط مع الليل شجونه ، وهو يحيا مع الذباب المغرد والطير الساجع في ساعة الغروب التي يمتزج فيها الحنان الذائب بالشوق الحفيظ ، كما فعل ابن الرومي وهو ينظم ذلك كله في أنشودة واحدة لم تدع مزيداً لفن اللون والحركة ، ولا مزيداً لوحى الخيال والسليقة :

إذا رنقت شمس الأصيل ونفضت	على الأفق الغربى ورساً مزعزعا
وودعت الدنيا لتقضى نحبها	وشتول باقي عمرها فتشعشعا
ولاحظت النوار وهي مريضة	وقد وضعت خدّاً إلى الأرض أضرها
كما لاحظت عوادة عين مدنف	توجع من أوصابه ما توجعها
وظلت عيون النور تخضل بالندى	كما اغرورقت عين الشجي لتدمعا
يراعينها صوراً إليها روانيا	ويلحظن أخطأً من الشجو خشعا (١)

فهل كان ابن سناء مفتونا على هذا النحو بالطبيعة ... إننا نعرف أن ابن سناء قد أهدى إليه والده بستاناً جميلاً ، فأسره بهاؤه ، وحسنه ، وأحس أنه جنة حقيقية وأن من يملكه لا يشك في أنه خالد مخلد ، حتى إن آدم لو حل فيه بعد أن أخرج من جنته لم يحزن ولم يصبه كد ، بل لو طمع الكافر أن ينال مثله يوم القيامة لآمن وامتلأ قلبه حبا للإيمان ، وفي وسطها نهر جميل يحكى ساعة الأصيل ونسيمه الرقيق سحالة العسجد (أى ما يتساقط من الذهب إذا برد) وزهرها فوق الأشجار كأنه قلائد في جياذ حسناوات جميلات ، وما أروع ذلك النغم الشجي الذي ينبعث من أطيارها التي تذكرنا بصوت «معبد». فما أروع تلك الجنة التي طابت إقامتي فيها ، فما مثلها في الخلد من مقعد أقامه الحسن فلا يضاهيه ولا يحاكيه مقعد آخر ، ولقد اعترف الشاعر بعجزه عن وصفه مع أن خاطره لم يعتد العجز ، استمع إلى هذه المعاني يرددها ابن سناء في هذه الأبيات التي جاءت جزءاً من قصيدته في مدح والده القاضي الرشيد :

جنة ملك حين ملكتها	شككت في أنى لم أخلد
لو حلها آدم من بعد ما	أخرج لم يحزن ولم يكمد
أو طمع الكافر في مثلها	في الحشر لم يكفر ولم يحسد
يحكى أصيل الجو في نهرها	سحالة العسجد في المبرد (٢)
وزهرها يحكى بأشجارها	قلائد تعلو على خرد
فكم على الأغصان من منشد	بل كم على الأغصان من معبد
لا سيما مذمرتها مقعدا	ما مثلها في الخلد من مقعد
أقامه الحسن فما مقعد	إلا إذا جاره كالمقعد
وصنى له عجزى عن وصفه	وخاطرى للعجز لم يعتد

حقاً إن هذا التصوير فيه اللون والحركة والخيال ، وإن كان يترع في معانيها إلى ثقافته الدينية فربط بينها

(١) ابن الرومي : حياته من شعره : ٢٩١ للمقاد .

(٢) السحالة بالضم : ما سقط من الذهب والفضة إذا برد .

وبين الجنة ، وجعلها جنة الخلد ، وتمادى بذكر آدم . وطمع الكافر في مثلها وقد شغله هذا عن الاندماج في حسناتها وبهاؤها اندماجاً تاماً حتى يتم له التجاوب الشعورى لا التجاوب الفكرى وحتى ينصرف قليلاً عن التوليد العقلى والمجاهدة الذهنية – على رأى الدكتور الأهواى – (١) فالذى يطلب من الشاعر هو الأصالة في الفن ونعنى بها عمق الإحساس من ناحية ، واستقلاله وتميزه في التعبير عن هذا العمق من ناحية أخرى . ولقد كان ابن سناء – كغيره من شعراء العصر الأيوبي – يتصورون أن الابتكار في الشعر هو أن يأتى بفكرة أو بمعنى أو بتشبيه لم يسبق إليه ، وتحس ذلك في هذا الوصف لساعة الأصيل حين يدفع الهواء الرقيق موجات النهر ، ويبدو الهواء الرقيق في الجو مشبعا ومبللا بقطرات الماء والشمس ساعة الأصيل تميل إلى الحمرة ، وترسل أشعتها من خلال تلك النسيمات المبللة بقطرات الماء فلا يجد صورة إلا ما يتساقط من الذهب إذا برد وسقط على الثوب المزركش فالجهد الذهني واضح في ذلك التشبيه المركب .

ولكنه ينسجم مع الطبيعة ويتجاوب مع نفسه تجاوباً تاماً في هذا المقطع عن بستانه حين حاج الذكريات فراح يقبل الطلل ؛ ويلثم الزهر ؛ وكأنه ينال ذلك من لى المحبوب وثغره ؛ حتى كان أصحابه بين لائم وعاذر استمع إليه يقول :

جلست ببستان الجليس وداره فهمج لى مما تناسيته ذكرا  
أقبل ذاك الطلل أحسبه اللمى وألثم ذاك الزهر أحسبه الثغرا  
وكم لائتم لى فى الذى قد فعلته وكم قائل دعه لعل له عذرا  
فالشاعر هنا ينقل إلينا صورة تنبض بالإحساس العميق ، وتفيض بالمشاعر الصادقة ، وفي تصوير الجللار (رأى زهر الرمان) وقد تمايلت بها الفصون ، يراها كالشراريب الخضراء ، والزهر فى أطرافها كبائس (٢) فيقول

وجلنار على غصون وكل غصن بهن مائس  
يحكى الشراريب وهى خضر وهو بأطرافها كبائس  
ويصف قوماً سكارى فيقول :

وندامى فصحاء شربوا إذ غدت ألسنتهم منخرسة  
لبسوا أثواب سكر وكبرى وانطوا طى ثياب دنسة  
فالتصوير هنا – على الرغم من طرافته وجدته – حيث جعل السكر يعقد ألسنتهم فيصبحون بعد الفصاحة خرساً ، ثم تلعب الخمر برءوسهم وعيونهم ، فيلبسون أثواب السكر التى تفقدهم كل إحساس ؛ وينطون طى الثياب الدنسة – وهى صورة موحية لأن الثوب الدنس يلف بإهمال وبغير عناية ولا نظام فكذلك كان حالهم ، لأنهم لا يصدرون عن عقل واع مدرك فقد فقدوا مشاعرهم – أقول : فى هذا التصوير إجهاد ذهني واضح .

وقد وصف الجرب الذى أصابه وصفاً غريباً أبرزه فى صورة حسنة إذ جعله كاللؤلؤ الرطب النفيس ، والفرق بينه وبين لؤلؤ البحر أن هذا رطب وذاك يابس فقال :

اللؤلؤ الرطب حب فى راحتي نفائس  
فلؤلؤ الحب رطب ولؤلؤ البحر يابس

(١) ابن سناء ومشكلة العقم : ٧٦ .

(٢) الكبائس : جمع كباسة بالكسروهى العذق الكبير ، والكبيس : ضرب من التمر ص ٢٤٥ القاموس المحيط ج ١ .

ويعلل تعليلا حسنا لمرضه بالجرب فيقول :

ألمؤى جربت لا لانخفاضى جربى رفعة وان كان داء  
جربت مثلى السماء وناهيك عاوا أن أشبهتنى السماء  
ولذا أجمع الرواة وما خو لف فيها أن اسمها الجرباء

وقد وصف شعراء كثيرون من قبله الفرس وأجادوا ، أما الإجادة عنده فهي أن يأتي بجديد في الوصف معنى أو لفظا فلنستمع إلى هذا الوصف :

وأثقر ما زلت من جربه أطوى به اليد كطى الكتاب  
كأنما أرجله فى القلا أنامل تسرع لقط الحساب  
يجرى فلا أعلم عجبا به أمارد أبصره أم شهاب  
كم غصة للبرق من أجله فليت شعرى كيف حال السحاب  
أثاره عقد نهود الربا ونقعه طحلب بحر السراب

الصورة الأولى وهى تشبيه السرعة بطى الكتاب ليست غريبة ولا جديدة ، وقد عبر عنها القرآن الكريم واستغلها الشعراء كثيراً - وتشبيه أرجله فى القلا بالأنامل التى تتحرك بسرعة للقط الحساب - صورة فيها الحركة وطرافة التشبيه إذ أن اليد تتحرك بسرعة مذهلة عند عد الجنيهات كما تتجلى هذه الصورة بوضوح فى صرافى البنوك . غير أن عبارة «عجبا به» أضعفت المعنى كذلك ؛ إذ يحتمل أن إعجابه به هو الذى دفعه إلى هذا التصور فتصوره مardاً أو شهاباً من شدة الإعجاب فقط ، وليس هو كذلك فى نظر الآخرين . ولو أنه جعل الإعجاب به مترتباً على تلك الصورة لكان أروع . والجهد العقلى واضح فى البيت الأخير حيث جعل آثار أقدامه على الأرض حبات فى عقد تحلى به الربا ، كما جعل ما يتصبب من عرقه طحلب بحر السراب . فهى صورة ذهنية بعيدة وإن كانت جديدة فريدة .

وبعد فهل نستطيع بعد ذلك أن نصل إلى حكم صحيح بالنسبة لهذا الغرض ومترلته بالنسبة لشعره ؟  
الواقع أن الوصف لم ينل من ابن سناء عناية خاصة ؛ فكثيراً ما جاء الوصف تابعا لغرض أسامى كالممدح أو الغزل أو الرثاء .

لم تكن الطبيعة فى مصر آنذاك متعددة فاتنة فإنها تتخذ شكلا واحداً مستوياً أما الطبيعة فى الشام فتعدد فيها المناظر فمن مرتفعات إلى منخفضات ، إلى رياض وبساتين ، إلى جبال خضراء وأخرى جرداء فلذا كان شعراء الشام أبرع فى الوصف من شعراء مصر .

وما ورد فى شعره خاصاً بالوصف كله مقطعات لا تتجاوز السبعة الأبيات على الرغم من أن ما خص به الطبيعة من وصف لا يسح بدخوله بن الشعراء الوصافين للطبيعة إلا أنه يدل من جهة أخرى على الاستعداد الكامن القوى لهذا الغرض .

وواضح ميله إلى الافتنان العقلى ، والابتكار فى الصور والتشبيهات ، وحينما يتجاوب مع نفسه ومشاعره - وهو نادر قليل - يصل غاية الإعجاب ؛ إذ أنه ينقل فى نفوسنا أثراً مشابهاً .

أما قدرته على النحت والسبك : فله القدرة الفائقة على الافتتان في اختيار الألفاظ وسبك العبارات كما ظهر ذلك من العرض السابق .

وبهذا نكون قد أوضحنا خصائص هذا الغرض ، ونكون قد أوضحنا مكانته بالنسبة لشعره وهو تال للهجاء كما وضعناه هنا .

أما ما بقي من أغراض شعره كالفخر والحكمة والزهد والاعتذار والشكوى فلا يستأهل كل منها أن نقف عنده طويلا لأنها لم تحظ من الشاعر بأهمية تذكر — ولذا سنشير إليه إشارة سريعة .

## ٦ - الفخر

ليس في الفخر سوى قصيدتين . أولاهما عاتب فيها الدهر لأنه يحاول صده عن مطلبه ، ويصطنع له العقبات ، ثم يفتخر بأبائه ، وبانتسابه إلى والده الرشيد الذي به فاق الأنام لعلو منصبه ونصابه ، حتى إنه يستطيع بفضل ذلك النسب أن يتخذ من النجوم له نعلا ، ومن الهلال مركباً - يجري به في نهر الحجرة ، فيقول :

أيدفعني الدهر عن مطلبي      ويكثر من لومه المطلب بي  
ولم يدركني كثير الإباء      وأن الرشيد المرجى أبي  
وأني به قد فخرت الأنام      بفضل النصاب مع المنصب  
وأني لو شئت من سعده      لأنعلت رجلي بالكوكب  
ولو شئت كان لديّ الهلا      ل بنهر الحجرة كالمركب

وهكذا يتسم فخره بالمبالغة الشديدة ، والغلو الزائد . وفي القصيدة الثانية لا يهرب فيها الدهر مهما ناصبه العداء ، بل ولا يخاف الموت الزؤام إذا عدا عليه ، بل إن الدهر لو حاول أن يمد له يداً لينال منه أرد اعتدائه باعتدائه مثله ، وعزمه المتوقد يحيل الماء البارد جمرأ ملتهباً ، وحلمه البالغ يفل حد السيف . ويحتقر الناس احتقاراً شديداً لأن من لم يتحلّ بمثل صفاته وسؤدده فلا قيمة له . وإن اباءه الشديد ليأبى إلا أن يراه متربعا فوق هامة الناس ، وأنه يفضل الظلم الشديد إذا أبدى له الماء الذي يشربه منة أو فخراً ، ولو رأى أن إدراك الهدى ورضى الله لا يأتي إلا بالتذلل ، لا يتعد عن طريقه .. ثم يرى الزمان عبداً له ، وأنه له سيد على الرغم منه وهي قصيدة مشهورة :

سواي يخاف الدهر أو يهرب الردي      وغيري يهوى أن يكون مخلصدا  
ولكنني لا أهرب الدهر إن سطا      ولا أحذر الموت الزؤام إذا عدا  
ولو مد نحوي حادث الدهر طرفه      لحدثت نفسي أن أمد له يدا  
توقد عزمي يترك الماء جمرة      وحلية حلمي تترك السيف مبردا  
وفرط احتقاري للأنام لأنني      أرى كل عار من خلا سؤددى سدى  
وأظماً إن أبدى لي الماء منة      ولو كان لي نهر الحجرة موردا  
ولو كان إدراك الهدى بتذلل      رأيت الهدى ألا أميل إلى الهدى  
وإنك عبدى يا زمان وإنسى      على الكره مني أن أرى لك سيدا

وقد بلغت هذه القصيدة ثلاثة وأربعين بيتاً وهي أشهر قصائده على الإطلاق ، ولسهولة ألفاظها ، وبعده عن التوعر كانت من بين المختارات من شعره ، ومن شعر العصر الأيوبي لتلاميذ المدارس ، وقلما خلا منها كتاب يختار من شعر ابن سناء . وأفكارها ومعانيها أشبه بأفكار الشباب وغرورهم ، وما لديهم من طموح كاذب ، ولهذا نرجح أنه نظمها في سن شبابه قبل أن يجابه حقيقة الحياة التي جعلته يتذال ويتودد إلى الملوك والرؤساء .



## ٧ - الزهد

ليس ابن سناء من شعراء الزهد والتصوف على الرغم من أن الحياة المصرية في ذلك العصر كانت تدعو إلى شيء من الاستسلام للمقادير والاتجاه إلى الله والزهد في الدنيا ، وذلك لأن الاضطرابات التي حلت بمصر بسبب الحروب الصليبية والحروب التي كانت بين سلاطين آل أيوب بعضهم مع بعض جعلت المصريين - وقد ألمت بهم المحن والمصائب - يتطلعون إلى لون من ألوان الحياة الروحية عساها تخفف عنهم هذه الآلام والمحن التي حاقت بهم من كل جانب . (١) وقد نبغ في الزهد والتصوف شاعران عظيمان هما : ابن الفارض ومحيي الدين ابن عربي اللذان رفعا علم التصوف فاهتدى به المتصوفون من بعدهما .

أما ما تحدث فيه ابن سناء وأمثاله كابن عنين ، والعماد الأصفهاني ، وأسامة بن منقذ فلا يعدوا أن يكون تبرماً بالدنيا ، أو سخطاً من تصرف الأحداث ، أو شكوى من الدهر ، أو استسلاماً للقضاء والقدر حين يعجزون عن تحقيق أهدافهم والحصول على مآربهم ومن ذلك قصيدة لابن سناء مطلعها :

عز إله العالم وذل ابن آدم

ينعى على الناس سخطهم على القضاء والقدر ، وتفسيرهم كل شيء بالعقل والعقل قاصر عن الحكم وأن التسليم بالقضاء والقدر والرضا بهما هو طريق السلام والنجاة ويسخر من مدعى العلم الذين يقولون بتقديم الزمان ، مع أن فعلهم يحمل دليل البطالان .. وهي إشارات سريعة لبعض معتقدات الفرق الصوفية ... استمع إليه يقول بعد البيت الأول :

يخاصمون ربهم	والرب لا يخاصم
وحاكمه للنهي	وعنده نحاكم
وقائل لم كان ذا	وقائل لم لا ولم
قد سلموا لو سلموا	وقد نجوا من سالم
ومدع بأنه	في العلم لا يقاوم
رأى الزمان حادثاً	فقال قد تقادم
وما درى بأنه	افعله قد صادم

وفي قصيدة أخرى يرجع فيها إلى ربه ، ويشوب إلى رشده ، فيخاف الله ويختار طاعته ويعاف الدنيا ، ويذكر غرورها وباطلها ، وأوطاره التي قضاها بها ، وأن جنة الدنيا فانية وجنة الآخرة باقية . وهي قصيدة رفيعة تتجاوز فيها مع تجربته الحقيقية ، ومشاعره النفسية لذا تحس بأسرها للنفس والقلب ، ولو كان له غيرها في قوتها وما تحمل من صدق التجربة لكان من شعراء الزهد دون منازع ولصح أن نسلكه في ميدان شعراء الزهد الكبار من أمثال أبي العتاهية .. استمع إلى هذه القصيدة وما فيها من حسن جرس ، ونغم هادئ رزين :

(١) دراسات في الشعر في العصر الأيوبي : ٦٥ .

قد كان ما كان من جهلى وطغيانى  
وسُرُّ من بعد غم النفس بى ملكى  
فما المغمم بعد النسك من أربى  
نسيت إلفاً بخيلاً ليس يذكرنى  
وخفت عصيان من لو شاء أهلكنى  
وعفت دنيا تسمى من دناءتها  
وجاء ما جاء من نسكى وإيمانى  
واغمم بعد سرور النفس شيطانى  
ولا المقنع بعد الزهد من شانى  
بذكر رب كريم ليس ينسانى  
واختبرت طاعة من لو شاء أنشانى  
دنيا والا فما مكروها الدانى

ويبدو أنه قال هذه القصيدة وهو فى سن الثلاثين لقوله :

لا ترغى يا ابنة العشرين فى صلتى إن الثلاثين هدت ثلث أركانى

ويبدى انصرافه عن الدنيا ، ويتحدث عن وحشة القبر ، وأنه الدار الباقية ، ويسعى إلى توسعته بالأعمال الصالحة :

إليك عنى يا دنيا إليك فى  
فى وحشة القبر والدود المقيم به  
أقول دارى وجيرانى مغالطة  
سأوسع القبر بالأعمال أصلحها  
فى وصل مثلك شأن المبعوض الشانى  
شغل لنفسى عن دارى وبستانى  
والقبر دارى والأموات جيرانى  
جهدى وألبس زهدى قبل أكفانى

وفى مقطوعة أخرى يتحدث عن كرهه الدنيا ، ورغبته فى الانصراف عنها لخسة الشركاء فيها :

أصبحت للدنيا الدنية كارهها لا أشتيهها  
وعققت منها طائعا أمتى فما أنا من بنيهها  
ووهبتها منى لبا نفع نفسه كى يشترىها  
ورفضتها أغرورها ونخسة الشركاء فيها

ويقول فى الدنيا والآخرة :

أحسنت الدنيا التى استرجعت منى تلك الحاة الفاخرة  
ما شغلت بالى بتقييحها بل فرغت قباى إلى الآخرة

وبقية شعره فى أثره مقطعات لا تتجاوز خمسة الأبيات يتحدث فيها تارة عن الموت وطهارته للنفس ، أو عن الدنيا ودنائها ، أو عن الآخرة وتفرغ قلبه لها ، أو عن الزمان وعدم وفائه . وهى خطرات تقف إلى نفسه عندما تشيع من الباطل ، وتحن إلى الصفاء ، وربما يدفعه إلى هذه التفات مواقف مؤلمة من الحياة فيعبر تعبيراً صادقاً عن مشاعره وأحاسيسه ، فلم تتجاوز أبياته التى كتبها فيه مائة بيت إلا قليلاً ، وربما كان انصرافه إلى الزهد والرغبة عن الدنيا ومباهجها إثر موت صديق أو عزيز أو قريب مما يدفع إلى التفكير والتأمل فى الآخرة وفى باطل الدنيا ، وفى بعض قصائده تحس أنها كانت فى أخريات حياته حين يشعر المرء بقرب اللقاء ، فيستعد بالصفاء وغسل النفس من الرجس والدنس .

## ٨ - الاعتذار والاستعطاف

ويلي الزهد في الديوان ما اشتمل عليه من بعض القصائد والمقطعات في الاعتذار والاستعطاف . وعلى الرغم من أنه كتب قصيدة طويلة إلى القاضي الفاضل حين غادره وهو مريض في دمشق والتي مطلعها :

تذكرت أيام الصبابة والصبأ وعيشاً مليحاً بالمليحة معجبا

وقد بلغت هذه القصيدة واحداً وخمسين بيتاً ، إلا أن طابع المدح يغلب عليها . أما ما ورد في الاعتذار والاستعطاف فقليل نادر ، وأغلبه مقطعات ، ويرق فيه غاية الرقة ويبتعد عن الإغراق في الصنعة ، ويترك نفسه على سجيتهما كاعتذاره لمن عتب عليه في ترك القيام له فقال :

أماناً فلني من عتابك خائف وعفواً فلني بالحناية عارف  
على أن لي عذراً فإن كنت منصفاً فكُن قابلاً أولاً فإنك حائف  
وما كان شغلي عنك إلا لأنني بفكرى على تحبير شكرك عاكف  
وإن كان جسمي عند لقياك قاعداً فإن فؤادي قبل لقياك واقف

وهكذا نلاحظ رقة اللفظ ، وخفة الوزن ، وهدوء النغم ، وبساطة الفكرة ويزداد رقة وطلاوة حين يستعطف ، فيتخير وزناً سهلاً قصيراً ، ومعاني مبسطة ، وألفاظاً تساعد بموسيقاها على تحقيق هدفه :

أنا غرس بيتك إن أردت فأظمه أو شئت فاسقه  
وكذا بصدك إن أردت فأفنه أو شئت أبقه  
وكذاك نعمه إذا أبقيته أولاً فأشقه  
رقيته وحططته هونا فليت لك لم ترقته  
ووفيته لكن رضاك فليت أنك لم توفيه

وبعضي على هذا النحو ، وإن غلب على أبياته هنا اصطناع الطباق والمقابلة لكنهما يأتيان هنا دون مبالغة ولا تكلف ، ويضفي عليهما حسن النغم جمالاً وروعة .

## ٩ - الحكمة

ولم ترد الحكمة في شعر ابن سناء الملك غرضاً مستقلاً ، وإنما وردت في تضاعيف شعره ولم يجد دافعاً يدفعه إلى الغرام بها حتى ينحو منحى « صالح بن عبد القدوس » الذي خص بعض قصائده بالحكمة ، وأفردها بها . أما ابن سناء فحاول أن يجارى المتنبي ويستمد حكمته من تجاربه ومواقف الحياة . فالحكمة ليست إلا موقفاً من الحياة ينطوى على شحنة عاطفية ، نعم إنها تجارب يتلقاها الشاعر من الحياة ومن الأحياء مباشرة ، لا من الكتب والثقافات ، والحكمة مثلها كمثل الأمثل العامة تحمل من الطاقة العاطفية ما يجعلها شيئاً آخر غير التفكير الفلسفي ، والقضايا العقلية والمنطقية ، وابن سناء الملك حين يقول في قصيدته التي رثى فيها جده :

وجنة الخلد بالأعمال تدخلها لا بالحظوظ - كما قالوا - ولا القسم  
كم قام غيرك للدنيا وقد قعدت عنه وقامت لك الدنيا ولم تقم

قد عبر في هذين البيتين عن شعور صادق ، وإن بدا في ظاهره التناقض ، لأن الصدق والكذب في مثل هذه الأمور لا يخضع لمبادئ عقلية ، وإنما يرجع إلى حالات النفس ومشاعرها ، واختلاف مواقفها من الحياة ، فتقوله :

ومن صفت منه عين في الفؤاد رأى ما خطه الله فوق اللوح بالقلم

مستمد من مشاعر التصوف ، وهي مشاعر تمتزج فيها العاطفة بالخيال ، وبالمنطريات الفلسفية ، ولا تقف عند حدود النظرة الفلسفية وحدها ، وقد اقتبس ابن سناء الملك بعض معاني المتصوفة في شعره .

وكان المتنبي وأبو العلاء من الشعراء الذين ضربوا بسهم وافر في الحكمة ، أما ابن سناء فعظه من الحكمة قليل ، وإنه وإن تعمق في جزئيات المعاني تعمقاً عقلياً يستوحيه من التلاعب اللفظي ، ومن منافسة غيره من الشعراء فليس على شيء من العمق في تأمل الحياة ، والتدبر في الأحياء ، وقل أن يتجه إلى استبطان نفسه أو مراقبة عواطفه ، (١) واستخلاص العبر مما يمر تحت بصره وسمعه .

---

(١) ابن سناء ومشكلة العمق والابتكار في الشعر : ١٤٨ .

## الفصل الثالث

# الدراسة الفنية لشعر ابن سناء الملك

الألفاظ والأساليب واختلافها بالنسبة لأغراض شعره:

لما كان الشعر تعبيراً عن العاطفة والوجدان كان ضرورياً أن تتضمن ألفاظه وعباراته ما يجيش في نفس الشاعر من عواطف وانفعالات . والشاعر الممتن هو الذي يستطيع أن يدرك ما في الألفاظ من قوة وما في ثناياها من معان ، فلا يفسرها بالعقل وحده ولكن بالقلب والخيال ، لأن لها صدقاً في نفسه ، وذكريات تعود إلى خاطره فيذكر كل ذلك عندما يؤثر هذا اللفظ ، ويعيد إلى نفسه من الصور التي يوحى بها ما يمكن أن يؤلف به قصيدة كاملة . والذي يعين ألفاظ الشعر ويجعلها محمودة فيه هو نظرة الشاعر إليها ، وتفسيره لها ، وتخيله لإحباطها ، وما تخلقه في نفسه ، ثم انتفاعه بذلك كله ومقدرته على أن يضمّن اللفظ عواطفه وخياله ووجدانه وشعوره ، فيصل هذا اللفظ إلى القارئ أو السامع محملاً بكثير مما أرادته الشاعر ، ويثير في نفس القارئ معاني وانفعالات أكثر مما له عند عامة الناس . (١)

وقد عنى علماء البلاغة العربية بالحديث عن ألفاظ الشعر ومعانيه ، والتفرقة بينهما ففرق قدامة المتوفى سنة ٣٣٧ هـ في كتابه نقد الشعر بين المعنى واللفظ ، ورأى أن الشعر صناعة ؛ المعنى فيه هو المادة ، واللفظ والصياغة هما المظهر ، فالشعر عنده : كلام موزون مقفى يدل على معنى ، فاللفظ والوزن والقافية هي الشكل أو الصورة ، والمعاني هي المادة أو الموضوع . (٢) وعمل الشاعر عنده كعمل الصانع ، ولا يبعد أن يكون هذا الرأي مقتبساً من أرسطو (٣) ولم يخالف ذلك النقاد الآخرون الذين جاءوا بعده حتى عصر ابن خلدون (٤) وإن أوضح أبو هلال العسكري : أن القيمة كلها للفظ أو للصياغة لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي ، والقروى والبدوى ، وإنما الشأن كله في جودة اللفظ وصفائه .

وقد عرض الدكتور عبد العزيز الأهواني رأى « كولنجوود » في كتابه « أصول الفن » ، وخلاصته أنه يرى أن الفن الخالص هو التعبير عن انفعال الشاعر لنفسه لا لغيره أى بحيث لا يقصد إثارة المشاعر أو تحريك

(١) في الأدب المقارن للمرحوم الأستاذ عبد الرزاق حميدة : ١٩٥ .

(٢) نقد الشعر : تحقيق محمد عيسى منون : ١٣ ، ١٤ .

(٣) راجع بلاغة أرسطو بين العرب واليونان للدكتور إبراهيم سلامة : ١٤٦ .

(٤) راجع الصناعتين لأبي هلال العسكري : ٤٢ .

العواطف عند غيره من الناس . (١) وقد ناقش الدكتور الأهواني رأى « كولنجود » وبين أن الأخل به يسقط معظم الشعر العربى بل العالمى ويعتبره دخيلاً على الفن .

وبعد فما المقياس الذى سننظر به إلى دراسة الألفاظ والأساليب عند ابن سناء الملك ... الواقع أننا لانستطيع التفرقة بين اللفظ والمعنى ، لأن المعنى إذا نضج فى الذهن واتقد فى الخاطر ، وملاً الإحساس سقط على اللفظ الذى يناسبه فمثله حينئذ كالثمرة على الشجرة إذا نضجت سقطت ، فكذلك المعنى فإذا عبر الشاعر عن معنى قوى وانفعل به ، وملاً عليه قلبه وإحساسه عبر عنه بألفاظ قوية ضخمة لها موسيقى صاخبة عالية تملأ النفس بالقوة ، وتثير المشاعر والأحاسيس بوقعها ، وصخبها .. وإذا عبر عن معنى رقيق كالغزل أو وصف الطبيعة واتته ألفاظ رقيقة ناعمة ، تنبعث منها موسيقى ناعمة هادئة . فإذا مدح صلاح الدين ، وتحدث عن جهاده قال :

يشن علينا غارة بعد غارة فقد أصبحت من شن غاراته شنا

فالكلمات « يشن - غارة - شن - شنا » من الكامات القوية بطبعها من ناحية لأن الحروف والمقاطع من الحروف القوية كالشين والنون والغين ، وبالضغط عليها ، وبتكرار ألفاظها من جهة أخرى ، وهذا الضغط والتكرار يعطيان موسيقى قوية ضخمة صاخبة تناسب معنى الحرب والغارة وشدة مقاومة الأعداء والانتصار عليهم ... ولكن هل هذا يكفى فى نجاح الشاعر؟ وهل هذه الألفاظ تحمل شحنة نفسية وعاطفية مماثلة؟ ... الواقع أننا نحس بجهد صناعى بذله الشاعر ليصل إلى الجناس بشن الغارة ، وكلمة شنا التى ختم بها البيت إذ أن معنى الكلمة الأخيرة « القربة الخلق الصغيرة » كما ورد فى القاموس وليس ثمة رابطة فكرية بين المقدمة والنتيجة ، فلم تجر العادة أن يقال : « لقد ترك بلاد الأعداء بعد غاراته عليها قربة خلقاً صغيرة ، وإنما يقال : « تركها قاعاً صفصفاً » مثلاً أو تركها نخاوية على عروشها ... أو نحو هذه المعانى القوية التى وردت فى القرآن .. ثم يقول من نفس القصيدة :

ولما رأوه أدبروا حين عابنوا	أعنة خيل لا تعود ولا تنفى
وقد وقفوا لكن لأسر رقابهم	وقطف رءوس منهم آن أن نجنى
ثبت لهم والسيف قد كره الطلى	وجالدهم والقرن قد سئم القرنا
بضرب يذيب الشمس فى الأفق حره	ويحرق ما بين القلوب من الشحنا

وهذه الأبيات ينبعث منها موسيقى حربية صاخبة ، فطبول الحرب تدوى، وحرركات الفرار والإقبال، ووقع حوافر الخيل ، وجز الرءوس بالسيوف ، وصورة المجالدة والسيوف المملطحة بالدم ، والضرب الذى يذيب حره الشمس ، ويحرق ما بين القلوب ... تمثل لوحة معبرة عن اشتداد المعركة ، وقد أجاد الشاعر اختيار الألفاظ لإجادة جعلته يقف ندا لند مع المتنبي فى سيفياته ، وإن أحسنا بالتناقض بين البيت الأول والثانى ؛ فى البيت الأول أدبروا حين رأوا خيل صلاح الدين لا تعود ولا تنفى ، وفى البيت الثانى وقفوا ... وهو تناقض ظاهرى فقط إذ أن الإدبار يصح أن يكون للمجموع لا للجميع على أن من وقف منهم قد أسر أو قطعت رأسه . والتعبير بكلمة « قطف الرءوس » يجعل الرءوس مشتبهة إذ وضعها مكان الشيء الذى يقطف ويجنى ولو استعمل مكانها كلمة « جز رءوس » لكان أنسب وأقوى فى الدلالة على المعنى .

غير أن الأبيات في مجموعها تحمل شحنة عاطفية عالية نجد صداها في نفوسنا فحين نقرأها ونردها ،  
نتصور جو المعركة الرهيب فالعنى يلبس اللفظ وينسجم معه ، كما يفيض إحساسات ويتدفق عاطفة ، فإذا  
ما افتخر كانت ألفاظه وعباراته قوية ضخمة كذلك تحمل المعنى وتفيض بالإحساس :

والكننى لا أَرهب الدهر إن سطا      ولا أحذر الموت الزؤام إذا عدا  
ولو مدّ نحوى حادث الدهر طرفه      لحدثت ندى أن أمد له يدا  
توقد عزمى بترك الماء جمره      وحنية حلمى ترك السيف مبردا

الموسيقى التى تنبعث من الوزن والثقافة موسيقى قوية ، زادت الألفاظ بنحتها واشتقاقها قوة فوق قوة ، كقواه :  
« لا أَرهب - إن سطا - لا أحذر - الموت الزؤام - مد - حادث الدهر - توقد عزمى - جمره - .. الخ .  
ولو أن الشاعر عبر بهذه الألفاظ والعبارات عن هذا المعنى ثراً أساعده على أداء المضمون الذى يقصده ... فهو  
يدبها بالضبط الشديد على « لكننى » وتوالى النونين وتشديد الأولى منهما يجعل الموسيقى عالية موحية بالعزم  
والثقة الأكيدة بالنفس ثم يتبعها بقوله : « لا أَرهب الدهر » وهو تعبير باشتقاقه في حد ذاته قوى يدل على  
قوة صاخبة ، وزاده قوة حرفا المد المتتاليين في لكننى - لا ، فكأنه يسمع الناس جميعاً . ويشهد المثلأ بأعلى صوته  
وكلمة « سطا » من الكلمات ذات الدلالة النفسية القوية وملوءة بالإيحاء إذ نتصور على أثرها ألواناً مختلفة من  
السطو . والموت الزؤام : صفة وموصوف قويان فالموت وحده يخشى ويتقى ، فما بالك إذا جعله موتاً زؤاماً  
فيه التصميم على النيل من صاحبنا ولكنه مع ذلك لا يرهبه .

وفي البيت الثانى ضغط شديد على « نو مد » - وقوة في « حادث الدهر » من حيث دلالة على الفرع والمطلع .  
وفي البيت الثالث « توقد عزمى » تعبر حتى موح زاده الضغط قوة ولهيباً ، وقوله : يترك الماء جمره ، جسد  
المعنوى في صورة المحسوس الملموس . فإذا ما تركنا الألفاظ إلى التراكيب ، والتأليف بينها وجدنا الألفاظ  
يشد بعضها إلى بعض في تماسك وإصرار ، لا أَرهب الدهر إن سطا فسطة الدهر لا يرهبا ولا نحشاها . فالدهر  
يسطو على الناس فيفزعهم ويلحق بهم الشر ، والموت الزؤام يعدو عليهم فيقتلهم ويقضى عليهم وهذا مأنوف  
ومعروف . وقد زاد قوله : « لحدثت نفسى » المعنى مبالغة وغلوأ كما يدل على ذلك البيت الأول فمجرد  
حديثه لنفسه حين يمد الدهر يده إليه بالمقاومة يدل على نهاية عزمه ومنتهى قوته - كما يقصد - وفي البيت الأخير  
ترابط قوى وإن كان هذا الترابط عقلياً أكثر ، إذ أنه لما جعل عزمه متوقداً أى ناراً مشتعلة متوهجة أوحى  
إليه بالماء الذى يغلى ، فجعله يصبح جمره متقددة .

ومع دلالة الألفاظ على القوة والترابط الواضح بين العبارات ، وأخذ بعضها بحجز بعضها الآخر ،  
إلا أن المبالغة والإسراف في الغلو جعلنا نتصور ذلك من قبيل طيش الشباب ، وخيال الصبيان ، وواعد بين  
الواقع النفسى والواقع الخارجى مباعدة كبيرة وإن كان ذلك بعد على رأى « كولنجوود » من الفن الخالص لأن  
الشاعر عبر فيه عن إحساسه ومشاعره دون التفات إلى إحساس الآخرين ومشاعرهم .

ونخص إلى غزله ونستمع إلى هذه الأبيات التى انسجم فيها القاضى السعيد ، وأنى فيها بالسهم العذب  
الرفيق من الألفاظ والعبارات :

دنوت وقد أبدى الكرى منه ما أبدى      فقبلته في الثغر تسعين أو إحدى  
وأبصرت في خديه ماء وخضرة      فما أملح المرعى وما أعذب الورد  
تلهب ماء الخد أو سال جمرة      فيا ماء ما أذكى ويا جمر ما أندى  
يلوم عليه من يهيم بدونه...      ومن كان يهوى الصاب لا يعرف الشهدا

فالأبيات تفيض رقة وعذوبة ، وقد اهتدى إلى عبارات وألفاظ أكسبت المعنى جمالا فوق جماله وسجراً فوق سحره ، وقد لجأ إلى تورية قريبة المتزع تدرك في يسر وسهولة فقلوه « أبدى الكرى منه ما أبدى » يقصد أن عيون المحبوب بها فتور وانكسار ، والإيحاء الرائع في قوله « ما أبدى » فيا لروعة ما أبدى ، وبالجمل مظهر ، عيون ناعسة وجفن مسبل ... ولذا لم ينتظر طويلاً لأن السحر في الجفون دفعه أن يقبل الثغر تسعين أو إحدى وتسعين وها هو ذا المحبوب يجرى في وجهه ماء الحياة ونضارة العز ، وهذا وذلك يدلان على منبت العز « فما أملح المرعى » ، وما أعذب الورد .

وحين ينظر إلى المحبوب ويمعن فيه النظر يحمر خجلاً ، فيتلهب خده ، « والتعبير بتلهب تعبير حى رائع جميل ، لا يسع المفتون الصب إلا أن يقول في عجب وحيرة فيا ماء ما أذكى ويا جمر ما أندى . ولا يدانيه جمالا إلا قول المتنبي في شعب بوان .

لها ثمر تشير إليك منسه بأشربة وقفن بلا أواني (١)

فالمياه قد جرت في الثمر وبدأت ظاهرة للعين ، مجسمة سائلة وقد وقفت دون قشر ولا آنية تمنعها لأن القشر يكاد لا يرى . وفي البيت التالى يتحدث عن اللآئمين والعاذلين الذين يلومونه على الإفراط في الحب لأنهم يولون وجوههم إلى مستوى آخر لا يمكن أن يقاس بهذا المستوى الرائع وكيف يقاس المرء بالشهد ، ومن كان يهوى الصاب لا يعرف الشهدا .

فالأبيات هذه : معرض لألفاظ تنتهى إليها العذوبة والرشاقة دنوت - أبدى الكرى ما أبدى - قبلته في الثغر - أبصرت ماء في خديه - ما أملح المرعى - تلهب ماء الخد - ما أذكى الماء - ما أندى الجمر - يهوى الصاب - فالتاء والكاف - والتاء - والخاء - والخاء - والهاء ، من الحروف المهموسة (٢) التى ينبعث منها نغم هادئ ناعم ، وموسيقى رقيقة مسكرة ، والكلمات وحدها لا قيمة لها إذا لم تكن منسجمة بعضها مع بعض ومتناسكة تماسكاً قوياً كأنها القالب في البناء ، وهو ما تدركه حين نردد العبارات .

وعلى الرغم من أنها مقدمة مدح ، وأن العناية فيها بالوصف الحسى ، وأن النسب فيها مادي يتحدث عن العيون الناعسة ، والقبل المتتالية ، والخذ الملتهب ، إلا أن الإحساس الذى يفيض من هذه الأبيات يجعلنا نعجب بها ونراه قد وفق غاية التوفيق في اختيارها .

(١) ديوان المتنبي : ٤٠٥ .

(٢) الصوت المهموس : هو الذى لا يهتز معه الوتران الصوتيان ولا يسمع لهما رنين حين النطق به ، وليس معنى هذا أن ليس للنفس معه ذبذبات مطلقاً وإلا لم تدركه الأذن ولكن المراد بهمس الصوت هو سكون الوترين الصوتيين معه والأصوات المهموسة هى اثنا عشر : ت ، ث ، ح ، خ ، س ، ش ، ص ، ط ، ف ، ق ، ك ، هـ ، ( سطح - هتك - شخص - ثقف ) والأصوات المهجورة هى ( ب - ج - د - ذ - ر - ز - ض - ظ - ع - غ - ل - م - ن ) . ( الأصوات اللغوية ص ٢٢ للدكتور إبراهيم أنيس ) .



وفي البيت الثالث عشر تجد به التورية التي فن بها فيقول :

وفي القلب نار للخليل توقدت وما ذقت فيها لا سلاما ولا بردا

فقد ورى بالإشارة إلى الخليل نبي الله إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار وأشار إلى قوله تعالى : « قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » . وهو تلاعب لفظي وإجهاد عقلي واضح .

ثم استمع إليه من قصيدة أخرى في مدح والده :

سألني ما حال قلبك بعدى ربة البيت أنت بالبيت أخبر  
فيه جمر كجمر خدك لكن جمر ذا أسود وجمر ك أحمر  
كيف ينفك جمر خدك منه وهو بالخال فوقه قد تسمر  
وإلى جنب ذلك الخال وشم قد تحق بصدغها وتحفر

فهو حوار لطيف بينه وبين محبوبه ، فقد جعلها ربة البيت وهو يعنى بالبيت قلبه ولما جعلها ربا لقلبه جعلها خيرة بما فيه فالجواب هنا ضمنى مبهم ، ولكنه صرح في البيت التالي بأن في قلبه جمرأ ملتها كذلك الجمر المنتقد في خديها ، و فرق بين جمر قلبه وجمر خدها ، فهذا أسود ، وذلك أحمر ، وتساءل كيف يتحلل قلبه من الجمر المنتقد فيه ، وخدها الملتهب بخاله الأسود قد تسمر في قلبه ، وإلى جانب هذا الخال هذا الوشم الذي زاد الوجه جمالا فوق جمال ..

ففي الألفاظ خفة ورشاقة ، وحلاوة وطلاوة ، فالسؤال والجواب في البيت الأول يفيض رقة ، ويحسم معنى الدلال والعشق ، والكلمات في السؤال موحية معبرة فيها لهفة الحب ، وتعلقه بمحبوبه ، وفي الإجابة وتصديرها بربة البيت تلاعب وغموض جميل يشف عن المعنى .. وقد أصاب المعنى في البيت التالي وحقق صفتين أولاهما أن قلبه يتلهب حباً وشوقاً ، وثانيهما أن خدها جميل متورد يحرق المحبين والتساؤل الثالث : كيف ينفك .. تأكيد لانشغال قلبه بحبها ، وعدم خلاصه من ذلك الحب أو انفكاك الحب عنه .

غير أن غرامه بالتلاعب اللفظي والألغاز والأحاجي كان شديداً ؛ فمن هذه القصيدة نفسها يقول :

كان أحوى فزيد بالعين راء حين يرنو فصار أحوى وأحور

ففي هذا البيت رمز في أوله أولغز وفي آخره إجابة هذا اللغز وحله ، وأحوى معناها أسمر من شدة الخضرة ، والعين التي زيد عليها الراء هي عين الكلمة وهي الواو . وفيه جناس بين أحوى وأحور ، وقد ضرب بسهم وافر في التلاعب بالألفاظ ، وكان ابن سناء بصيراً بدراسة الألفاظ واختيارها ، وجرى بينه وبين أستاذه القاضي الفاضل مناقشات ومجادلات حول إثارة لفظ على لفظ أو قبح لفظ في موقعه وعدم مناسبته . لما كتب ابن سناء قصيدته السينية التي مدح بها صلاح الدين والتي مطلعها :

أجلس لهوى ليس لي منك مجلس لأوحشت لما عاب لي عنك مؤنس

جاء فيها قوله :

صليني وهذا الحسن باق فربما يعزل بيت الوجه منه ويكنس

كتب إليه القاضي الفاضل معترضاً على استعمال كلمة « يعزل ويكنس » فقال « .. وبيت يعزل ويكنس

أردت أن أكنسه من القصيدة فإن لفظة الكنس غير لائقة بمكانها قبلاً». وبالطبع دافع ابن سناء عن وجهة نظره ،  
والتمس ما يسوغ رأيه فقال : « وعلم المملوك ما نبهه عليه مولانا من البيت الذى أراد أن يكنسه من القصيدة  
وهو .. « صلينى وهذا الحسن باق .. » وقد كان المملوك مشغولاً بهذا البيت مستحلياً له ، متعجباً منه معتقداً أنه قد  
ملح فيه ، وأن قافيته أميرة ذلك الشعر وسيدة قوافيه ، وما أوقعه فى الكنس إلا ابن المعتز فى قوله فى قصيدته  
المشهورة :

وفؤادى مثل القناة من الخط وخدى من الحيتى مكنوس

والمولى يعلم أن المملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرجل ويتعثر ، ويطلب مطالبه فتتعرض عليه وتتعدر ...  
وأجابه القاضى الفاضل بقوله : « ولا حجة للقاضى السعيد فيما احتج به عن الكنس فى بيت ابن المعتز فإنه غير  
معصوم من الغلط ، ولا يقلد إلا فى الصواب فقط ، وقد علم مما ذكره ابن رشيق فى العمدة من تهافت طبعه وتباين  
وضعه ، فذكر من محاسنه ما لا يعلق معه كتاب ، ومن بارده وغثه ما لا يلبس عليه الثياب ، وقد عقب القاضى  
السعيد على أبى تمام فنقضه وحطه ، وللبحرى فأعطاه أكثر من حقه وما أنصفهما ، ولو كان هذا موضع العتب  
لاشتفت قلوب ، ولكن للعتاب مواضع » (١) .

قال ابن حجة : « أما نقد الفاضل على ابن سناء الملك بوضع المكنسة على وجنة معشوقته التى ليس للعدار  
بوجنتها شعور فنقد صميم » .

أما ابن سناء فقد استعمل هذا اللفظ فى مقام آخر حين قال :

كنست فؤادى من حبه ولحيتى كانت المكنسة

وقد اعترض عليه الصفدى بأنه لم يتعظ بنقد الفاضل ولا ارعوى بل غلب عليه الهوى ، وأما ابن حجة  
فصوب استعمال هذه اللفظة فى هذا المقام لأن وضع مكنسة اللحية على وجنة من طلعت لحيته كان جائزاً على عاشقه ،  
وسبكها هنا فى قالب الهجو وهو نوع من المرقص والمطرب .

ولا شك أن نقد القاضى الفاضل وجيه ، فلم يوفق ابن سناء فى استعمال المكنسة التى ترتبط فى الذهن عادة  
بالقمامة ، وإن أحسن استعمالها فى البيت الثانى كما أتيد ذلك ابن حجة .

وأما معنى البيت : « صلينى وهذا الحسن باق فربما ... الخ فمأخوذ من قول المتنبي :

زودنا من حسن وجهك مادام فحسن الوجه حال يحول  
وصليتنا - نصلك فى هذه الدنيا فإن المقام فيها قليل

التكرار :

وابن سناء كثير التكرار فأحياناً يكرر بيتاً بلفظه ومعناه مع تغيير كلمة منه لتستقيم القافية أو الوزن فى قصيدته  
اللامية التى مدح بها القاضى الفاضل قال :

وملية بالحسن يسخر وجهها بالبدر يهزأ ريقها بالسلسل

وهو نفس البيت الذى قاله فى القافية التى مدح بها الملك الناصر :

وملية بالحسن يسخر وجهها بالبدر يهزأ ريقها بالقرقف

(١) فصوص الفصول .

فلم يغير سوى كلمة « بالسلسل » إذ وضع مكانها « بالقرقف » . وهي الحمر .

وفي قصيدته التي مدح بها القاضي الفاضل وهنأه بعشر ذى الحجة سنة ٥٧٣ هـ قال :

يا حاجبية من قوس بحاجبيها ردت سهامك ما قالت له أقواسي  
وقد نقل هذا البيت إلى قصيدة أخرى في مدحه أيضاً فقال :

يا حاجبية من قوس بحاجبيها ارم القلوب فقد أصبحن أهدافا  
فنقل الشطر الأول بعينه ، وضمن الشطر الثاني معنى بقية البيت .

وفي قصيدة اعتذر فيها للقاضي الفاضل جاء قوله :

تغير فتسبي باللاحاظ عقولنا وكم من شجاع قد أغار وما سبي  
وهو نفس البيت الذي جاء في قصيدة أخرى في الغزل :

تغير فتسبي باللاحاظ عقولنا وكم من شجاع قد أغار ولم يسب  
ويأخذ من غيره أحيانا اللفظ والمعنى أو المعنى فقط كقوله في رثاء جاريته :

قفا نبك من ذكرى حبيب وقبره وقل للتي في القبر حلت ألاهبي  
فالشطر الأول مأخوذ من قول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومترل بسقط اللوى بين الدخول فحومل  
والثاني ضمنه معنى قول عمرو بن كلثوم :

ألاهبي بصحنك فاصبحينا ولا تبق خمور الأندرينا

ومن تلاعبه بالألفاظ ما أمماه البلاغيون بالاكتهاء ، وهو أن يكتفى الشاعر ببعض الكلمة ، وأحيانا يكتفى بكلمة عن كلام كثير ، والأول أصعب مسلكا لكنه أحلى موقعا كما قال ابن حجة الحموى : « إنه عزيز الوقوع جدأ ولم يوجد في كتب البلديع ومن ذلك قول ابن سناء :

ولقد كفت عنان عيني جاهدأ حتى إذا أعيت أطلقت العنا (١)

فالأصل « العنان » فاكتفى ببعض الكلمة عن بعضها الآخر ، ومن النوع الثاني قوله :

يا عاذلين جهلتم فضل الهوى فعدلتم جهلا ولكني أنسا  
أى ولكني أنا أعلم بفضيلتها (٢) ، ومن ذلك قوله :

إن قلت إنك في غنى عني فما أدراك أنني  
أى أنني لست في غنى عنك (٣) .

(١) البيت ١٢ ص ٣٩٧ .

(٢) البيت رقم ٢٣ : ٣٩٨ .

(٣) البيت رقم ٣٠ : ٤١٨ .

وكان ابن سناء مولعا بالتلاعب بالألفاظ والاشتقاقات العجيبة، والتركيب الغريبة ولعل هذه إحدى خصائص المدرسة الفاضلية ، وأصحاب التورية بالقاهرة في زمن الأيوبيه . استمع اليه يقول في مطلع قصيدة غزلية :

يا ويح نفسي عشقت مصـرية تدمشقت

وتخونه العبارة والفكرة أحيانا فيتورط في استخدام الكلمة فلا تقع موقعها المناسب فبعد أن بالغ في مدح القاضي الفاضل ، وجعل هيئته تملأ القلوب حتى ليخشاه الدهر نفسه بل لو عربد الدهر فان هيبة عبد الرحيم تقيم عليه الحمد :

ويمينا لو عربد الدهر سكرنا لأقيمت منه عليه الحدود  
يضعف هذه المبالغة ويقلل من شأنها حين يقول :

فإذا ما ادعى حيازة محمد فالبرايـا بما يقول شهود  
فكلمة ادعى توحى بكذبه واختلاقه مهما صدقه الناس في دعواه .

ويميل إلى الإلغاز فيشير بالحروف ومبادئها إلى كلمات كقولـه في مدح الحافظ السلفي في المقدمة الغزلية :

فباء عذار فوقه سين طرة إلى ميم ثغر فهو أوله بسم  
فكلمة « بسم » هي مجموع الباء والسين والميم .  
بعد هذه الدراسة يمكن أن نصل إلى الحقائق التالية :

١ - يدرك ابن سناء إدراكا تاما منازل الألفاظ والعبارات التي يستخدمها ، ويلتزم بين الألفاظ وبين طبيعة الغرض الذي يقول فيه وهذا هو طبعه الغالب .

٢ - ينعكس عليه تيار التفنن اللفظي الذي طبع به عصره ، فيحاول أن يسبق في هذا الميدان فيسبق قليلا ويتخلف كثيرا .

٣ - ثقافته اللغوية واسعة ، ومحصوله من كلمات السابقين وافر ، ولذا تسرع إليه الكلمات والعبارات وأحيانا الأبيات فيحسن وضعها حتى يجيد فيها حيننا ويخفق فتعد من عيوبه حيننا آخر .

٤ - ولكن تقل ثروته اللغوية وتنضاعل ، وكأن ريقه يجف ، وحلقه يتشقق حين يكرر أبياتا بلفظها ومعناها ، أو مع تغيير تافه محدود :

٥ - يحسن التأليف بين الصور الشعرية التي يؤكد بها معنى من المعاني ، أو يحقق بها غرضا من أغراض الشعراء

٦ - يعتمد كثيرا إلى إيراد الألفاظ ليحقق الجناس أو الطباق أو التورية مع التكلف والصنعة .

المعاني واختلافها بالنسبة لأغراض شعره :

لقد وضع ابن سناء الملك مقاييس للشعر الجيد ، فربطه بالطبع والموهبة الفطرية وعاب على غيره من الشعراء جريهم وراء التقليد ، وغرامهم بالصنعة والتكلف ، وهم حين يجرّون خلفه يتعثرون ومثلهم كن يمزج الحصى فيعز عليهم كسرهما :

أتانى در الشعر عفوا مطلقاً      على وهم يجرون خلف المخابر  
وقد كسروا أسنانهم حين مضغوا      حصاة ونبع الطبع صلب المكاسر  
ويأتون بالأشعار يبهـر حسنـها      ولكنها موجودة فى الدفاتر  
على أن فيهم من إذا قال لفظة      أعاد لنا كانون فى شهر ناجر  
يروع بالأشعار والريح تحتها      فما شعره إلا كأشدق زامر (١)

وضع المنهج شىء وتطبيقه شىء آخر :

ولا يسعنا إلا أن نتساءل : هل أدرك ابن سناء إدراكاً واعياً معنى « نبع الطبع » الذى أشار إليه ؟ وهل كان شعره نابعاً حقيقة من طبعه ، ونفسه وعمق إحساسه ؟ وما مقياس المعنى الجديد عنده ؟

إن ما جرى بين القاضى الفاضل وبين ابن سناء سوف يكشف لنا الستار عن هذا التساؤل ، وينير لنا معالم الطريق لدراسة المعانى التى كان ينهل منها ابن سناء ، ومذهبه التطبيقى لنظرية « نبع الطبع » التى أشار إليها :

طلب القاضى الفاضل من ابن سناء أن يختار عيوذاً من شعر ابن رشيق القيروانى ، وأن ينتقى من ديوانه مجموعة من القصائد ، فأجـز الشاعر ما أوصى به أستاذه وأرسل إليه ما اختار من الديوان ، وأرفق به رسالة يبدى فيها دهشته من أن ابن رشيق لم يأت بجديد ، وأنه كان يسطو على شعر المتنـبى وابن المعتز ، بحيث أو رد مائى ديوانه إلى صاحبيه لم يبق له شىء : « فلو لم يخلق الله ابن المعتز والمتنـبى ما كان ابن رشيق يفهم الشعر ، ولم يكن مستودعاً منه ذلك السر فضلاً عن نظمه ، ودقائق علمه ، وأنه ينهب شعر هذين الرجلين ، ولا يبالى كيف يذهب وأين ، ومن غاراته عليهما ، ونهبه منهما :

قال ابن المعتز فى فرس :

يمضى بموج ويحى بدر .

فقال ابن رشيق :

يذهب موجاً ويحى بدرأ .

قال المتنـبى :

سـرتك الحـجال (٢) عنها ولكن      بك منها من اللمى تقبيل

قال ابن رشيق :

وكأنه من حـوة (٣) ولمى      قد قبلته الشمس فى فمـهـ

وقال المتنـبى :

يـز الجيش حولك جانبـهـ      كما نفـضت جناحيها العتـاب

قال ابن رشيق :

والجيش ينفض حولـه أسـتـه      نفـض العقاب جناحيها من البـلـل

( ١ ) من قصيدته فى مدح الملك العادل والى مطلعها : تنزه طرفى بين زاه وزاهر . راجع الديوان .

( ٢ ) الحجال : جمع حجلة وهى القبة وموضع يزين بالثياب والستور العروس ( محيط - حجل ) .

( ٣ ) الحوة : بضم الحاء سواد إلى الحضرة أو حمرة إلى السواد ( محيط - حوه ) .

وجميع أساليبه على هذا النمط سوى وضعين أو ثلاثة ، قد حيرت المملوك استجساناً لها وتعجباً منها ، وأتعبته تفتيشاً وتنقيباً عليها ، ولم يعرف من أين اختطفها ، ولا من أى دوحة اقتطفها ، فنهياً له إن كان خاطره افترعها ، والبشرى له إن كان ذهنه اخترعها فمنها قوله :

كأنما الصبح الذى تفرى ضم إلى الشرق النجوم الزهرا  
فاختلطت فيه فصار فجرا

ومنها :

وما ثقلت كبرا وطسأني ولكن جررت ورائي السنين  
وقوله في الثريا :

كأنها كأس بلور منبئة أو لرجس في يد الندمان قد ذلها  
تنبت الكأس ما سمعنا به . وقوله :

سألت الأرض لم كانت مصلى ولم جعلت لنا طهراً وطيباً  
فقلت غير ناطقة لأنى حويت لكل إنسان حبيباً

فلقد عد ابن سناء الملك ابن رشيق سارقاً لأنه اعتدى على أفكار المتنبي وابن المعتز ، وعده مجيداً حين أنى بمعنى لم يسبق إليه كتفسيره الصبح بهذه الصورة الجديدة وهى تجمع النجوم واختلاط بعضها ببعض حتى تصير فجراً ، وهى فكرة لم ترد لدى أحد الشعراء السابقين . وكتفسيره نقل سير العجوز يجرسني العمر وراءه ، وكتنبيت الكأس تشبيهاً للثريا بها وكتفسير طهارة الأرض بأشغالها على حبيب لكل إنسان .

فالغنى الجيد عند ابن سناء كامن في الإتيان بالجديد من فكرة أو صورة أو تشبيه . وهذا المعنى عن الشعر الجيد هو الذى استقر في نفوس شعراء الأيوبيين ، بل وفي نفس القاضي الفاضل كما يتضح من تعليقه على قصيدة ابن سناء التى مطلعها :

ألا فانتبه من أفقها طلع الفجر وحاشاك نم من وجهها ضحك الثغر

فقال : « وما رأيت أغرب من مطلع هذه القصيدة ، ولا أدل منها على شطارة طبع ، ولا من بيت الكأس المكسورة ولا أدل منه على صلابة نبع ... وهو يعنى قوله :

وساحرة صانت سلافة جفنها بكأس به كسر وهذا هو السحر

ولا من بيت الورق الخضر ، ولا أطل منه على رقة طبع وشدة نزع .. وهو يعنى قوله :

فلا تنكروا منها الخضاب فإنما هى العفن فى أطرافه الورق الخضر

ويمضى القاضي الفاضل فيعيب ابن المعتز بأنه اتكأ واكل على ذى الرمة ، فما ترك له تشبيهاً إلا نقله وصقله .. أما ابن سناء فصحبته الديم ، وصحبته النعم ، وسبح بحمده القلم ، وكبر له وهلل فيما رقى ، أوفيا نثر بمدحه ونظم ، ما استأنس إلا بنفسه ، ولا رأى مثلاً ولا يرى ولا نرى ، ولا أخرج إلا من كيس فكره النقود التى تباع بها القلوب وتشتري .. ( ١ ) .

فالقاضي الفاضل يرى أن ابن سناء أعظم من ابن المعتز لأن الأخير كان يعتمد على ذى الرمة أما ابن سناء فكان يبتكر المعاني ويخترعها .  
تناقض :

ولعود من جديد لندرك معنى « نبع الطبع » عند ابن سناء . لقد فسرناها تفسيراً علمياً بمختراته لابن رشيق وتعليقه على ما اختار ، فأوضح أنه يعنى بها « المعنى الجديد أو الصورة الجديدة أو المعنى والصورة » وهو نفس الفهم عند أستاذه القاضي الفاضل ، دون نظر إلى مطابقة هذا المعنى للإحساس والمشاعر أولاً ؟ ومع ذلك فهل كانت معاني ابن سناء كلها نبع طبعه ولم يتكىء فيها على من سبقه ؟ إن نظرة إلى قصائده تمدنا بكثير من الأدلة التي تنفي ذلك ، ونعرض على سبيل المثال :

قال ابن سناء في رثاء أمه :

فهو في الميتين بحسب حقاً ومجازاً يعد في الأحياء  
وهذا المعنى مأخوذ من قول البحتري :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء  
قال ابن سناء يمدح القاضي الفاضل :

يغضى حياء ويغضى من مهابته فما يكلم لإجلالا إذا ابتسما  
وهو مأخوذ من قول الفرزدق في مدح علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ( ١ ) .  
يغضى حياء ويغضى من مهابته فما يكلم إلا حين يبتسم  
قال ابن سناء في مدح صلاح الدين :

فما يبرم المقدار ما أنت ناقض ولا ينقض المقدار ما أنت مبرم  
وهو من قول ابن هاني الأندلسي :

ما شئت لا ما شئت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

ويطول بنا الحديث إذا تتبعنا ما ورد في شعره مأخوذاً من شعر غيره . ولن يغني عنه شيئاً ما قاله أستاذه القاضي الفاضل مقررّاً له بأنه : « ما استأنس إلا بنفسه ولا رأى مثلاً ولا يرى ولا يرى ، ولا أخرج إلا من كيس فكره النقود التي تباع بها القلوب ونشترى .. » .  
ابتكار وتجديد :

ولكن هل كل شعر ابن سناء المملوك على النحو الذي قدمنا ، والذي تطفل فيه على موائد الآخرين ؟ الواقع أن ابن سناء له كثير من المعاني الجديدة ، به إنه أولع بالإتيان بالجديد الذي يتزع في أكثره إلى العقل والفكر ، وفي أقله إلى العاطفة والشعور ، وإليك مصداق مانقول : قال من قصيدة في مدح القاضي الفاضل :

ولعمري فإن عمري كفودي فيه بيض من الليالي وسود  
فقد شبه الأيام والليالي التي تمر على الإنسان بما تجمع من فرح وسرور ، ونعيم وبؤس ولذة وألم بفود الرأس الذي يختلط فيه بياض الشعر بسواده ، ويعيشان جنباً لجنب وهو تشبيه لا يخلو من طرافة وابتكار .

( ١ ) نسبت هذه القصيدة التي منها هذا البيت إلى « الحزین الكتانی عمرو بن عبید بن وهب » مرة ، كما نسبت الى داود ابن سلم في مدح قثم بن عبد الله بن عباس أو إلى اللعين المنقري ( زهر الآداب ج ١ : ٦٥ ) والأغاني ١٩ - ٤٠ .

ويقول :

يشكو النهار خيولهم من نفعها      والليل يشكو من وجوههم السنا  
فخيولهم تثير من النقع ما يحجب ضوء النهار حتى يشكو النهار أولئك الخيل ، والليل الذى من أخص صفاته  
الظلمة تنهتك ستائره المظلمة فلا يسعه هو الآخر إلا أن يشكو من ذلك الضوء الذى ينبعث من وجوه من يحب .  
ويقول :

يا جور هذا الحب فى أحكامه      خد يحد ولحظ طرف قد زنا  
فلقد جمح به خياله وانتزع من ثقافته الدينية هذه الفكرة الجديدة ، فرأى أن القبلة للحد بمثابة الحد والعقوبة  
التي تقع عليه ، بينما الذى ارتكب جريمة الزنا هو الطرف. وهى من غير شك على جدتها غير مقبولة لوضوح التكلف  
والتعنت فى انتزاعها . وأحياناً يأخذ الفكرة من شاعر سابق ولكنه يعكسها فتأتى على غير ما نرقب ، لقد تعود  
الشعراء أن يدعوا لقبر الميت بأن يسقيه الغيث ، أما هو فيرى أن بقاء عينه بما تسكبه من دموع يريح ترى جاريته  
من منة السحب . فيقول :

ولم أبق منى العين إلا لأنها      تريح ثراك الحر من منة السحب  
بينما يقول ابن نباته :

سقى الغيث عنا تربة الملك الذى      عهدنا سجاياه أبر وأكرما  
وردد هذا المعنى شعراء آخرون سبقوا ابن سناء الملك .

وهب شعره قوة ، ومعانيه إيجاء حين يستخدم الإشارات الأدبية ، فيشير بكلمة أو جملة إلى معنى طرقة  
شاعر آخر فيوقظ فى الذهن المقارنة السريعة ، كقوله :  
طويلة خطو وهى أى قصيرة      فقد كذبت بالفعل قول كثير  
وهو يشير بهذا إلى قول كثير عزة :

وأنت التى حبيت كل قصيرة      إلى وما يدرى بذاك القصائر  
عنيت قصيرات الحجال ولم أرد      قصار الخطا شر النساء البهاتر  
والقصيرة هنا بمعنى مقصورة أى مقصورة فى البيت لا تترك أن تخرج .

ومن المعانى التى ابتكرها وخلص بها من الغزل إلى المدح قوله :  
إنى رأيت الشمس ثم رأيتها      ماذا على إذا عشقت الأحسنا  
وسألت من أى المعادن ثغرها      فوجدت من عبد الرحيم المعدنا  
حاول أن يخلص من الغزل إلى المدح فخان طبعه بهذا البيت الثانى إذ جعل عبد الرحيم مصدر تلك المعادن  
التي صيغ منها ثغر محبوبته ، ولا شك فى أن هذا إساءة لمدوحه .

ويكثر التضمين فى شعره ، فيعزّ به المعنى ويقوى كقوله فى مدح القاضى الفاضل :

خذ حديثي فلان أعظم ما بي      شجن منك والحديث شجون

فقد ضمنه المثل الذى قاله « ضبة بن أد » « الحديث ذو شجون » ، وذلك أنه أرسل ابنه سعيداً فى طلب  
إبل نفرت تحت الليل فكان سعيد ماضياً فى طلبه حين لقيه الحارث بن كعب وكان على الغلام بردان فسأله إياهما



فأبى عليه فقتله وأخذهما ثم إن ضبة حج فوافى عكاظا فلقى بها الحارث ورأى عليه بردى ابنه سعيد فعرّفهما فقال له ما أحسن هذين البردين فمن أين أخذتهما؟ فقال لقيت غلاماً فقتلته وأخذتهما فقال : أبسيفك هذا؟ قال نعم فقال : أرنى إياه فإني أظنه صارماً فلما أخذه من يده هزه وقال : « إن الحديث ذو شجون » ثم ضربه فقتله . فهذه العبارة في البيت توحى إلينا بقصة هذا الحديث .

ومن أبياته التي امتدحها القاضي الفاضل قوله في مطلع قصيدة :

ألا فانتبه من ألقها طلع الفجر وحاشاك نم من وجهها ضحك الثغر

فابتسامة الحبيبة ملأت الدنيا نورا حتى خيلت لصاحبها أن الفجر قد طلع من أفق الدنيا ثم طابق بين قوله : « انتبه » وقوله : « نم » والطباق لون من ألوان الإجادة والتفنن عند ابن سناء الملك ، كما أن التعبير : « وحاشاك » كان له وقع في نفس القاضي الفاضل لأنه أكد المبالغة ، وأنه لا يجوز بحال أن يلتبس نور الثغر بنور الفجر ، إذ أن الأخير لا يمكن أن يداني الأول ظهوراً وتألقاً وسطوعاً ، وفضلاً عن ذلك فإن لفظة « انتبه » تذكر القارئ بأبيات كثيرة من الشعر القديم تحدثت عن زعر العاشق وخوفه من مفاجأة الصباح له ، واستيقاظ أهل الحى ، وجزع المحبوبة من أن يفتضح سرها وإشفاقها على عاشقها أن يفتك به أهلها .

وبعد : فهل كان شعر ابن سناء « نبع الطبع » كما ادعى ؟ إذا كان المقصود أن يأتي بالمبتكر الغريب من المعاني التي لم يسبق إليها فلاشك أنه قد سار على المنهج الذي وضعه في الغالب الأعم من شعره . أما إذا فهمنا من « نبع الطبع » ما يقرره النقاد المحدثون ويعبرون عنه « بالأصالة » في الفن ونعني بها أن يكون المعنى مستمدّاً من إحساس الشاعر به وامتزاجه بنفسه من جهة ، ثم تعبيره عنه تعبيراً مختلفاً عن أساليب غيره من جهة أخرى فقد ابتعد ابن سناء عن المنهج وخالفه كماخالفه شعراء كثيرون في العصر الأيوبي راودهم الشعور بأن التجديد ، والابتكار هو أن يبتعد الشاعر عما ألفه الناس رغبة في الشغف بالغربة ، والشذوذ عن الجماعة ، والحرص على أن يلفت إليه الأنظار ، ويشير حول فنه القليل والقال ، فكان ذلك عجزاً عن بلوغ العمق ، وفقرّاً في الموهبة ونقصاً في الأصالة (١) .

بقي أن نشير إلى أنه كان ماهراً في توزيع معانيه على أغراضه فمعانيه في المدح أو في الفخر قوية ، ومعانيه في الغزل والاستعطاف والشكوى رقيقة ومعانيه في الزهد والحكمة حقائق مستمدة من التجارب والأحداث أو الثقافة والاطلاع . وهو في الهجاء لاذع ، وفي المجون مستهتر ، وفي الرثاء مفجوع أو محزون أوباك . بقي أن نعرض في هذا الفصل لدور الخيال والعاطفة في شعره تفصيلاً بعد أن تحدثنا عنهما إجمالاً .

### أثر العاطفة والخيال في شعره :

أصبح من الضروري في دراسة الأدب أن يتتبع الدارس أثر العاطفة في القطعة الأدبية فيتبين صدقها وحرارتها ، أو زيفها وبرودها ، فهي لا شك من الدوافع النفسية في إنتاج الأدب ، والعاطفة هي مجموعة منظمة من الانفعالات ارتبطت بشخص أو بشيء أو معنى ، (٢) ولكن الأديب قد يصف لنا عواطف غيره ، أو عواطف وانفعالات مختلفة شعر بها في أعماق نفسه ، أو يخلع عواطف على أشخاص خياليين في قصة يؤلفها فلا بد لنا من دراسة هذه

(١) راجع ابن سناء الملك ومشكلة العمق والابتكار : ص ٧٧ .

(٢) دراسات في علم النفس الأدبي : حامد عبد القادر ص ٤٥ نشر لجنة البيان العربي طبع المطبعة النموذجية .

العواطف لبيان قيمتها ومعرفة مدى صدقها وشمولها ونوعها هل هي إنسانية ؟ أو قومية ؟ أو إقليمية ؟ أو شخصية ؟ وهل هي فردية ؟ أو غيرية ؟ ثم هل هي عميقة أو سطحية ؟ وهل هي ضعيفة أو قوية ؟ وهل هي ناثرة أو هادئة ؟ إلى غير ذلك إذ أن العاطفة هي النافذة أو المصفاة التي تمر فيها الأفكار فتحيلها إلى مادة صالحة للاستمتاع الفني بالأدب (١) .

التفكير العاطفي يسير عفواً بل أحياناً قسراً ، لا يملك الشاعر دفعه أو رده فإذا رأى منظرًا طبيعيًا ملك عليه حسه ومشاعره تفيض عاطفته دون إدراك منها بوصفه وعندها يشف الحاجز بين الشعور واللاشعور ويصبح الشاعر أو المفكر في شبه غيبوبة حتى تختلط المنطقتان فيصدر عن بقية المنظورات أو بقية السموعات التي اخترنت في اللاشعور . وهذا هو السر في أن الشعراء يشغفون بذكر ديار الأحباب والتغنى بأنارهم التي يخلفونها من ورأهم :

أمر على الديار ديار ليلي      أقبل ذا الجدار وذا الجدارا  
وما حب الديار شغفن قلبي      ولكن حب من سكن الديارا

فحين ثارت عاطفة الحب عند الشاعر أقبل على ديار محبوبته يقبل الجدران ، فقد أصبحت جدران ديار ليلي وحدة متماسكة الأجزاء مع ليلي ، فإذا كانت ليلي قد رحلت فإن الجزء الآخر قد حل محله (٢) .

بعد هذه المقدمة هل كان ابن سناء عاطفياً على هذا النحو ؟ هل كان ينفع بالمعنى فيولد المعنى في تلك القوالب الشعرية قسراً عنه وعفو الخاطر ؟ أو كان يفكر في المعنى ويقول عن وعي وإدراك لما يقول بعد أن يرهف نفسه ويقوى مشاعره .

الواقع أن ابن سناء كان يعنى بشعره وكان يفكر فيه ، وكانت تأتي معانيه بعد تمحيص وتدقيق وكانت ألفاظه وعباراته موضوعة بدقة وعناية ، في نظام خاص .. فهو إذن يصدر عن عقله في معظم شعره لا من عاطفته .

إن شعره كله من قبيل الشعر الذاتي أو الشعر الغنائي فهو مدح أو فخر أو هجاء أو رثاء أو غزل ، أو فخر أو حكمة وهذه كلها من الأغراض التي تنعكس فيها ذاتية الشاعر ، وتظهر فيها انفعالاته الشخصية .

### اختلاف انفعالاته باختلاف الأغراض التي قال فيها :

وحين نواجه أغراضه العديدة ندرك أن في كل منها انفعالات خاصة متميزة ، أثارها وجدانه (٣) المدرك الواعي ، فهو إزاء شخصية كصلاح الدين يثير فينا عاطفة الاعتزاز به كقائد يحمي حمى الإسلام ، ويدافع بجنوده أعداءه ، ثم يثير عاطفة القومية الإسلامية التي لا تفرق بين أبناء هذا الدين حتى اعتر بالأتراك في دفاعهم عن حماه :

بدولة الترك عزت ملّة العرب      وبابن أيوب ذلت شيعة الصلب

---

(١) أحمد عزت راجح : أصول علم النفس ص ١٢٦ ، الدوايات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص ؛ عبد الكريم المثنى ، نشر مكتبة وهبة ص ٢٤٦ ، علم النفس : أسسه وتطبيقاته التربوية ٢٠١ الدكتور القوصي .

(٢) دراسات في علم النفس الأدبي ص ٥٦ / الأستاذ حامد عبد القادر .

(٣) الوجدان : أمر عام يشمل الانفعال والعاطفة وغيرهما ، وهو ما يصحب السلوك الإنساني من حالة الارتياح أو عدم الارتياح أو من اللذة والألم ( ص ٢٣٢ الدراسات النفسية عند المسلمين ، دراسات في علم النفس الأدبي : حامد عبد القادر ص ٥٢ ) .

ثم يثير عاطفة الرهبة واشتداد المعركة وهوذا حين يتحدث عن اللقاء في أتون المعركة ، كما يثير عاطفة الإعجاب بحسن مضاربة القائد والمسلمين بالسيوف ومئاته سيوفهم ورماحهم ، ويحمل القارئ على أن يشاركه إعجابه بالقائد البطل حين يصوره رابط الجأش ، قوى العزيمة لا يزعه الموت المنتشر حوله في كل مكان بل هو يأسر ويقطف رؤوس الأعداء .

وقد وقفوا لكن لأسر رقابهم وقطف رؤوس منهم آن أن تجنى  
ثبت لهم والسيف قد كره الطلى وجالدهم والقرن قد سئم القرنا  
فإذا ما انتقل إلى القاضي الفاضل ، وهو لا يجيد المبارزة ، ولا يحمل السيوف ، ولا يقود الجيش وإنما هو بارع في التحبير والتسطير يفعل بالقلم ما يعجز عنه السيوف ، أثار فينا عاطفة الإكبار لأستاذه ، والتقدير لشخصه ، وبالغ في إغداق الفضائل عليه وإلباسه ثوب المجد ، وهبته المال لأعدائه حتى ليتنى أن يكون منهم لينال ما يناون تعطى أعاديك حتى كدت من حق أقول هب لي وهبني من أعاديكا  
ويتزلفه ، ويتبدل فيثير في نفوسنا عاطفة احتقاره حين يقول :

فما بقائي إلا منك مكتسب ولا حياتي إلا من أياديكا  
وإذا ما افتخر بدت نواجذه من ثنايا قريضة ، وأسفر عن انفعال شاب طائش مغرور لا يهرب الدهر ، ولا يخشى سطوة الموت الزوام ، ثم أثار في نفوسنا ثقته بنفسه حين يجعل عزمته تحيل الماء جمرأ ، وترك السيوف مبردا :

توقد عزمي يترك الماء جمرة وحيلة حلمي تترك السيوف مبردا  
كما يفصح عن نفس متعالية حين يبدي احتقاره الأنام :  
وفرط احتقاري للأنام لأنني أرى كل عار من حلي سؤددى سدى  
ويبدي منتهى الإباء حتى ليفضل الظمأ إذا امتن عليه الماء .  
وأظمأ إن أبدى لي الماء منة ونو كان لي نهر الخيرة موردا  
ويثير في نفوسنا عاطفة الألم والحسرة إذا رثى أحداً من أهله ، كما يهول من الخطب والمصائب إذا رثى أحداً آخر ، ويجنح إلى الحكمة والعظة فيثير في نفوسنا خوف الآخرة وعدم الغرور بالدنيا إذا عزى وسلى .  
فإذا ما تغزل كانت الصنعة ذات أثر واضح في غزله ولذا نحس بانفعالاته ضعيفة واهنة لا تائرة مضطربة كعواطف المحبين الآخرين . ثم هو يخاطب الجسد ويثير الرغبة في الضم واللم والتقبيل .  
فإذا ما وصف - على ندرة وصفه - أثار الرغبة في الطبيعة والافتنان بها كما في وصف البستان والمنظرة ، وحاول أن يحسن القبيح ، إلى غير ذلك مما لا داعي للإفاضة فيه .  
وعلى الجملة نجد أن انفعالاته تتعدد بتعدد موضوعاته وأغراضه .

خياله : (١)

هل هو من النوع الابتكاري الذي يستحضر فيه الأديب صور أشياء لم يسبق له إدراكها في جملتها إدراكاً

(١) الخيال هو بالمعنى الخاص : استحضار صور لم يسبق إدراكها في جملتها إدراكاً حسياً فالصور المستحضرة على هذا المعنى لا بد أن تكون جديدة ومعنى بذلك أن يكون التركيب والتأليف بين العناصر المألوفة لاستخراج صورة غير مألوفة ومن هذا النوع إسناد الكلم إلى الحيوان والشعور إلى الجماد . أما التخيل بمعناه العام : فيقسم قسمين الأول التخيل الاستحضار

سياً ؟ ... وإذا كان كذلك فهل هو من النوع الابتكاري المطلق الذى لا يخضع لإرادة الأديب وليس له غرض مقصود معين ، ولا يتقيد بالماضى ولا بالمستقبل كما يحدث للإنسان حين يخلو إلى نفسه ويطلق لها العنان ، فتتوارد على ذهنه صور غريبة كأن يتصور نفسه صاحب منصب راق أو صاحب أموال وضياع ... إلى غير ذلك مما نسميه بأحلام اليقظة .

أو هو من النوع الابتكاري المقيد الذى يشعر فيه الأديب بأن له غرضاً مقصوداً يعمل على تحقيقه ، ويرتبط بالمستقبل كما يجول فى نفس الأديب عندما يتهيأ لنظم قصيدة فى موضوع خاص .

أو هو من النوع الابتكاري التقليدى الذى يستحضر فيه الأديب صورة صورها أديب غيره . وذلك كما يفعل الطالب حين يصغى إلى أستاذه وهو يصف له مدينة أو منظرأ رآه ، ثم يستعيد تلك الصورة (١)

ثم ما نوع هذه الصورة أمحسة أم معنوية ، وإذا كانت محسة فهل هى بصرية أو لونية ، أو مركبة أو صوتية ، أو جامعة لأكثر من ضرب واحد من هذه الضروب وهل الصور التى يأتى بها مبتدلة ؟ أو جديدة ؟ وهل هى قريبة أو بعيدة عن الإدراك ؟ وما مقدار توفيقه فى جمالها ؟ وهل تتناسب مع المعانى والأفكار العامة التى ترافقها أو تتنافر - وهل وفق بها إلى إثارة العواطف التى يريدتها ؟ (٢)

الواقع أن كل هذه الأنواع من الخيال من الممكن أن نجد لها أمثلة واضحة فى شعره فى قوله :

ألا فانتبه من أفتقها طلع الفجر - وحاشاك نم ، من وجهها ضحك الثغر  
هو الثغر إلا أنه الصبح طالماً على أنه الكافور لكنه الدر

اشتمل البيت الأول على صورة خيالية ابتكارية إذ جعل ابتسامة الحبيبة تملأ الدنيا نورا حتى خيات لصاحبها أنه الفجر قد طلع من أفق الدنيا ، وهى صورة بصرية فيها المبالغة التى كانت سمة من سمات ابن سناء والقاضى الفاضل ، وقد أكد هذه المبالغة المقابلة بين « انتبه » و « نم » وذكر كلمة « وحاشاك » إذ أنها أكدت المبالغة وأنه لا يجوز بحال أن يلتبس نور الثغر بنور الفجر إذ أن الأخير لا يمكن أن يدانى الأول ظهوراً وتألقاً وسطوعاً . وفضلاً عن ذلك فإن لفظة « انتبه » تذكر القارئ بأبيات كثيرة من الشعر القديم تحدثت عن زعر العاشق وخوفه من مفاجأة الصباح له واستيقاظ أهل الحى ، وجزع المحبوبة من أن يفتضح سرها ، واشفاقها على عاشقها أن يفتك به أهلها . (٣)

وفى البيت الثانى يرسم صورة خيالية لثغرها الضاحك فحين انفرج هذا الثغر أشرق منه الصبح مضيئاً مشرقاً ، تفوح منه رائحة طيبة كال كافور ، وهذه الأسنان مننظمة لامعة كأنها الدر فهذا خيال تصويرى جمع بين المراثيات والمشمومات واعتمد على الحسيات .

ويسمى التخيل التكرارى أو التصويرى ، والقسم الثانى هو التخيل الابتكاري وهو نفسه التخيل بمعناه الخاص وهو ثلاثة أنواع ١ - ابتكاري مطلق ٢ - ابتكاري مقيد - ٣ - ابتكاري مترجم أو تقليدى . فالأول كأحلام اليقظة والثانى علمى كتخيل المهندس وضع تصميم معين لبناء منزل . وفى كالألذى يجرى بنفس الرسام والأديب حين يريد أن ينظم قصيدة فى موضوع خاص وهو يتأثر بمزاج الشخص وعاطفته أما التخيل التقليدى فهو الذى يستحضر فيه الفنان أو الأديب صورة رسمها غيره (دراسات فى علم النفس الأدبى ٣٣ - ٣٨) .

(١) دراسات فى علم النفس الأدبى ٣٣ - ٣٨ .

(٢) الأدب العربى ونصوصه : نعم الحمصى و خليل هندوى : ٧ .

(٣) ابن سناء ومشكلة المقم : ٨٧ .

وقد جاء في هذه القصيدة قوله :

فلا تنكروا منها الخضاب فإنما هي الغصن في أطرافه الورق الأخضر  
فقد رسم الشاعر صورة جميلة لمحبوته فجعل قدها كالغصن ، ولما كان الغصن يوحى بالورق الأخضر فقد هياً  
له ذلك أن يلتمس تعليلاً حسناً للخضاب الأخضر في كفيها ، فالغصن تنتهي أطرافه بالورق الأخضر ولذا لا  
يجال لإنكار الخضاب في يديها لأنها كالغصن الذي ينتهي بالورق الأخضر وهو كما ترى خيال ابتكارى مقيد .  
وقد ضرب الشاعر في حسن التعليل بسهم وافر كما نلمس ذلك في كثير من قصائده ، وأنصت إليه إذ يقول  
في مدح الملك الناصر :

أرى كل شيء في البسيطة قد نما بعدلك حتى قد نمت أنجم السما  
تخالفت الأقوال فيه وجمجمت ولم نر قولاً في معاليك جمجما  
نراك نقلت الرمح في الأفق راكضاً فأبقيت زجا ثم ألقيت لهُدماً

فقد نظر الشاعر إلى النجم ذى الذؤابة في السماء فلم يدرك أن هذا ظاهرة طبيعية فلكية وإنما التمس لها تعليلاً خيالياً  
ذلك هو أن هذه الاستطالة وذلك النمو من عدل الملك الناصر ، ثم التمس تعليلاً آخر وهو أن البطل صلاح الدين  
قد رمى برمحه في الأفق فطار الرمح مسرعاً وانفصل منه الزج وهو طرف الرمح ليكون في ذيل النجم واللهلم  
القاطع من الأسنة ، فهذه الذؤابة في النجم الذى ظهر ليست إلا من أثر الرمح الذى ألقاه الملك الناصر فهو  
كالصاروخ وهو تعليل خيالى ابتكارى مطلق . ويبدو أن هذا التعليل لم يكفه ولم يرقه فالتمس تعليلاً آخر حيث  
قال :

وذا غلط من فكرتى إذ تخيلت وذا خطأ من خاطرى إذ توهمنا  
أبوك هو النجم الذى من محله تطلع مشتاقاً إليك مسلماً  
فذؤابة النجم هى يد والده التى مدها إليه من السماء ليسلم عليه ، وهى صورة خيالية أخرى من النوع السابق ،  
ونلاحظ من هذه العلل التى التمسها ابن سناء ميله إلى الغرابة واختراع المبتكر الفريد .  
وكثيراً ما يتسلط عليه خياله الاستدعائى فيشير بكلمة أو جملة إلى قصة تاريخية أو حادثة أدبية أو آية قرآنية .  
ولعل لثقافته الدينية أثراً كبيراً فى ذلك فيقول فى مدح الصاحب ضنى الدين :

وجنة مثل جنة الخلد فى الحسن ولكن بها الأحبة تصلى  
فالتشبيه فى الأول عادى لا غلو فيه ولا مبالغة ، وهو مألوف لدى السابقين ، ولكنه أشار بقوله بها الأحبة تصلى ،  
إلى قوله تعالى تصلى ناراً حامية ، وكقوله فى مدح العزيز :

قميصك الموروث عن يوسف ما جاء إلا صادقاً فى السدم  
فهو يشير إلى قصة يوسف وتلطخ إخوته قميصه بدم كذب . وفى نفس القصيدة يشير إلى غزوة بدر فيقول :

هى التى فى يوم بدر جرت لما رمى الله بها من رمى  
وفىها تضمين لمعنى قوله تعالى : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وقوله فى الغزل :  
يدافعنى عن وصله بتجهم فياليتـه لو كان يدفع بالتي  
وهو تضمين حسن لأنه أقرب إلى الفهم ويشير إلى مقصده بالمطافة والرقعة التى لا تخفى على القطن وقد ضمنه معنى  
قوله تعالى : « ادفع بالتي هى أحسن » .

وقوله في رثاء جارية له :

وزارتك غبا كنى يحسب مزارها      وبأ جهلها بالموت في ذلك الغدب  
وقد ضمه منى المثل السائر : « زر غبا تزد حباً » .

وكقوله في مدح القاضي الفاضل :

بل كنت تنقل عزة لكثير      في الحب أو ميا إلى غيلان  
وغيلان هو ابن عقبة الثقفي المشهور بذى الرمة ، وقد كان يهوى مية بنت طلبة بن قيس المقري .  
ويقول أيضاً : -

وقاوا لقد آتست ناراً بخده      فقلت وإنى قد وجدت بها هدى  
فقد اقتبس من القرآن الكريم في قوله تعالى : « إني آتست ناراً على أتاكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » (١)  
ويقول أيضاً : -

فجاءنا المسيح منه به يد الكليم  
ففي هذا البيت إشارة إلى قصة موسى وعيسى عليهما السلام وما جرى على أيديهما من معجزات .  
خلاصة :

- يميل ابن سناء إلى التجديد والابتكار في المعاني والصور فيستعين بخياله على الإتيان بصورة مفردة أو  
مركبة يوضح بها فكرته أحياناً ، ويدل بها على الشعراء الآخرين أحياناً أخرى .  
- ينحو بخياله أحياناً إلى ما تركه السابقون من ميراث خيالي فيستمد منه مع إلباسه ثوباً جديداً تارة ،  
أو اقتباسه كما هو تارة أخرى .

- نشده ثقافته الدينية والنحوية فيغترف خياله منها الفيض الغزير .  
- يتخذ من المبالغة والإفراط في التورية وحسن التعليل وسائل ومواد لخياله .  
- لم ينفرد ابن سناء بهذا المسلك فهو من مدرسة الكتاب التي دعا لإيها القاضي الفاضل ، والتي جعلت من  
الغرابة والمبالغة ، وأتلاعب اللفظي دعامتها .

أثر الفارسية في شعره :

كان لاختلاط العرب بالفارس في صدر الإسلام ، وزيادة هذا الاختلاط وتعمقه وامتداده . (٢) في العصر  
العباسي ، والثغاف القادة والوزراء والأدباء من الفرس حول الخلافة العباسية ، ونبوغ العلماء والكتاب من  
أبنائهم في علوم الدين واللغة - كان لذلك كله أثر واضح في الحضارة الإسلامية (٣) والفكر العربي والأدب  
شعره ونثره ، من حيث أفكاره وخیاله وتعبيره ، ومن حيث ظهور أغراض جديدة كالشعر العربي ، والغزل

(١) سورة طه آية : ٢٠ .

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية . ف بارتولد ، ترجمة حمزة طاهر طبع المعارف ص ٩٤ - ١١٤ .

(٣) تاريخ الفلسفة العربية . حنا الفاخوري و خليل الجر : طبع دار المعارف بيروت ص ٢٣ .

بالمذكر والتفني في الوصف ، وقد ساعد على هذا التأثير أن نفوذ الفرس السياسي بين فترة طويلة ، فكانوا هم الحكماء الحقيقيين ، وقد دفع التعصب لكل ما هو فارسي الشعراء العرب الذين يرجعون إلى أصل فارسي - إلى الافتخار بأصنافهم وبمعتقداتهم حتى جعل ذلك شاعراً (١) كأبي نواس: يقايل من شأن العرب فيقولون : -

يبكى على طلل الماضين من أسد لادرّ درك قل لي من بنو أسد  
ومن تميم ومن قيس ولفهما ليس الأعارب عند الله من أحد  
وبشار بن برد يباهر بزندقته وباتئانه إلى الجوسية وباتئانه إلى إبليس ، ويتهكم على العرب فيقول :  
إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار  
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار (٢)

وقد ظل الفكر الفارسي يترجم إلى العربية ، ويتأثر به الشعراء والأدباء حتى دفع هذا التزاوج عدداً من الأدباء العرب إلى تعلم اللغة الفارسية حباً في الاطلاع على أناقة اللفظ وجمال التعبير في لغتهما الأصلية من جهة ، ومجازاة لذوى النفوذ من جهة أخرى نعم إن الدوافع التي دفعت إلى تعلم اللغة العربية والحروف العربية وأوزان الشعر العربية (٣) كانت أقوى لأنها لغة الفتح ، ولغة القرآن ، ولأنها الطريق إلى رضا الخلفاء والأمراء ، ولكن الأدباء العرب أيضاً بعد أن اختلطوا بالفرس واتصلوا بالحضارة الفارسية انعكس أثر ذلك على حياتهم ، وشاعت الفارسية بينهم شيوعاً ترك أثره في تذكيرهم . وتسلل هذا عبر العصور والأزمنة حتى وصل إلى عصر ابن سناء الملك (٤) .

وكان ابن سناء الملك واحداً ممن أتقنوا الفارسية بجانب إتقانهم اللغة العربية حتى استطاع أن يضع خرجات موشحه بلغة فارسية ، وكان المصريون يقلدون الأندلسيين أو يضعون خرجات مغربية ، فلم يتقيد ابن سناء بما يتقيد به هؤلاء وقد قال في كتابه «فصوص الفصوص» : «وكنيت لما أوأعت بعمل الموشحات قد نكبت عما يعملهُ المصريون من استعارتهم لخرجات موشحاتهم خرجات مغربية ، فكنت إذا عملت موشحاً لا أستعير خرجة غريبة بل أبتكرها ، وأخترتها ولا أرضى باستعارتها ، وقد كنت نحوت فيها نحو المغاربة وقصدت ما قصدوه ، وأخترت أوزاناً وقعوا عليها ، ولم يبق شيء عملوه إلا عملته إلا الخرجات الأعجمية فإنها كانت بربرية ، فلما انتقي أن تعلمت اللغة الفارسية عملت هذا الموشح وغيره ، وجعلت خرجته فارسية بدلاً من الخرجة البربرية» (٥) فهو يقول في موشحه الذي مطلعُه : -

في خلدك من صير اللا ذئب الباسمين  
ودع ذا فياحيرة الواشي من ذا السحر المبين

(١) الشرق الأوسط في موكب الحضارة ج ٣ ص ١١٢ : محمد منصور أحمد .

(٢) ظهر الإسلام : أحمد أمين : ٤٩ - ٥٧ .

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية : ص ٩٩ .

(٤) التيارات المذهبية بين العرب والفرس ص ١٤٥ للدكتور أحمد الحوفي طبع الدار القومية للطباعة والنشر .

(٥) راجع فصوص الفصول وعقود العقول ، ١٨٣ المقم والابتكار في شعر ابن سناء .

حتى يصل إلى الخرجة بعد أن يمهدها فيقول :-

وخود كما شبت طفلة	كفـصـن مايس
أرادت أن تكون خلة	لظبي كانس
فمنما جنت منه قبلة	شدت بالفارس
دانستی کی بوسه بمن داد	دها أنكستريـن
أواركواى دست من باش	بيوسسته شـين

وهذه الخرجة الفارسية بمعنى : «هل تعرف متى قبلنى ؟ إن فمها ... كان شاهدى على هذه القبلة التى منحنتى إياها» . وابن سناء بهذا هو أول من جعل خرجة الموشحة فارسية ، وأول من ألف كتابا فى هذا الفن .

ومن تتبعنا ديوانه وجدنا كثيراً من الكلمات الفارسية والأخيلة الفارسية قد انبثت فى تضاعيف شعره دون تكلف ولا تعمد مما يدل على تمكنه من الفارسية وتعمقه فيها ، وإليك بعض الأمثلة التى تؤيد ما ذهبنا إليه :

قال يمدح القاضى الفاضل :

كيف طاف اللعاط بستان خد وعليه من صدغه زرفين  
فكلمة «زرفين» كلمة فارسية بمعنى حلقة الباب أو كل حلقة ، وقد جعل للخد بستانا ، اه باب هو الصدغ وعليه حلقة هى الزرفين وهذا خيال شاع فى الأدب الفارسى .

وكلمة «سبج» معناها فى الفارسية الخرز الأسود . وقد شبه بها العنبر فقال من قصيدة غزلية مطلعها :

بحقك حدث عن هوى ولا حرج هوى دخل القلب المعنى وما خرج

قال :-

نه سبج من عنبر فوق خده وتصحيفها فى عارضى وجهه سبج  
وكلمة «عجة» كلمة فارسية معربة ومعناها الطعام المصنوع من البيض ، وقد استعمل هذه الكلمة حين هجا الرضى فقال :-

رأيت الرضى وما ناه وما سلب الدهر من بهجته  
فأشبعنا الله من هجوه وجوعنا الله من عجته

وفى مقطوعته التى وصف فيها المنظرة يقول :-

وفى الصدر شاذروانها جفن ملعب لعفريه آثار طيف وأبطـل

فالشاذروان بمعنى «الفواره» أو «النافورة» وهى كلمة فارسية . وكلمة «مواخير» كلمة فارسية معربة جمع ماخورة وهى حانة الخمر وبيت القمار فقال :-

أقاموا بالمواخير مطاييعا مسـاخـير

وكلمة «نورز» كلمة فارسية معناها يوم جديد . «ومهرجان» عيد الفرس وهو اليوم السادس عشر من «مهرماه» وذلك عند نزول الشمس من أول الميزان . فيقول من قصيدة مدح بها الملك العادل أبا بكر بن أيوب :



وشب لبيب القلب إذ فاض مدمعى      فتورز طرفى إذ رأى القلب مهرجا  
 وهو يريد باليوم الجديد هنا أنه يوم حظ وتزهر .. «ونورز» الرجل استخفى من فزع .  
 وكلمة «دسكرة» بمعنى الصومعة ونبوت الأعاجم يكون فيها الشراب والملاهى . وقد جاءت فى قوله :  
 وهى للحسن جامع      وهى للسكر دسكرة  
 وكلمة «رستاق» كلمة فارسية بمعنى السواد والقرى ، «فرسته» معناها الطريق ، وهو يقول : -  
 خيم فيه ملك له الجسم رستاق  
 و «الفرصاد» هو شجر التوت الأحمر ، وقد شبه به حمرة خد الحبيب فقال :  
 قل لخد الحبيب عنى إلى غير صاد لحمرة الفرصاد  
 و كان شعراء الفرس يظنون أن الكتان يبلى فى الليالى القمرية ، فأخذ ابن سناء منهم هذا المعنى وأتى به فى قوله :  
 أبليت جسمك يا مليح ضنى      فالجسم كتان وأنت قمر  
 ومن صورته الخيالية التى رجع فيها إلى ثقافته الفارسية قوله : -  
 لم أنس إذ خدى على خده      فجاء من دمعى فوجات  
 فقال كف الدمع عن وجنة      فيها من الزخرف آيات  
 قلت ولم يا قاتلى قال لى      لا يدخل الجنة قتات  
 فالمعنى : لما كان خدى على خده ، وأحس بلل دمعى على خده قال لى : اكفف الدمع عن وجنتى لئلا يمحوا  
 الآيات المزخرفة والموشحة عليها ، ولما سألت سبب هذه الممانعة أجاب : إن خدى كمثل الجنة ودمعك المنسجم  
 بمنزلة القتات والنمام الذى ينم عن العشق ؛ وقد ثبت فى الحديث الشريف «لا يدخل الجنة نمام» فعليك أن  
 تكشف دمعك بالوصول إلى وجنتى . فهذه الصورة الشعرية غير مألوقة فى الشعر العربى بينما ترددت كثيرا  
 فى الشعر الفارسى وقد تأثر بها الشاعر على هذا النحو (١)

## « الموشحات وأثره فيها »

يروى تاريخ الأدب أن بلاد الأندلس هي المنبت الأول لفن الموشحات وأن غيرهم من أبناء العرب قد تعلموا هذا الفن على أيديهم ، وكان لحياة الترف والنعيم ، والاستمتاع بمباهج الحياة وزينتها ، والشغف بالطرب والغناء ، وتشجيع الملوك والأمراء كان لهذا كله أثر كبير في نشأة هذا الفن ، فظهر في أواخر القرن الثالث الهجري واكتملت معاملة في القرن الرابع الهجري ، وعرفه الشرق بعد ذلك ، ونبع فيه ابن سناء الملك في القرن السادس .

يختلف نظام الموشحة عن نظام القصيدة اختلافا كبيرا ، فالقصيدة تتفق فيها الأبيات في وزنها وقافيتها ، ويتكون كل بيت فيها من شطرين ، وهي تؤدي نغماً موسيقياً مؤلفاً موحداً من أولها إلى آخرها .

أما الموشحة فتتألف من مقطوعات تنقسم بدورها إلى قسمين : أقفال وأبيات والموشحة التامة هي التي تبدأ بالأقفال ، وهي أجزاء مؤلفة من مقطعين أو ثلاثة ، وتكرر ست مرات ، يفصل بين كل قفل منها بيت ، ويشترط أن تتفق الأقفال المتكررة في الوزن والقافية . وتكرر الأبيات في الموشحة خمس مرات ، ويشترط أن يتحد بعضها مع بعض في الوزن ، وعدد الأجزاء ، ويستحسن أن تختلف في قوافيها .

وإذا بدأت الموشحة بالبيت سميت «قرعاء» . وسوف أوضح ذلك بموشحة الأعشى النطيلي الأندلسي من وشاحي القرن السادس الهجري وهي من الموشح التام قال (١) :

صاحك عن جمان ، سافر عن بدر ، ضاق عنه الزمان ، وحواه صدرى	(١) (قفل)
آه مما أجد	شفتى ما أجد
قام بي وقعد	باطش مبتد
كنما قنت قد	قال لي أين قد
وانثى خوط بان ، ذا مهز نصر	عابته يدان ، للصبا والقطر
ليس لي منك بد	خذ فؤدى عن يد
لم تدع لي جلد (٢)	غير أنى أجهد
مكرع من شهد	واشتياقي يشهد
ما لبنت الدنان ، ولذلك الثغر	أين حميا الزمان ، من حميا الخمر (٣) (قفل)
بي هوى مضمر	أيت جهدى وفقه .
كلما يظهر	فؤادى أفقه
ذلك المنظر	لا يداوى عشقه
بأبي كيف كان ، فلكي درى	راق حتى استبان ، عذره وعذرى (٤) (قفل)

(١) راجع ٢٧ دار الطراز : ١٧٦ ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار .

(٢) هكذا في الأصل والتحقيق في دار الطراز ، وكان النصب واجباً (جلداً) .

هل إليك سبيل	أو إلى أن أئبسا
ذبت إلا قليل	عبرة أو نفسا
ما عسى أن أقول	ساء ظنى بعسى
وانتضى كل شان ، وأنا أستشري	خالعا من عنان ، جزعى وصبرى (٤) (بيت)
ما على من يلوم	لو تناهى عنى
هل سوى حب ريم	دينه التجنى (٥) (بيت)
أنا فيه أهم	وهو بنى يغنى
قد رأيتك عيان ، ليس عليك ساتدرى	سايطول الزمان ، وستنسى ذكرى (٦)

(قفل أخير ويسمى خرجة)

ولقد انتهت هذه الموشحة بالقفل الأخير ويسمى «خرجة» وقد رأيت أن أراشح لم يستعمل فى الخرجة اللغة العربية الفصحى ، لأنهم كانوا يفضلون استعمال العامية ، أو الأمثلة الشعبية ، وأحيانا يستعملون الكلام المرذول أو السخيف ، ولا يستحبون استعمال العربية الفصحى فى الخرجة إلا إذا كان موشح مدح .

وقد اشترطوا كذلك التمهيد للخرجة فى البيت السابق لها بحيث يجعل الخروج إليها وتبا ، واستطراداً ، وقولا مستعاراً على بعض الألسنة ، كما لا بد أن يشتمل البيت الأخير على كلمة قال أو قلت ، أو غنى أو غنيت ، أو غنت .

وقد وجد ابن سناء فى الموشحات تركية لنفسه وتفريقاً لذهنه ، فهمم بها عشقا ، وشغف بها حبا ، ومال إليها منذ نشأته الأدبية حيث أخبرنا بذلك فقال : «كنت فى طليعة العمر ، وفى رجيل السن ، قد هممت بها عشقا ، وشغفت بها حبا ، وصاحبته سماعا ، وعاشت بها حفظا ، وأحطت بها علما . واستخرجت خباياها ، واستطلعت خفاياها ، وقلبت ظهورها وبطونها ، وعانقت أبكارها وعونها ، وغصت على جواهرها المكنونة ، ونخبطت من أخبارها المعلومة إلى أسرارها المكتومة ، ولشت فيها من عمرى سنين إلى أن عرفت أن معرفتها تركية للعقل ، وتعديل للفهم ، وجهلها تجريح للطبع ، وتفسيق للذهن » . فكان ابن سناء يهيم بكل جديد ، ويغرم بكل مبتكر فريد ، ولذلك أنه اخترع عليه ويزيد . ولذلك لم يكفه أن علمها ، وعرف قواعدها وأصولها ، وجيدها ورديتها وإنما وضع فيها كتاباً اتخذ له اسماً يناسبها ، ويليق بها ، وينسجم معناها مع طبيعتها ، فأسماه «دار الطراز» .

### منزلة ابن سناء بين الوشاحين :

لقد حدثنا ابن سناء نفسه فى دار الطراز عن مدى ما وصل إليه فى هذا الفن ، وأنه قد نسج فيه على منوال المغاربة ، فسار سيرهم وحذا حذوهم ، بل إنه كان متواضعا حين بين أن موشحاتهم هى الأصل ودوشحاته هو كظللها فقال : «وكيفما كان فموشحاتى تكون لتلك الموشحات كظللها وخيالها ، وأشهد أنها ناقصة عن قدر كمالها ، وها أنت تراها فى الورق من الغرق متعلقة بأذيالها ، وما ذكرتها إلا لأن دار الطراز كما تقدم يكون فيها الحريرى والمذهب ، والساذج والمعلم ، فذكرت من موشحاتى الحريرى بل الساذج ، وإن لم يكن معلما فدحرج واعبر ولا تعرج » . وقد طلب أن نلتمس له العذر لأنه نشأ فى بيئة غير بلاد الأندلس تلك التى نشأت

فيها الموشحات : «اعذر أخاك فإنه لم يولد بالأندلس ، ولا نشأ بالمغرب ، ولا سكن أشيلىه ، ولا أرمى على مرسية ، ولا عبر على مكناسه ، ولا سمع الأرغن ، ولا لحق دولة المعتمد وابن صمادح ، ولا لقي الأعمى ، وابن بتي ، ولا عبادة والحصرى ، ولا وجد شيخا أخذ عنه هذا العلم ، ولا مصنفًا تعلم منه هذا الفن ، فإن رأيته قد نهض به طبعه ، وأخذ بيده ذهنه ، وأضاء له خاطره ، وهدته قريحته إلى الطريق ، ومشى فيها بلا دليل ، واستأنس بلا رفيق ، وجد إلى أن وجد ، وطلب إلى أن غلب ، فلا تجحد حقه ، واعرف له وزن فهمه ، ولطف ذهنه ، وحسن ذوقه ، وحسن غوصه ، وبعد غوره ، وقدر همته ، وإن رأيت تعليمه لك نعمة فاعرف له قدر نعمته ، وإن رأيت خطأ فكن له ساترا ، ولصاحبه عاذراً ، أو رأيت صواباً فكن له شاهراً ، ولفاعله شاكراً (١) .

فابن سناء وإن كان قد اعترف بادی ذی بدء بأنه نسج على منوال المغاربة والأندلسيين إلا أنه يرى أنه بذمهم وفاقهم بعد أن عرف ذلك وتعلمه منهم ، ولا ينبغي أن نغمطه حقه ، أو ننكر عليه سبقه . ونحن نتساءل هل أجاد ابن سناء في الموشحات حقاً ؟ وهل بز المغاربة والأندلسيين وفاقهم ؟ فلنستمع أولاً لرأى أستاذه القاضي الفاضل في موشحاته : —

### رأى القاضي الفاضل :

كتب ابن سناء بعض الموشحات في مدح القاضي الفاضل ، واطلع القاضي الفاضل على تلك الموشحات وموشحات غيرها ، وأبدى رأيه كماداته فيها ، وقد حوى دار الطراز بعض هذه الآراء .. لقد كتب ابن سناء إحدى الموشحات المسماة بالموشح الجللنارى ، وقفله يتألف من ست فقرات ، كل اثنتين منها على قافية واحدة فكان أشبه بالزدوج منه بفعل الموشح ومطلعه وهو القفل الأول : —

صرف كأسى جلناره (٢) . وهى بالزج بهاره  
فأدرها واسقنيها ، فى هوى من ريق فيها؛  
ن شراب الكأس أحلى ، ولهذا صار أغلى

وقد كتب فى ذلك القاضي الفاضل فقال : «وقفت فيه على موشح الجللناره ، فكان أحسن من الموشح الجللنارى ، الذى وقع زينة أعياد الخلفاء سابقا ، وأفضل فى نفاسة الجملة وفضيلة البقاء ، وما ينفك القاضي يغايظنا بهذه الملح ، وتومض عنه بروق تلك الملح ، وكم سألناه لإباحة معاقلها ، وجلاء عقائلها ، فيمتنع بها عن مواضع الفضل ، وإنما يمتنع من يخاف التبذل من البذل ، ومحاسنه لا يخاف عليها الملل ، ولا يتطرق إليها الابتذال ، ولا يختلط بزها بز ، ولا يوقع على مفصلها بحز » (٣) .

وكتب ابن سناء الملك موشحاً آخر فى مدح القاضي الفاضل مطلعه :

« دانت لى الدنيا وواصل الوصل »

ولما وصل القاضي الفاضل قال فيه : « وصل التوشيح الذى مدحني به القاضي السعيد ، فحلاني منه

(١) راجع دار الطراز : ٤٠ .

(٢) زهر الرمان .

(٣) فصوص الفصول : ١٧ .

بالعقد الموشح ، وجعلني به الراجح لا المرجح ، وما اكتفى بأن أحمل العرب حتى أحمل البربر ، ولا أن شاركهم في لغتهم حتى جعل نصيبهم الأصغر ونصيبه الأكبر . فبخ بخ للبيت الذي شددت به دعائمه ، وقامت بمحاسنه إلى يوم القيامة قوائمه ، فوالله لقد أتى لكم يا سلفه بذكره ذكر آفي الغابرين ، ولسان صدق في الآخرين ، ومن ولده فما يموت ، وسيتبقى بأقواله بيته إذا خربت البيوت ، وكل بيت لا يلد مثله فهو أوهى وأوهن من بيت العنكبوت (١) فالقاضي الفاضل يرى أن ابن سناء قد فاق في هذا الموشح العرب والبربر ، بل والأندلسيين . وأمام هذا الرأي سنقف لنوضح رأينا في نهاية هذا المطاف .

## الموشحات والفناء :

ويقول ابن سناء إن موشحاته كانت تغنى ، وكان يعرفها الرجال والنسوان ، وترنم بها الشيوخ والشبان ، فكتب إلى القاضي الفاضل يقول له عن موشحه : « إن أقدامه لو لم تسيره إلى موضع مولاه سار إليه بأفواه الأنام ، وما ترنمت به ألسنة الأيام ، لأن كل موشح عمله المملوك في مولاه قد طار ، وطبق الأقطار ، وسرى وسار ، وعاد سلك در المسار ، وأديرت عليه الأكواب ، وخرقت فيه الثياب ، وشدا به الرجال والنسوان ، وترنم به الشيوخ والشبان ، وصار تحفة الجليس وتحية الندمان » :

وسار به من لا يسير مشمراً وغنى به من لا يغنى مغرداً

وكم من عروس غنى به فلها عن عرسه ، ومجلس شدا فيه فألمى النديم عن كأسه وأنسه . وكم صوفى سمعه فقام إلى لوه من قعوده ، وعواد غنى به فرأى في التطوق غاية سعوده من عوده ، وما سارت هذه الموشحات لحسنها ولا سيرت ، ولكن لإحسان من توشحت بذكره وتصورت ، ولا عبق نشرها لطبيها وإنما لفضل من تمسكت بحديثه وتعطرت ، وما عظم الناس قائلها إلا لعظم من قالها فيه ، ولا أطرب حديثها الأسباع إلا لأن مدح مولانا من قوافيه :

ولذا الفتى الممدوح أنجح سعيه في نفسه ونداه أنجح شاعر

ولكن هل كانت تغنى موشحاته حقاً ؟ وهل ظفرت موشحاته في حياته بتلك المنزلة التي حدثنا عنها لقد حدثنا « صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدى » في كتابه « توشيح التوشيح (٢) » عن اشتهار بفن التوشيح من أهل البلاد فقال ومن أهل الديار المصرية القاضي السعيد هبة الله بن سناء الملك ، وهو حامل راية هذه الصناعة ، والناس عليه فيها عبال ، وذكر غيره من الشعراء الذين عرفوا هذا الفن مثل : نصر الدين بن قلاقس الاسكندرى ، والأسعد ابن مماتى ، وابن وزير ، وابن المنجم ، والسراج الوراق ، وابن سعيد بن المغرب ، ومظفر الأعمى وغيرهم من شعراء الشام ، ولكنه لم ينبعث أحداً منهم بما نعت به ابن سناء .

وكذلك قال أبو الحسن على بن سعيد المتوفى سنة ٦٨٥ هـ في كتابه « المقتطف من أزاهر الطرف » فقد أثنى على ابن سناء الملك ولم يثن على أحد غيره من المشاركة ، فقال : « وأما المشاركة فالتكلف ظاهر على ما عانوه من الموشحات ، فأحسن ما وقع لهم من ذلك موشحة ابن سناء الملك المصرى وقد اشتهرت في الشرق الغرب . ومطلعها :

(١) راجع فصوص الفصول ورقة ١٤ .

(٢) راجع : ١٩٢ : ابن سناء الملك ومشكلة العثم والابتكار نقلا عن مخطوط الاسكوريال رقم ٤٣٨ .

حبيبي ارفع حجاب النور ، عن العذار  
يقطر بمسك على كافور ، في جلنار

ولكنه لم يئن على غير هذا الموشح من موشحاته .

وبعد : فإننا حتى الآن لم نشف غلة القارئ ولم نصل إلى حكم صحيح بالنسبة لموشحات ابن سناء ، وهل كان كما قال هو عن نفسه أو كما قال القاضي الفاضل فيه ، أو كما نعتة الصفدي وابن سعيد ؟  
للإجابة عن هذه التساؤلات يجب أن نعرض بعض النماذج له ولوشاحي الأندلس الذين حذا حذوهم ثم بعد ذلك نصل إلى الحكم الصحيح :

قال الأعشى التطيلي وهو من الأندلس :

عاش في مبدأ القرن السادس الهجري

ضاحك عن جمان ، سافر عن بدر ، ضاق عنه الزمان ، وحواه صدرى

آه مما أجد شفى ما أجد

وقد سبق أن ذكرنا هذه الموشحة كلها ، وهى من الموشح التام وقد نسج ابن سناء على منوالها فقال :  
« وهو من الموشح التام »

أراه يا هند أحلى منك ، فى القلب والعين	من أين يا بدوى الترك ، أتيت من أين ،
وأين ذاك العذار السائل	أين لهذا القوام المائل
وورده ناضر فى ذابل	قد نقصت وهو بدر كامل
وخصره بالضنا والضنك ، ينقد نصفين	والعقد فى فيه مثل السلك ، وقده لين
كنه الملاحه معنى الطيب	معذبى طيب التعذيب
سوى الغرام به يغرى بى	يشب فى وصفه تشيبي
إلا هواه عدو النسك ، فإنه زين	فلاتكن فى الهوى فى شك ، إن الهوى شين
ومطلع الشمس فى أطواقه	بأيها البدر فى إشراقه
يا من تجنى على عشاقه	بأيها الغصن فى أوراقه
بالسفع أدمعهم والسفك ، والعين كالعين	رميت أستارهم بالهتك ، فى موقف البين
نصل بعينيك لا كالنصل	إن الذى منك أحيأ قتلى
والسحر فيه مكان الصقل	يسل من كحل لا كحل
ملكته منه سرير الملك ، بالحق لا المين	ترجى الحياة به بالفتك ، والعيش بالحين
صادف منه غليل مشرب	هيهات مالى عنه مهرب
وإن شربت عليه فاشرب	فاسمع لما قد جرى واطرب
لولا تخاف أنه ، منى يبكى لبستوميتين	دفع لى بوسه فميم المسك ، فبستوثنتين

فقد سار ابن سناء على منهج الأعمى التطيلي في هذا الموشح فبدأ بالقفل ، وانتهى به ، وكرر البيت خمس مرات وهذا هو الموشح التام . وقد غنى بإبراز الصفات المادية لبدوى الترك الذى هام به فغلب على غزله الطابع المادى الذى أبرز فيه قوامه المائل ، وعذاره السابل ، وبدره الكامل وورده الناضر ، وقده اللين ، وخصره الناحل : . وختم الأبيات بالكلمات العامية .. وقد زاد عن الأعمى التطيلي في إبراز تلك الصفات المادية ، بينما أبدى التطيلي لفته العارمة ، وهواه المضممر ، وتعلقه به ، ورغبته في لقائه ، وأمانيه الشديدة في الوصول إليه ، وسوء ظنه في الرجاءات المستمرة .. وهذا هو الفارق الأساسى بينهما .. أما الشكل والطابع العامين فواحد فيهما .

وقال عبادة بن ماء السماء ، وهو شاعر أندلسى لمع نجمه أثناء حكم العماريين توفى سنة ٤٢١ ١٠٣٠هـ م (١)

بأبى علق	بالنفس علق
هويت هللا ، فى الحسن فريداً	أعار الغزالا ، ألاحظا وجيدا
وتاه جمالا ، لم يبع مزيدا	بدر يتلأأ ، فى حسن اعتدال
زانه رشق	والقد رشق
بدر يتغلب ، بالسحر المبين	عذار معقرب ، على ياسمين
سوسان مكتب ، بورد مصون	لما لاح يسحب ، ذبول الجمال
عن لى خلق	بالعشق خليق
جفانى يعيش ، لوفى عليه	لوالنفس ريش ، لطرت إليه
للحسن جيوش ، على مقلتيه	واللحظ المريش ، بالسحر الحلال
فله مشق	والقلب مشوق
تعمد هجرى ، مذ دنت بوده	وبددت صبرى ، على طول صده
ماء الحسن يجرى ، بصفحة خده	ثناياه تترى ، بنظم اللآلى
فمه حق	بالثم حقيق
لما أن تسربل ، ثوب الحسن زياً	أردت أقبل ، لماه الشهيا
فقال تمثل ، بالشعر أيبا	ومال تدلل ، بأحلى مقال
أنا قول قوقو	ليس بالله تذوقوا

وهذه موشحة شاذة في نسجها لأن أفعالها قد اختلفت في وزنها ، فالقفل الثانى والثالث قد اتحدا في الوزن ولكنهما خالفاً الأول والرابع ، ولهذا عدها ابن سناء من الموشحات الشاذة .

والواقع أنه خالف في ذلك نفسه إذ يمكن وضعها تحت القسم الثانى الذى لا مدخل لشيء منه في شيء من أوزان العرب (٢) ، وحيث لا يكون ثمة معنى لوصفها بالشذوذ . وقد أورد ابن سناء موشحاً مبدوعاً بيت من الشعر (٣) ، ونسج على منواله في البدء ببيت من الشعر وسنورد كلا منهما .

(١) راجع المقرئى ج ١ ص ١٨٧ ، الذخيرة لابن بسام ج ٢ ص ١-٣ ، ودار الطراز : ١٥٢ .

(٢) دار الطراز ص ٣٥ .

(٣) نسب بعض مؤرخى الأدب هذه الموشحة لابن المعتز ولكن ابن سناء أوردتها على أنها موشحة أندلسية ولم ينسبها

لقائلها .

أبها الساق إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع  
ونديم همت في غرته  
وشربت الراح من راحته  
كلما استيقظ من سرته  
جذب الزق إليه واتكى (١) وسقاني أربعاً في أربع  
مالعني عشيت بالنظر  
أنكرت بعدك ضوء القمر  
وإذا ما شئت فاسمع خبري  
عشيت عيناى من طول البكا وبكى بعضى على بعض معي  
غصن بان مال من حيث التوى  
مات من يهواه من فرط الجوى  
خفق الأحشاء موهون القوى  
كلما فكرنى البين بكى ويحه يبكى لمالم يقع  
ليس لى صبر ولاى جلد  
يا لقومى ، عدلوا واجتهدوا  
أنكروا شكواى مما أجد  
مثل حالى حقه أن يشتكى كمد اليأس وذل الطمع  
كبد مرى ودمع يكف  
يعرف الذنب ولا يعترف (٢)  
أبها المعرض عما أصف  
قد نما حبك عندى وزكا (٣) لا تقل فى الحب إنى مدعى (٤)  
وقد نسج ابن سناء موشحاً شعرياً أيضاً جعل قفله بيتاً من الشعر فقال :  
يريك إذا تلفت طرف شادن سقيما وعما عنه تبسم المعادن نظما  
براه الله من حسن وطيب حبيب كل ما فيه حبيب  
أعاد شيبتي بعد المشيب وأمسى مسقى وغدا طيبى  
وخيم فى ضمير القلب ساكن مقما ولم تزل القلوب له مواطن قديما  
جفتنى كل لائمة ولايم عليه لأن عذرى فيه قائم

(١) وفى العروض العمل لنهاد التكريتى : « الكأس » ص ٩٢ .

(٢) وفى العروض العمل لنهاد التكريتى : « يذرف الدمع ولا يندرف » ص ٩٣ .

(٣) وفى المصدر السابق : « قد نما حبى بقلبي وزكا .. » ص ٩٣ .

(٤) دار الطراز ٣٣ - ٧٣



وريم مايس العطين ناعم	نعمت به وأنف الدهر راغم
بغصن أجتني منه ولكن نعما	يحييني بهاتيك المحاسن ندما
يذكرني المدام فأشتهيها	وأشربها فتسكرني يديها
كأن حبيب قلبي كان فيها	وتجعلني رشيداً لاسفيها
تحرك من شمالي السواكن كربما	وتحي من مسراق الدفاين رميا
يطوف بها على أغن أحوى	يراه الصب عطشان فيروى
ومن جحد الهوى كبرا وزهوا	فإني والهوى قسما لأهوى
غزالا فاتر الأجفان فاتن وسما	عليه رونق للحسن باين وسما
يجرد طرفه وهو المشيح	سكاكينا تبيح وتستبيح
لها في كل جارحة جروح	فكم جرحت وأنشدت الجريح
أيا من لم تدع منه السكاكين سليما	متى تغدو بعشاق مساكن رحيما (١)

وقد لوحظ أن الأبيات من وزن واحد هو الوافر «مفاعلتن مفاعلتن فعول» أما الأفعال فقد زاد فيها على الوافر تفعيلة في آخر كل شطر منها فأصبحت أجزاؤه ثمانية بدلا من ستة مع ارتكاب مخالفات في الوسط كالتسكين والحذف مما أخرجه عن الوزن ، وأفقده النغم الموسيقي المألوف .

وقد مدح ابن سناء القاضي الفاضل بعض الموشحات . ووضعها تحت عنوان «مخترع الأوزان» ، بمعنى أنه اخترع أوزانا لم يسبق إليها من الأندلسيين فقال يمدح القاضي الفاضل :

أرى نفسي لقلبي واهبه ، ولم تحفل بحسن العاقبة ، فأحداق المها  
أشارت بالغرام ، وعصيان الملام  
فقاتل مهجتي ، نعم يا منيتي ، نعم أنت اتى  
بها دار الهدى دار النعيم ، ومن أسقامها برء السقيم  
أتانى اللوم فيهم ثم زال ، وصاد جوانحي منهم وصال  
غزال منه يغتاز الغزال ، ومنه ناله ذاك الهزال  
وشمس الأفق منه شاحبة ، وقد يغنيك عنها غايبه ، وينسبك اسمها  
كذا بلر التمام ، تراه بالسقام ،  
كثيب الوجنة ، كثير الكلفة ، قليل البهجة  
وتحسب أن عرجونا قديم ، كغصن في غلاينه قويم  
سقاني من أنامله بكاس ، وحيامن عذاريه بآس  
وماس فغاب عني كل باس ، وبى ماغاب عنه أبو واس

فخذها منه شمساً ذابيه ، وقبلها شمولاً شايه ، ودع من ذمها

فما يحيى سوى شرب المدام ، ودر القهوة ،

وأصل النشأة ، ببعض النشوة ،

فلا تشرب سوى كأس النديم ، ولا تملح سوى عبد الرحيم

وزير ما عليه من وزير ، كبير فضله فضل كبير

يسر الدست منه والسرير ، وسأني قد وقعت على الخبير

له نعم تراها راتبه ، تطوقها الخلائق قاطبه ، ويبتى وسمها

بأعناق الأنام ، كأطواق الحمام

وكم جود فقى ، يحيى في العسرة ، ويأني كالأني

بأمره يقيم ولا يريم ، فيشهد أن صاحبه كريم

أني مني الموشح لا القصيد ، يهنيه هذا العام الجديد

فدام له به الظل المديد ، وجد الأوياء به سعيد

وآمال الأعادي خايه ، تسير جحيم غيظ لاهية ، وتبدى همها

وعمر ألف عام ، يعز لا يرام ، رفيع الذروة

عزيز القدره ، قدير العزّه

تبلغه السعادة ما يروم ، وتجري بالذي يهوى النجوم

ومشغوف يعرض بنائيه ، بغانية معشقة إليه

رماها الدهر يوماً في يديه ، فغناها بما رقصت عليه

يانانا المليحه غالبه ، يانانا لقلبي سالبه ، شكتني لمها

وقالت ذا الغلام ، لقيني في الظلام

فقطع شفتي ، وخرق حلتي ، وخرق حزني

وما أصبح في ما تقدره قوم ، فنستعدي على هذا المشوم (١)

بعد هذا الاستعراض ينبغي أن نجيب على ما قدمنا من أسئلة ، ونقف على نواحي التجديد التي أتى بها ابن سناء الملك في موشحاته .

أما ما ذكره من أن موشحاته كانت تغنى فلا نستطيع أن ننقض هذا القول لأننا إذا تتبعنا الخيال الشعري في هذه الموشحات ، وتقسيمها إلى فقرات قصيرة ، وتنوع الأوزان والقوافي فيها أدركنا أنه كان صادقاً فيما ادعاه ففيها جهد فني وصنعة ونحو ذلك مما كان يتنافس فيه شعراء ذلك العصر وكتابوه وقد شهد له بهذا السبق عدد من المؤلفين كما ذكرنا سابقاً . فموشحته الثامنة التي يتغزل فيها ببديوى الترك ، وتدفعه اللهفة أن يسأل من أين أتى ، ويحمده أحلى

من هند في القلب والعين ويتغزل في قوامه المائل ، وعذاره السابل ، وورده الناضر ، وقده اللين ، وخصره الناحل ، ويدكر تعذيبه الجميل له ... ثم ينتهي إلى مناجاته بأنه البدر في إشراقه والشمس تطلع من أطواقه ، وكأنه الغصن اللين في أوراقه ، وأنه تجنى على عشاقه وهتك أستاره ، ساعة الفراق ، فسمعوا دموعهم ، وكانت عيونهم كالعين الجارية وجعل عيونه ينفذ منها السهام القاتلة كالنصل ، والكحل فيه قائم مقام الكحل ، والسحر فيه مكان النصل .

وانتهى إلى خرجة جميلة فقد دفع له بوسه فباسه بوستين ولولا الملامه وخوف بكاه لباسه ميتين .

فلا شك أن هذه المعاني مما تحسن في الأغاني والأناشيد ، ويجعل بها التغريد والترديد ، وهي صالحة اليوم في وسط الزحام من الشعر العاطفي الذي يغني اليوم ويردد لأن تغنى وتجيد المعجبين والمصفقين . والملاحظ أنه جرى في هذه الموشحة على نمط الوشاحين الأندلسيين ، وأن موشحاتهم كما هو معروف كانت تغنى وتردد ، وأن أوزانها والتنويع في مقاطعها وفي قوافيها كان يساعد على هذا الغناء ، ولذا كانت معظم موشحاته — التي جرى فيها على نمط الموشحات الأندلسية — تغنى .

أما موشحاته التي اخترعها والاختراع عنده كان شكلياً لا أساسياً فهو قاصر على انزيادة في بعض الفقرات ، والتغيير في الخرجة . فقد أحصى بعض الموشحات فوجد أن القفل فيها لا يزيد عن ثمانية مقاطع فزاد فيه حتى وصل به إلى عشر مقاطع كالموشحة التي مدح بها القاضي الفاضل فقد بدأها بالقفل التالي وهو مكون من عشر مقاطع : ( ١ ) أرى نفسى لقلبي واهبه . ( ٢ ) ولم تحفل بحسن العاقبة . ( ٣ ) فأحداق المها . ( ٤ ) أشارت بالغرام . ( ٥ ) وعصيان الملام . ( ٦ ) فقالت مهيجتى . ( ٧ ) نعم يا منيتي . ( ٨ ) نعم أنت التي . ( ٩ ) بها دار الهدى دار النعيم . ( ١٠ ) ومن أسقامها براء السقيم .

وقد كرر هذا القفل ثمان مرات ملتزماً بالقافية وإن خالف في عدد كلمات المقطع أحياناً فانظر القفل الثاني : ( ١ ) وشمس الأفق منه شاحبه . ( ٢ ) وقد يغنيك عنها غايه . ( ٣ ) وينسبك اسمها . ( ٤ ) كذا بدر التمام . ( ٥ ) تراه بالسقام . ( ٦ ) كئيب الوجنة . ( ٧ ) كثير الكافة . ( ٨ ) قليل البهجة . ( ٩ ) وتحسب أن عرجونا قديم . ( ١٠ ) كفصن في غلايله قويم .

فقد تكرر القفل على هذا النحو متحداً في الفقرات العشر من جهة ، وفي القافية التي ينتهي بها كل مقطع من جهة أخرى ، ولم يقع ابن سناء في الموشحات التي تركها الأندلسيون على مثل ذلك ، فالتجديد عنده في الكم . أما من ناحية الوزن فقد جعل أساس هذا الوزن هو بحر الوافر — مفاعلاتن — مفاعلاتن — فاعول . ومنه جاءت الأبيات وكذلك الفقرتان الأوایان والأخيرتان من القفل . وقد سكن كل قوافيه فتصير « فاعول » بتسكين اللام ، وإذا لم يوجد المد تصير « فعل » بحركتين وسكون . وهذا الوزن لاشك أنه لا يحول بين الموشحة وغنائها بل إن الفقرات القصيرة وما فيها من تنوع وإن كانت مقاطع القفل كثيرة تساعد على الغناء .

بقي أن نشير إلى خرجة هذه الموشحة وكان ابن سناء يعنى بالخرجة لأنها أهم ما في الموشح وهي كما قال : « العاقبة وينبغي أن تكون حميدة ، والخاتمة بل السابقة وإن كانت الأخيرة ، وقولي السابقة لأنها التي ينبغي أن يسبق الخاطر إليها ، ويعملها من ينظم الموشح في الأول ، وقبل أن يتقيد بوزن أو قافية ، فكيف إذا ما جاءه اللفظ

والوزن خفيفاً على القلب أنيقاً عند السمع .. بنى عليه الموشح لأنه قد وجد الأساس ، وأمسك الذنب ونصب عليه الرأس « (١) .

وقد وجدنا أن ابن سناء قد مهد للخرجة بهذا البيت :

ومشغوف يعرض بنانتيه بغانية معشقة إليه  
رماها الدهر يوماً في يديه فغنّاهما بما رقصت عليه

وقد خالف ابن سناء ما شاع عند الأندلسيين من أن المرأة هي التي تغني ف يجعل الرجل هو المغني وجعل المرأة ترقص على هذا الغناء . وقد كانت الخرجة شكاة من الرجل لأمه التي عبر عنها « بنانا » . فشكا لأمه أن محبوبته غالبية ، وأنها سلبت له ، ومع ذلك شكته لأمها قائلة لها : إن هذا الغلام ، قابلي في الظلام ، فقطع شفتي ومزق حلتي ، وقطع حزقي ، وما اقدرتش أقوم ، وأدفع هذا المشنوم .

وعلى حسب ما وضع ابن سناء للخرجة من شروط ، وأنها تكون بالعامية ، وأنها هي قمة الموشحة فإن هذه الخرجة — على الرغم مما يراه الدكتور الأهواني من أنها مسروقة — إلا أنها صورة شعبية طريفة ، وأنها تعطى الموشحة جمالا في التنعيم والترديد ، وأن ماورد مشبها لها على لسان ابن بقي كقوله :

قم فاستمع لخود كعاب  
تشكو الذي اقتضى من عناب  
تمزيق شعرها والثياب

ففرق واضح بين هذه وتلك وإن كانت هذه أوحى بالفكرة إلا أن التعبير والاسترسال في المعنى والتفريع عليه ، واللقاء وتمزيق الثياب ، وخرق الحزة وغير ذلك فهو من المبتكر الجميل .

ولا نستطيع أن نغمط ابن سناء حقه في عصر وفي ظروف لم يستطع غيره أن يصل في هذا الفن إلى ما وصل إليه ، وبالطبع لن تكون موشحاته في قوة الموشحات الأندلسية ولا في روعتها ولكنها على أي حال ثمرة شهية في مصر في ذلك التاريخ ، ويكفي أنه فتح الطريق لمن أتى بعده كنصر الدين بن قلاقس ، والاسكندري والأسعد بن ممان ، وابن وزير ، وابن المنجم ، والسراج الوراق ، وابن سعيد المغربي ، والنصير الحمامي ، ومظفر الأعشى .. فكل هؤلاء فيها عيال وهو القوى . كما رأى ذلك صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ (٢) .

---

(١) دار الطراز ص ٣٢ .

(٢) راجع موضوع الموشحات في كتاب ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار للدكتور الأهواني فقد عالج هذا الموضوع علجا مستفيضا .

## تأثر ابن سناء بالشعراء :

بمن تأثر وفيمن أثر :

كان الشعراء الجاهليون يصدرون في شعرهم عن الحياة ، وما تمليه عليهم من أحداث ، ولم يكن للزاد الثقافي كبير أثر في شعرهم ، فلما كثر رصيدهم من الشعر ، ويسر تقدم العلم والمعرفة وسائل التسجيل والتدوين ، وأصبح في العصور الأدبية المتعاقبة زاد كبير ، وفيض عظيم من التراث الأدبي لم يقنع الشعراء بما يستمدونه من أحداث الحياة ووقائعها بل اطلعوا على آثار من سبقهم ، فالتخذوا منه مدداً وعونا ، وتأثروا به تأثيراً متفاوتاً ، فأبن سناء شاعر من أولئك الذين اغترفوا من الثقافة العربية ولم يدعنا نستنبط ذلك بأنفسنا بل دلنا على بعض من جعله رمزاً للتفوق الأدبي والتمس من أدبهم في أفكاره ومعانيه وبديعياته ما يعزز اتجاهه الأدبي .. فهو يبدى تعجبه بابن المعتز ، وتأثره العميق به فحين اعترض القاضي الفاضل على استعماله « يعزل بيت الوجه منه ويكنس » فأجاب ابن سناء : « وعلم المملوك ما نبه عليه مولانا من البيت الذي أراد أن يكنسه من القصيدة وهو : « صلينى ... » وقد كان المملوك مشغولاً بهذا البيت مستحلياً له متعجباً منه ، معتقداً أنه قد ملح فيه ، وأن قافيته أميرة ذلك الشعر وسيدة قوافيه وما أوقعه في الكنس إلا ابن المعتز في قوله في قصيدته المشهورة : -

وفؤادى مثل القناة من الخط وخدوى من الحيتى مكنوس

والمولى يعلم أن المملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرجل ويتعثر ، ويطلب مطالبه فتعسر عليه وتتعذر ، ولا مال للمملوك إلا إلى طريق من مال إليه طبعه ، ولا سار قلبه إلا إلى من دله عليه سمعه (١) »

وكذلك كان صنيعه كثيراً مع أبي الطيب المتنبي ، ويبدو أن شدة إعجابه به ، وتمثله شعره دفعت به إلى الأخذ منه كثيراً فالمتنبي يقول : -

لا تحسبن الجبد تمراً أنت آكله لن تبلغ الجبد حتى تلحق الصبرا

فيقول ابن سناء : -

والجبد مر طعمه لا تحسبن الجبد تمراً

ويقول المتنبي :

فلم يبق إلا من حماها من الطي لمى شفتيها والثدى النواهد

فيقول ابن سناء :

ولم يبق إلا من سبي الجيش منهم وإن كان يسبي الجيش بالخدق النجل

وقد علق على ذلك ابن جبارة قائلا : أين هذا البيت من المسروق منه !! ولكن ابن جبارة يتعنت في نقده  
ويبالغ في الزرابة بابن سناء وبيت ابن سناء يشبه أيضا قول أبي دلف العجلي في المعنى :  
إذا رجعنا بأسرى من سراتهم نالوا التراث بلحظ الأعين النجل (١)  
ويقول المتنبي أيضا : —

إذا ضربت في الحرب بالسيف كفه تبينت أن السيف بالكف يضرب  
فأخذه ابن سناء وقال : —

فلا تحسبوا بالكف جرد نصله ولكنه قد جرد الكف بالنصل

ومن نافلة القول أن نقرر تأثره بالقاضي الفاضل ، فقد كان القاضي الفاضل له معلما وأستاذاً يتقده شعره ،  
ويرسم له الطريق ، ويأخذ بيده إليه ، وكان دائم التشجيع والمساعدة له ، وكتاب «فصوص الفصول» يخرى عديد  
الرسائل بين القاضي الفاضل وبين ابن سناء أو أبيه وجلها في تقرير قصيدة ، أو نقد فكرة آمن بها ابن سناء ،  
أو في توجيهه أو إرشاد .. إلى غير ذلك ، فلا غرو أن نجد الأصول الفنية والمعنوية التي رجع إليها ابن سناء حين  
كان ينظم قصائده أو يكتب رسائله هي الطريقة التي كان يؤثرها القاضي الفاضل ويدعو إليها . ولذا شغف  
ابن سناء بحسن التعليل ، والمفارقات وبإيراد ما يشبه القضايا المنطقية ، والحجج العقلية ، كما ظهر ولعه بالجناس  
والطباق ، وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك في الفصل السابق ، ولم يكن عفواً ما قيل من أن ابن سناء من مدرسة  
القاضي الفاضل فكل خصائص تلك المدرسة تظهر بجلاء في فن ابن سناء مع ما حدث من إفراط في استخدام  
تلك الخصائص من تلاعب لفظي ، وولع بالزينة البيديعة ، وإغراق في المبالغة .

ولقد تأثر ابن سناء بكثير من الشعراء الذين قرأ قصائدهم ، واطلع على أدبهم ومن هؤلاء امرؤ القيس ،  
ومهيار الديلمي ، وجريز ، والشريف الرضي والتمني وأبو العلاء المعري ، وأبو المتاهية ١٣٠ هـ - ٧٤٩ م ،  
كما أعجب بالبحترى ، وعاب أبا تمام ، وقد انعكس ذلك على شعره ، فعندما مدح القاضي الفاضل قال في  
مقدمته الغزلية :

سحبت ذيل دموعي لإثره وغدا سواي يسحب أذيالا على الأثر  
ألا تجد أنك أمام تلك الصورة التي أتى بها امرؤ القيس تماما في قوله :  
خرجت بها أمشي تجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرحل  
فالصورة تكاد تكون واحدة وإن اختلفت العبارة .

وقد ظهر تأثره بقصيدة مهيار الديلمي التي يمدح فيها أبا القاسم في يوم المهرجان والتي مطلعها : —  
ما كان سهما غار بل ظبي سنج إن لم يكن قتل الفؤاد وما جرح  
فعندما مدح ابن سناء القاضي الفاضل وهناه بالقدوم من السفر قال : —

يا قلب ويحك إن ظبيك قد سنع ففتح جهدك عن مرابعه تنح  
وكانت العرب تتفاعل بالطير السانع الذى يتجه صوب اليمين ، وتشاءم بالبارح الذى يتجه صوب الشمال ،  
وفى المثل : «من لى بالسانع بعد البارح» . وقد جرى فى هذه القصيدة على نهج قصيدة مهيار .

وقد تأثر بجرير فى غزله فاختر بعض أفكاره التى أعجب بها ، وأخرجها إخراجاً جديداً فقوله : -  
دع قضب نعمان أو كئيبان يبرين ما قلب القلب إلا أعين العين  
وقد تعشق قلبى من بنظرته يمينتى وبأخرى منه يمينتى  
مأخوذ من قول جرير الذى عده ابن رشيق فى عمدته أغزل بيت قائته العرب :

إن العيون التى فى طرفها حور قتلنا ثم لم يمين قتلنا  
يقتلن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا  
غير أن ابن سناء قد أخذ المعنى وزاد عليه فجعل نظرات المحبوب تحي وتميت بينا جعلها جرير تميت فقط .  
وقد عارض قصيدة الشريف الرضى التى مطلعها : -

يا ظبية البان ترعى فى خمائلها ليهنك اليوم أن القلب مرعاك  
فقال قصيدته التى مطلعها :

يا منية القلب لولا أن يقال سلا لقلت ما كنت أعصى العذل لولاك  
ولم يكتف بالمعارضة فى الوزن والقافية ، ولكنه أخذ كثيراً من معانى القصيدة فقوله : -  
رميت من مصر قلبا بالمشأم فما أسراك سهما إلى أحشاء أسراك  
مأخوذ من قول الشريف :

سهم أصاب وراميه بذى سلم من بالعراق لقد أبعدت مرماك  
وقرأ ابن سناء لأبى العلاء المعرى وتأثر ببعض معانيه فقال يدم الشمس  
أنت عجوز لم تبرجت لى وقد بدا منك لعاب يسسيل  
وقد أخذ هذا المعنى من أبى العلاء فى قوله : -  
وفضل الشمس فى الأيام باق وإن مدت من الكبر اللعابا  
وإن قلب ابن سناء المعنى وعكسه .

وتأثر بأبى العتاهية فى قوله : -

أنته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها  
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها (١)

فأخذ ابن سناء هذا المعنى وقال : -

زهت الوزارة باسمه وتوشحت منه بمن لبس الفضائل واتشح  
جاءته خاطبة فكان المصطفى وسعى سواه لها فكان المطرح

والحق أن ابن سناء قد أعجب بالأدب العباسي واغترف منه ، ولكنه اصطفي من أدبائه ابن المعتز فعده أستاذاً ومعلماً تتلمذ على يديه ، كما ازداد إعجابه بالبحرّي . ولا أعنى بذلك أنه لم يتأثر بغيرهم بل اعتمد على الجاهليين أيضاً .

فراه يقتبس منهم تارة ، ويعدو على شعرهم تارة أخرى ، فالنابغة الذبياني يقول : -  
إذا ما غزوا بالبحش حلق فوقهم ككتائب طير تهتدي بكتائب

فيأخذ ابن سناء منه هذه الصورة ويخرجها إخراجاً جديداً فيقول : -

طليعته الوحش الضواري مشيخة 'وساقته الطير الجوانح حـوما  
وأحيانا تروقه الألفاظ فلا يملك إلا أن يأتي بها نفسها كوقفه من زهير ابن أبي سلمى حيث يقول : -  
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم  
فيأخذ ابن سناء تلك الألفاظ ويقول : -

رقى سلما للز أوصله لها فقد نال أسباب السماء بسلم

ويبدو أن ابن سناء الملقب بالملك اطلع على شعر المعاصرين له فأعجب ببعضه ، (١) وتأثر به فظهر كثير من الشبه بين شعر ابن سناء وشعر شمس المعالي وأسامة بن منقذ ، ومما تجده من تشابه واضح في الأصول الفنية بينهما وبينهما : قول شمس المعالي حين سمع أن مصر سوف تخضع للخليفة العباسي ، وينتهي فيها حكم الفاطميين :

ليهنك يا مولاي فتحا تتابعت	إليك به خوص الركائب توجف
أخذت به مصراً وقد حال دونها	من الشرك ناس في لى الحق تقذف
وقد دنست منها المقابر عصبه	يعاف التقى والدين منهم وبأنف
فظهرها من كل شرك وبدعة	أغر غرير بالمكارم يشغف
فعادت بحمد الله باسم إمامنا	تتبه على كل البلاد وتشرف
ولا غرو إن دانت ليوسف مصره	وكانت إلى عليائه تشوف
تملكها من قبضة الكفر يوسف	وخلصها من عصبه الرفض يوسف

يريد بيوسف الأول يوسف الصديق النبي عليه السلام ، وبيوسف الثاني المستنجد بالله الخليفة يومئذ وقاله على

---

(١) هو شمس المعالي أبو الفضائل الحسين بن محمد بن تركان كان صاحب أبي هيرة .



سبيل الفأل ، ألا تراه قال بعد هذا البيت : -

فشا بهته خلقا وخلقاً وعفة وكل عن الرحمن في الأرض يخلف (١)

وجرى الفأل في البيت باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لأن المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبني العباس . وجاء ابن سناء الملك فمدح صلاح الدين وتأثر بهذه القصيدة وبهذا المعنى حين قال : -

أعدت إلى مصر سياسة يوسف وجددت فيها من سميك موسما  
وأحييت فيها الدين بعد مماته فأنت ابن يعقوب وأنت ابن مريم

وحين تقرأ مدائح أسامة بن منقذ (٢) (٤٨٨ - ٥٨٤) تحس كأنك تقرأ في ديوان ابن سناء ، فالأفكار والمعاذ والمبالغات التي طبعت عمود الشعر في هذه الفترة واحدة عند الاثنين ، فحين يمدح أسامة بن منقذ «طلانغ بن رزيك» يجعل له الفضل من دون الناس جميعا ، فهو أكرم من حاتم ، وهو قد تكفل للإسلام بمنع حماه ، وهو هادم ما بناه الكفر ، وعزمه القوى يحمي سرحة الإسلام ، وهو قد أيد الإسلام بعدله ، وببذله ، وبتقواه ، وهذه المعاذ شاعت في مدائح ابن سناء ، فاستمع إلى أسامة يقول : -

لك الفضل من دون الورى والأكارم فمن حاتم ما نال ذا الفخر حاتم

ومنها : -

تكفلت للإسلام أنك مانع	حماه مبيح ما حمى الكفر هادم
فأصبحت ترعى سرحه بصريمة	من العزم لم تبلغ مداها العزائم
وأيدته بالعدل والبذل والتقى	وضرب الطلا والصالحات دعائم
رميت العدا بالأسد في أجمل القنا	على الجرد تقتاد الردى وهو راغم
يمثل أتى السيل ضاق به الفضا	وضاق على الأعداء منه المخارم
يبارين شهب القذف يحملن مثلها	من الختف للباغى الرحيم رواجم
سرايا كهوج البحر في ليل عنبر	به من عواليهم نجوم نواجم
تسير جيوش الطير فوق جيوشها	لها كل يوم من عداه ولائم
فإن خفض الفرسان للطعن في الوغى	رماحهم انقضت عليها القشاعم
تعرض منها فوق غرة عارض	سحاب المنايا فوقه مراكم

ثم استمع ما قاله ابن سناء في مدح الملك الناصر صلاح الدين : -

لقد نصر الإسلام منهم بناصر يرى مغنا في الدين ما كان مغرما  
يلذ عن البيت المحرم جنده فلولا هم ما كان بيتا محرما

(١) الروضتين : ١٩٧ .

(٢) ديوان أسامة بن منقذ (خط بدار الكتب المصرية) .

ومنها :

إذا ما صلاح الدين سار بجيشه	فليس الحمى إن أمته الجيش بالحمى
تكاثف فيه النقع واستلت الظبا	بآفاقه حتى أضاء وأظلمـا
طليعته الوحش الضواري مشيخة	وساقته الطير الجوانح حوما
يقول الذى يلقاه كم فيه فارسا	فيخبره المهزوم كم فيه ضيغما
وكم فيه من يلقى الكمى مقتنعا	بفرحة من يلقى الحبيب معمما

فما أشد الشبه بين الاتجاهين .

ويكتفى ابن سناء أحيانا باقتباس المعنى كموقفه من ابن أخى أبى دلف العجلي ، والشربف الرضى حيث قال الأول : -

دعبنى أجوب الأرض فى طلب الغنى      فما الكرخ الدنيا ولا الناس قاسم  
وأخذه الثانى فقال : -

ما النيل من ماء الحيا      ة ولا جميع الأرض مصرا (١)

وأحيانا يعدو ابن سناء على صورة مشرقة اشاعر سابق أو على معنى من معانيه الطريفة فيضمه أبياته ، ولكن المدقق وان لحظ وجه شبه الأأنه يستطيع أن يدرك بروز شخصية ابن سناء الملك فى شعره ، فبشار يصف الغبار المتطاير من سنايك الخيل الذى يعقد سحابة كناء فوق الرؤوس فلا يرى فى وسطه الا لمعان السيوف. هابطة صاعدة فيقول :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا      وأسيفنا ليل تهوى كواكبها  
ويحاول ابن سناء أن يأتى بهذه الصورة فيقرب منها ، ولكنه سرعان ما يبعد عنها فيقول فى مدح العادل :

يجر جيوشا يركد النقع بينها	فلم يلقا من بين الأسنة مخرجا
وان أظلمت من نغمه جنبااته	فكم صبح سيف بينه قد تلبجا
وما هو جيش مثل ما يزعم العنا	ولكنه بحر الحديد تموجا
وما ذاك لمع للدروع ولا الظبي	ولكنه جمر العزائم أجججا

فبشار عدسة خياله لامة ، أحاطت بالصورة كاملة فى إطار ضيق ، وأما ابن سناء الملك فعدسته الخيالية متسعة جعلت لهذه الصورة نطافا فسيحا فى الأبيات وأتبعها بظلال من قوة الجيش ودروعه الحديدية ، وتموج هذه الدروع ، ولمعان الدروع والظبي ونار العزائم المتأججة .

وبعد فميدان القول يطول إذا تتبعنا ما وقع فى شعر ابن سناء من أوجه الشبه بين شعره وبين شعر من سبقه من الشعراء ، والحقيقة التى يمكن تأكيدها أن شخصية ابن سناء تظهر واضحة جليلة فى شعره وتنضح فى أسلوبه حتى يمكن أن نبرئه إلى حد كبير من تعمد السرقة ، والاصرار على العدو . وإن كان ابن جبارة قد قام بدراسة

(١) الغيث ١٦ : ٦٨ - ٧٠ .

نقدية لشعر ابن سناء وأتهمه كثيراً بالسرقة وألف كتاباً في نقد شعره أسماه : «نظم الدر في نقد الشعر» إلا أننا لم نعثر لهذا الكتاب على أثر ، وقد أشار إلى ذلك الصفدي في تعليقه على «لاميات العجم»

### آراء النقاد في شعره :

لقد حظى أدب ابن سناء بدراسة مستفيضة في عصره ، فلم يكذب بلقى بالقصيدة حتى يجتمع حولها النقاد والأدباء ، فهذا مادح وذاك قادح ، ذلك يعنى باستخراج جيدها ويتغاضى عما فيها من ضعف أو لإسفاف بل وربما التمس لهذا الضعف أو ذاك الإسفاف وجهاً من الحسن ، أو ناحية من الجمال ، وذلك همه أن يتصيد مردوها وقيبحها ، وغايته أن يبرز نواحي الضعف فيها .. وهكذا كان شأن النقاد والدارسين الذين عكفوا على دراسة شعر ابن سناء يدفعهم النقد الذاتي أكثر مما يحركهم الموضوع . ولعل اهتمام الدارسين بأدبه يرجع إلى قربه من القاضى الفاضل من ناحية وإلى منزلته الاجتماعية التي كان يتمتع بها من ناحية أخرى . وقد حظى ابن سناء بتشجيع القاضى الفاضل ، وإذاعة شعره ، كما يحس المنتصح لخزانة الأدب لابن حجة الحموى أنه من الذين يتعصبون لأدبه ويدافعون عنه ، ويرون له منزلة سامية في الأدب تفوق منزلة كثير من أبناء عصره فلنستمع لآرائهم .

### رأى القاضى الفاضل :

يرى القاضى الفاضل أن ابن سناء له في قصائده آيات محكمات ، وفرائد فاقت المعلقات ، وكتاب فصوص الفصول شاهد على ما نقول ، فقد كتب القاضى الفاضل على أثر القصيدة الفائية التي مطلعها : —  
نظر الحبيب إلى من طرف خفي فأتى الشفاء لمدنف من مدنف

قوله : «وما يرينا من آية إلا هي أكبر من أختها ، وما يجلو علينا عروساً إلا وقد جمع بين حسنهما وبخنها ، وفلما يجمع الحسن والبخت ، ولهذا قيل : وقد تبنى المليحة بالطلاق» وعقائله المليحة لا تطلق ولا تطلق ، وقد علقت العرب أدون منها ، فلا غرو أن هذه بالقلوب تعلق ، وبالصلوع تعنق ، فالمعلقات بعدها زادت على عدتها ، وفضلتها هذه بجودتها وجلتها» ثم يقول : «ولو أن البلاغة حلة لكان لابسها ، ولو أن الشعراء حلبة لكان فارسها ، ولقد أنجب الزمان الذى ولده ، وفخر الوالد الذى ما قضى حقه أن أحبه ، وما أنصرف عن بيت أشهد له بالسبق إلا استأنفت بيتاً أشهد بأنه الأحق ، وكل يدل إلى انقلب بحجة ، ويقف إليه بمقتضى لذة ، ومستطرف بهجة . وكان القاضى الفاضل كما ذكرت يذيع قصائده ، وينشر محاسنه وقد حفظ فصوص الفصول رسالة من القاضى الفاضل تنبئ عن ذلك قال : «..... وقد علم الله ابتهاجى أن أنشأ الزمان مثله ، وتصورى الغاية التي يخرج إليها فضله ، وتهادى الشام وشعراء الوقت هذه القصيدة العينية ، واشتدت إليها الأعين ، وأثنت عليها الألسن ، فاستغربوا الحسن قبل أن ذكرت السن ، فلما ذكرته فمنهم من عرفنى في لحن القول السعيد ، وأبرع من خطابه ، وأحسن من صوابه فإنه كتاب يغنى الكتب والأقلام أوصافاً ، ويشتمل على جواهر حق لخواطرها أن تسمى بخاراً ولتقراطيسها أن تسمى أصدافاً ، عين الله على ذلك الكمال ، والله در تلك الأنفاس التي تستخف عقول الرجال بل عقود الجبال ، وقد لأن الله له ما لأن لنبه عليه السلام من الحديد الذى له بأس شديد ، وأجرى على قلمه ما أجرى على النضار الذى فيه غنى عتيد ، وما وقفت على جديده من قوله إلا انصرف قلبي عن الخليع ، ويفعل بالأعطاف ما يفعل بالغصن الرطيب الريح الخريع ، ولقد أبى للأباء في الآثار ذكراً ، وللأبناء فخراً ، وأرسلها مقلدات ، فأرهفها مجردات ، وأثارها

أوابد ، فنظمها قلائد ، فسار بها من لا يسير مشمراً ، وغنى بها من لا يغنى مغرداً (١) .

ولما مدح «ابن سناء» الملك الناصر بقصيدته النونية التي مطلعها :

أبى صدها أن يجمع الحسن والحسنى      ووجدى بها أن أجمع الجفن والجفنا

وصلت هذه القصيدة القاضي الفاضل وهو في الشام فكتب إليه ، «وصلني من القاضي السعيد قصيدة من نظمه ، وما أعرف كفاءاً لها بفهمه ، وقد حضر جماعة فرأى منهم ما أهمه ونعمه وتحققوا أن البيان قد عصاهم وأطاعه ، وزيادته فيه تنبيه عن الشاعرين القاصرين عن أمده ، ووددت لو سمعناها ليعرف كل منهما أن يومه قد نسخ بعده ، والذي ذكره في القافية ، وأنها مباحدة غير مساعدة ، وجامحة غير جانحة ، وبارزة غير واقدة ، وصحيح لا يعلمه إلا من ركبها فكرلته ، وطالبها فأجلته ، وبالحملة إن محاسنه لا أقيس بها محاسن بليغ لأن البليغ له نادرة لا يلحقها لاحق كما لا يسبقه أبداً سابق ، ومن السعادة أن المثني عليه بالفضل صادق (٢)» .

ومن هذا العرض لرأى القاضي الفاضل نرى أنه لا يقوم على التحليل والتعليل ، وبيان أوجه الحسن ، وإقامة الدليل ، وإنما يقوم نقده على الذوق ، والمحبة لا يرى إلا بعين الحسن ، ويغتر كل ما هو قبيح ، وإن كان القاضي الفاضل قد وجه ابن سناء أحياناً وقام بينهما جدل وحجاج وقد سبق أن تحدثنا عن عدم استحسانه استعمال الشاعر كلمتي (يعزل ويكنس) في قوله : —

صليني وهذا الحسن باق فربما      يعزل بيت الوجه منه ويكنس

فقد قال : «وبيت يعزل ويكنس» أردت أن أكنسه من القصيدة فإن لفظة الكنس غير لائقة بمكانها قبلاً ...» وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

### رأى ابن حجة الحموى :

وكثيراً ما يستحسن ابن حجة شعر ابن سناء ، ويرى أن التقاد والشعراء الذين نقدوه ، وحاولوا أن ينالوا منه إما حاسدون وإما متجنون ، وأن ابن سناء سابق وهم لاحقون .  
لما قال ابن سناء قصيدته التي مطلعها :

تقنعت لكنن بالحبيب المعمم      وفارقت لكن كل عيش مذمم  
وبانت يدي في طاعة الحب والهوى      وشاحاً لخصر أو سواراً لمعصم

علق ابن حجة في خزانته بقوله على البيت الثاني : «هذا هو التشبيب ، ومخلصه من أحسن الخالص ، وقال : لقد أحرز القاضي السعيد قصبات السبق بركة هذه الألفاظ ، وغرابة هذه المعاني ، ولقد خلب القلوب ، وجلا ظلمة الأفهام ، وأظنه من المخترعات (٣)»

ولما مدح ابن سناء الملك الناصر بقصيدته التي مطلعها : —

أبى صدها أن يجمع الحسن والحسنى      ووجدى بها أن أجمع الجفن والجفنا

(١) فصوص الفصول تحت عنوان «فصل من كتاب إلى أبي بنخط ابن الحصين» .

(٢) فصوص : ٧٤ ، ٧٥ .

(٣) غرانة الأدب : ١٥٥

قال في مقدمتها الغزلية : -

تغنى عليها حليها طرباً بها وفاحت فقلنا هذه الروضة الغنا  
فقال ابن حجة الحموى في كتابه خزانة الأدب حين وصف «نوع التهذيب والتأديب» إن هذا النوع ليس له  
شاهد يخصه لأنه وصف بعم كل كلام منقح محرر ، وهو عبارة عن ترداد النظر في الكلام بعد عمله والشروع  
في تهذيبه وتنقيحه ، ثم قال : «رأيت العلامة زكى الدين بن أبى الأصبع قد استحسّن من الشواهد اللائقة بهذا  
النوع قول القاضى السعيد ابن سناء الملك هذا البيت : «تغنى عليها حليها طرباً بها ... الخ» وقال - وقوله  
الصحيح - لو لم تقدم في صدر البيت لفظة مشتقة من الغناء ، حصل بها في البيت من الرونق ما لا يحسن بدونها ،  
وكان البيت خالياً من التهذيب فيوجودها حصل في بيته تصدير وتجنيس واثتلاف وتهذيب ، وانتفى عنه من  
العيوب عدم الاثتلاف ، وقلق القافية ، وبذلك تقدم التهذيب فإنه لو قال : «زهت بأزاهير الجمال وحسنها»  
لظهر قلق القافية ، وتمكين تلك الأولى بسبب تصدير البيت بقوله : «تغنى» (١) .

وعلق ابن حجة على قصيدته : -

سواى يخاف الدهر أو يرهّب الردى وغيرى يهوى أن يعيش مخلداً  
قائلاً : وممن افتن في قصيدة كاملة وتفنى ، وخلص من تفخيم الحماسة والفخر ، إلى رقة الغزل وأحسن ،  
القاضى السعيد هبة الله بن سناء الملك رحمه الله فإنه قسم القصيدة شطرين وتلاعب في ميدان البلاغة بالفنين ،  
وهذه القصيدة تقف دونها فرسان الحماسة ، ويكبو الجواد من فحولها ، ويتثنى من لطائف غزلها من لعبت  
بلطف شمائله خمر لطف شمولها ... وممن حذا هذا الحذو ، ونسج على هذا المنوال ، ومشى فيه على طريق  
ماسلكها أحد قبله الصاحب بهاء الدين زهير - ثم ذكر ابن حجة قصيدة زهير - قال وقد اشتهرت قصيدة  
ابن سناء هذه بين الشعراء والنقاد حتى قال يا قوت الحموى في كتابه إرشاد الأريب : ومن شعره الذى  
سارت به الركبان قصيدته الحماسية الغزلية : -

«سواى يهاب الموت أو يرهّب الردى وغيرى يهوى أن يعيش مخلداً  
والقصيدة طويلة ، كل بيت منها فريدة في عقد ، وشعره كثير وأكثره جيد» .

### رأى الصفدى :

لما قال ابن سناء مقطوعته التى يتغزل فيها بعمياء وكان الشاعر قد أعدها مع مقطوعة أخرى تحديداً ، جاء  
في إحداها قوله :

رأيت منها الخد في جؤذر وناظرى يعقوب في يوسف  
فأشار في الشطر الثانى إلى ذهاب بصر يعقوب في فراق يوسف ، وشبه العمياء بيوسف وشبه عينها بناظرى  
يعقوب ، وقد علق الصفدى قائلاً : هذا البيت الثالث ما له في الحسن وارث ، ولقد تلطّف فيما تخيل ،  
واختلس رقة المعنى وتحيل . وقد ذكر أن الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة أخذ هذا المعنى عنه . (٢)  
وقد علق القاضى الفاضل على أبيات هذه المقطوعة : «بأنها ما سميت بهذا الاسم (مقطوعة) الا لانقطاع

(١) خزانة الأدب : لابن حجة الحموى ، بديع القرآن لابن أبى الأصبع : تحقيق حنفى شرف : ١٥٨ .

(٢) النيث ج ٢ : ١٨٨ .

الخواطر عن مجاراتها ، والأبيات التي هي أحسن ما استقرت عليه أبيات سلمى وجاراتها ، وقرئت إلى أن حفظت ، وأوثررت إلى أن أثمرت ، وعودت ذلك الخاطر الخطار المستولى على أمد الخطار ، وأنشدت :  
كسحق الجاني قد تقادم عهده ورذعته ما شئت في العين واليد (١)

### رأى ابن الدروى :

لما مدح ابن سناء الملك شمس الدولة تورانشاه أخا السلطان صلاح الدين بقصيدته التي مطالعها :  
تقنعت لكن بالحبيب المعمم وفارقت لكن كل عيش مذمم  
تعصب عليه جماعة من الشعراء ، وعابوا هذا الاستفتاح وهجنوه — كما ذكرت سابقا — فكتب إليه ابن الدروى الشاعر المذكور في ترجمة سيف الدولة المبارك بن منقذ من (الكامل)

قل للسعيد مقال من هو معجب منه بكل بديعة ما أعجبا  
لقصيدك الفضل المبين وإنما شعراؤنا جهلوا به المستغربا  
عابوا التقنع بالحبيب ولو رأى م الطائي ما قد حكته لتعصبا (٢)

### رأى العماد الكاتب :

ذكر العماد الكاتب في كتاب الخريدة قال : « كنت عند القاضي الفاضل في خيمته بمرج الدهمية سنة سبعين وخمسائة هجرية فأطلعني على قصيدة كتبها إليه من مصر وذكر أن سنه لم يبلغ عشرين سنة فأعجبت بنظمه ، ثم ذكر القصيدة العينية التي أولها

فراق قضى اللهم والقلب بالجمع وهجر تولى صلح عيني مع الدمع  
ووصل القاضي السعيد بعد ذلك إلى الشام في شهر رمضان سنة احدى وسبعين وخمسائة هجرية في الخدمة الفاضلية ، فوجدته في الذكاء آية ، قد أحرز في صناعة النظم والنثر غاية تلقى عراة العربية له باليمن راية ، وقد ألحقه الاقبال الفاضل في الفضل قبولا ، وجعل طين خاطره على القطانة مجبولا ، وأنا أرجو أن ترقى في الصناعة رتبته ، وتروى بماء الدربة رويته ، وتستكثر فوائده ، وتؤثر قلائده » (٣)

### آراء النقاد والدارسين المحدثين :

ولقد حظى ابن سناء من الأدباء والنقاد ودارسى الأدب الأيوبي في عصرنا الحديث ببعض العناية ، لكونه أحد الشعراء اللامعين في العصر الأيوبي ، فمنهم من خصه بتتف سريعة أو رأى مقتضب يميل فيه إلى الاجمال ويترك التفصيل ، ومنهم من خصه بدراسة موشحاته وحدها ، ولم يتناوله بالدراسة العامة سوى الدكتور عبد العزيز الأهواني ، وإليك بعض الآراء التي تناولته بالدرس :

(١) المصدر السابق .

(٢) وفيات الأعيان ج ٥ : ١١٥ .

(٣) راجع الخريدة .

## رأى الدكتور أحمد بدوى :

لقد أفرد الدكتور أحمد بدوى لشاعرنا صنفحات محدودة ترجم له فيها بقدر ما استدعاه طبيعة البحث وقال عنه : «لقد بدت مقدرته فى الشعر والنثر منه فى وقت مبكر ، وسار على مألوف أهل عصره الذين أغرموا بالمحسنات البديعية ، واقتدى بالقاضى الفاضل الذى كان مغرما بالتورية والاستخدام ، وظهر ذلك كله فى أوائل ما أنشأه من شعر ونثر كهذه القصيدة التى أرسلها إلى القاضى الفاضل يمدحه بها ولم تكن سنه قد بلغت العشرين ومنها قوله :

فراق قضى اللهم والقلب بالجمع      وهجر تولى صلح عيني مع الدمع  
ووصل سعى فى قطعه من أحبه      ولا عجبا قد يهلك النجم بالقطع  
وربع لذات الخال خال وربما      شغلت بهي عن مسائلة الربع (١)

## رأى الدكتور جودة الركابى :

لقد قام الدكتور «جودة الركابى» بتحقيق دار الطراز ، جمع موشحاته ومختاراته من الموشحات الأندلسية ، وقد تعرض فى الحديث عن ترجمته إلى الحديث عن شعره فقال : « كان ابن سناء واقعا تحت تأثير التأنىق اللفظى الذى كان يسيطر على الأدب فى ذلك العصر ، يعجب على الأخص بالشعراء الذين كانوا يهتمون بالصنعة وضروب البيان والبديع ، ولهذا كان يفضل من بين القدماء أبا تمام والبحترى ، ويود لو يستطيع مجازاة ابن المعتز الذى يذكر له بإعجاب هذين البيتين :

وقفت بالربع أبكى فقد مشبهه      حتى بكت بدموعى أعين الزهر  
لو لم تعرها دموع العين تسفحه      لرحمتى لاستعارته من المطر

وكان للقاضى الفاضل أثر عظيم فى توجيهه ، وتكوين أسلوبه الأدبى الخاضع للمدرسة اللفظية وكنت ترى فى خلال مدائحه «صلاح الدين الأيوبي» نفسا عربية مخلصمة تجيش بالاكبار والاعظام والاجلال نحو الرجل الذى صان الديار الاسلامية وطهر بيت المقدس من المغيرين على أرضه ، فترك الشاعر الصنعة والتكلف عفوا ليترك العاطفة تتحدث وترجع نشوى فى أجواء النصر والمجد» . (٢)

## رأى الدكتور عبد العزيز الأهوانى :

ولقد تعرض الدكتور عبد العزيز الأهوانى فى كتابه : «ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار فى شعره» إلى دراسة نماذج من قصائده وأخرى من موشحاته وانتهى إلى : «أن الأصول الفنية والمعنوية التى رجع إليها الشاعر حين كان ينظم قصائده هى التى رجع إليها فى نظم موشحاته ، «الحرص على الجناس اللفظى ، والمقابلة بين المعانى والاعتماد على العقل فى توليد الأفكار وتمثل التراث الشعرى القديم من ناحية التشبيهات والاستعارات ،

(١) الحياة الأدبية : ١٩٦ .

(٢) ديوان دار الطراز تحقيق جودة الركابى (المقدمة) .

ومحاولة الزيادة فيه ، والاضافة في الجزئيات إليه ، ومواصلة ما اصطلاح عليه الشعراء من الشكوى والعتاب ، ومن جعل المحبوب مثلاً أعلى في الجمال من كل وجه وناحية ، ومن الحديث عن الصد ، وعذل العاذلين ، وعذاب المحب وألمه وسهاده وبكائه ، ودلال الحبيب وسطوته ، ومن الحديث عن الخمر والتغزل فيها ووصف لونها وحبيها ، وأثرها في شاربها ، وما تنطوي عليه من لذة ومن الإشارة إلى الرياض وإقامة التشبيهات بين مظاهرها ، وبين أعضاء المحبوبة ، وفي موشحات ابن سناء الملك كما في أشعاره غزل بالغلمان ، وبالأترك منهم خاصة ، وفيهما تردد الناظم بين حياة البدو وحياة الحضر في الحديث عن المعشوق .

أما ما شغف به ابن سناء في ديوانه من حسن التعليل ، ومن المفارقات ومن إيراد ما يشبه القضايا المنطقية ، والحجج العقلية فقد ظل قائماً في الموشحة ولكنه لم يتوسع فيه توسعه في الشعر لأن جهده في تلمس القوافي الكثيرة قد شغله واستنفد بعض نشاطه في الجهد العقلي ولذلك كان تجديده في المعاني ، وابتكاره فيها أوضح في شعره منه في موشحاته (١) .

### رأى الأستاذ عمر الدسوقي :

تحدث عنه الأستاذ غير أثناء عرضه لقصائد الحماسة في الشعر العربي وهو يرى أن شعره كان أصبغ حدوداً من أن يمثل أجداد صلاح الدين الحربية وبطولاته التي تكسرت عليها سيوف الصليبيين وما كان أحوج هذه البطولة لشاعر من طراز المتنبي أو أبي تمام ليتقابل شاعر اللفظ مع شاعر المجد ، ولكن الشعر العربي كان قد تحول عن قوته وروعه القديمة ، وأصبح تكراراً مملاً لمعان محفوظة ، ولم يعد همّ الشاعر الكبير مثل ابن سناء الملك إلا أن يخرج هذه المعاني والصور لإخراجاً جديداً ، فإذا هولا يصل إلا إلى ضروب من التكلف الواضح على نحو ما تراه في الأبيات الآتية إذ يقف ليصور لنا جمال صلاح الدين وأنه كيوسف النبي حسناً وبهاء .

لم تقف قط في المعارك إلا كنت يا يوسف كيوسف حسناً

قمت في ظلمة الكريهة كالبد رساء والنور يسطع وهناً

وحين قال : « إن الدماء جرت منهم أنهاراً أبى إلا أن يستكمل الصورة فجعل جثث القتلى سفناً ، وهى صورة باد عليها التكلف الشديد ، ومثلها « وليمة الوحش التي رقص فيها المشرقي وغنى :

وجرت منهم الدماء بحاراً فجرت فوقها الجزائر سفناً

صنعت منهم وليمة عرس رقص المشرقي فيها وغنى (٢)

### رأى الدكتور محمد زغلول سلام :

لقد أطلق الدكتور محمد زغلول سلام على شاعرنا لقب « الشاعر الرقيق المقتن » وقد قال عنه : « إن شعره رقيق تغلب عليه الصنعة ، ولكنها صنعة قد تروق أحياناً ، فتكون خفيفة مقبولة حسنة الوقع في النفس ، وقد تثقل بعض الأحيان فتبدو سميكة متكلفة ، وأكثر ما يجيد ابن سناء في الغزل والوصف » (٣) .

(١) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار : ٢١١ - ٢١٣ .

(٢) الحماسة : ١٠٤ لعمر الدسوقي وآخرين .

(٣) راجع « الأدب في عصر صلاح الدين : ٣٦٥ .



## رأى الدكتور محمد كامل حسين :

يرى الدكتور محمد كامل حسين : « أن فن القاضى الفاضل قد أثر تأثيراً قوياً على فن ابن سناء الملك ، وكلاهما أواع بالزينة اللفظية ، وكلاهما أفرط فى التلاعب اللفظى ، وكلاهما بلغت به المبالغة إلى حد الاستحالة ، فلذلك قال القدماء إن ابن سناء الملك من مدرسة القاضى الفاضل ، فكل خصائص تلك المدرسة تظهر بجلاء فى فن ابن سناء الملك مع ما حدث من إفراط فى استخدام تلك الخصائص ، ويظهر أن ابن سناء الملك كان مثل القاضى الفاضل تماماً كانت له ثروة لفظية استطاع بها أن يتلاعب ، وأن يكثُر من التوريات ، فالتورية أصل من أصول فن ابن سناء الملك كماهى أصل من أصول الفن عند القاضى الفاضل فى النثر والشعر » (١) ؟

قال ابن سناء فى قصيدته التى مدح بها صلاح الدين بعد فتحه نابلس البيت رقم ٨ ص ٢٦٩ .

بشوك القنا يحمون شهد رضاها ولا بد دون الشهد من إبر النحل

ذكر الصفدى فى شرحه على لامية العجم أن شرف الدين بن جبارة أورد ما أورد على بعض الأبيات من هذه القصيدة من فساد المعنى ونقضه ثم قال فى هذا البيت : أراد أن يمدحهم فهجاهم بهذا المثل الذى جعله ككفن الميت . لأنه جعل طعن رماحهم كإبر النحل ، وإبرة النحل لا أثر لها ولا ألم يحصل منها ولو أن كل عاشق إنما يمنعه من معشوقه ويحجزه عنه لسع الزنا بىر ولدغها لسهل عليه صعبها ، وذل له منعها ، والله در المجنون إذ يقول :

وحقكم لازرتكم فى دجنة من الليل تحقبنى كأنى سارق  
ولا زرت إلا والسيوف هواتف إلى أطراف الرماح عواشق

ولأبى عبد الله عثمان المعروف بابن الحداد الأندلسى :

إنى أراع لهم وبين جوانحى شوق يهون خطبهم فيهبون  
أو هل يهاب ضرابهم وطعائهم صب بألحاظ العيون طعين  
وكأنما بيض الصفاح جداول وكأنما سمر الرماح غصون

ثم ذكر أشياء غير ذلك وقال : لولا وقوع هذا الشاعر فى شعره وقلة معرفته ، وقصور فكره لما قال : « بشوك القنا يحمون شهد رضاها » وكيف يحمى الشهد بالشوك . ولو اتفق له أن يقول : جنى رضاها لكان أسوغ وأبلغ ثم قال فى أول البيت : وفى آخره « شهد » وإنما الأحسن أن يأتى بالمثل بالمعنى لا باللفظ لأنه إذا كرر بلفظه فكأنه هو ، وإنما القصد أن يكشف المعنى بلفظ موجز وقول مجموع معجز ، وإذا تؤمل أكثر الشعر المضمن للأمثال وجد على هذا المثل وهذه العلوم تدق عن فهمه ، ويخفى غرضها عن مرمى سهمه . انتهى ، ثم قال الصفدى : أما كونه يدعى : أنه لا ألم فى إبر النحل ولا ضرر فى الزنا بىر فهذا مما لا يسمع وهو تحامل ليس فى إبر النحل والزنا بىر سماً يمنع القرب منه والدنو إليه ، وغالب الناس يهاب ذلك ولا يقدم عليه . ومن مسائل النحاة : « كنت أظن العقب أشد لسعاً من الزنبور فإذا هو هى ، أو فإذا هو إياها .

ولعل بعض الناس لسعه زنبور فتورم منه ومات ، وبالجمله في إبر النحل سم تعاف النفوس الإقدام عليه ، وهو ما أراد أن طعن قومها مثل لسع إبر النحل كما قال المصري :

وأضعف الرعب أيديهم فطعنهم بالسهمرية دون الوخر بالإبر

لأنه ما أتى بمثل ولا بكاف التشبيه بل نبه بالمثل الذي ذكره على أن حلاوة ريقها لا تنال إلا بعد مشقة وعناء وأهوال ، كما أن الشهد من دونه إبر النحل ، وكل لذيد محضوف بالألم فالجنة حفت بالمكاره وهذا غير وارد عليه . وأما إنكاره شوك القنا فهو استعارة حسنة والتشبيه مطابق لأن الأسنه أشكال مستدقة ملمسه حادة كما هو الشوك ، وأتى بها ليطابق الكلام المثل في قوله : « ولا بد دون الشهد من إبر النحل » فقوله شوك يناسب إبر النحل وقد شبه الشعراء القنا بالشوك ، قال الأرجاني :

ورد الخلود ودونه شوك القنا فمن المحدث نفسه أن يجتنى

وقال ابن خنواجه :

والخيل تعثر في شبا شوك القنا وتظل تسبح في الدم المـسـوار

وما أعجبني شيء مما أورده عليه غير إنكاره تكرار الشهد وكان الأحسن لو قال : « بشوك القنا يحمون رشف رضاها » انتهى كلام الصفدي (١) وأما المعراع الأخير من كلام المتنبي حين مخاطب العاذلة في قصيدته :

تريدين لقيان المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من إبر النحل

فيقول لا يمكن حصول المعالي رخيصة ، ومن أراد جنى الشهد فعليه أن يقامى لسع النحل ، فلا تحصل حلاوة الشهد إلا بعد مقاساة اللسع (٢) .

## مشادة ثانية :

وقال ابن سناء في قصيدته التي يمدح بها صلاح الدين بعد فتحه نابلس

لما ناظر يا حيرة الظبي إذ رنسا به كحل ناداه يا خجلة الكحل

وقد عاب هذا البيت ابن جبارة من ناحيتين الأولى : أنه قال : « يا حيرة الظبي ولم يخار مع وجود المقاربة وعدم المبانيّة؟ » كما أنه جعل العلة في حيرته وجود الكحل إن هذه قريحة ونكرة غير صحيحة . وهذا إن سلم له . فهناك مأخذ آخر وهو أنه استعمل « إذ » شرطية تدل على الجزاء وليست هي من حروف الشرط والجزاء وهل ينبغي أن يقول قائل : « إذ يقوم زيد قام عمرو ، ويريد بذلك التعليق .. ولكنه أراد أن يتلد المتنبي في قوله : « وليس التكلل في العيين كالكحل » فأخفق وقال ابن سناء بعد هذا البيت : وأثقلها الحسن الذي قد تكاثرت : ملاحظته حتى تثنت من الثقل . فقال ابن جبارة : « هذا قلب للمعنى وذلك أن الحسن فيما يظهر هو رونق يكون على محيا شخص فيستحسن به . والملاحه وهي وإن كانت البياض في الأصل فهي في الاستعمال صفة صورة الذات من الحاجب والعين والأنف والفم ، ولهذا يقال في العرف : مليح حسن ، يعنى أن الذات مكمله بالملاحه في صورة

(١) الفيت الجره الأول ص ٢٢٤

(٢) الديوان المطبوع : ٥٦٢

مستحسنة عند تأملها بلوغ الأمل ثم قال ولا ينبغي أن يقال هو حسن مليح لأنه يجعل الوصف الذاتي تبعاً لغيره ، وكان الصواب أن يقول : أثقاتها الملاحاة التي تكاثر حسناتها ولكنه قال : « حتى تثبت من الثقل » ورفع الثقل أليق بالبيت وبصنعه فلا يقال له أهويت ولا أوهيت ، وهل يتثنى الإنسان من الثقل ؟ إنما يمشى قطعة واحدة في حال الثقل ، ثم قال : وقد وكلت شرح هذا البيت لعمجزي عن معناه إلى عريف الحماليين فعساه يعرف معناه ! ولقد أحسن الأعشى حيث يقول :

كأن مشيتها من بيت جارتها  
مر السحابة لاريث ولا عجل

وقال بشار :

إذا قامت لحاجتها تثنت كأن عظامها من خيزران

ثم قال الصفدي : « هذا لعمرى نقد حسن ، وسبيل ألقى إليه العنان والرسن ، ولو كان لي في البيت الأول حكم لقلت : « لها ناظر يا حيرة الطيبي عنده » وخلصت من « إذا » وعدم وضعها للمجازاة ، وأما قوله : « وأثقلها الحسن » فابن جبارة معذور فيه لأن حسنا يثقل صاحبه سمج بارد غث لأن الحسن إنما يفيد الخفة . والحركة والنشاط ، وما مدح شيء بالثقل غير الأرداف ، وما يتركها الشعراء بل يقرنونها بخفة الخصر ، ورشاقة القدم » (١) .

### معركة ثانية :

لما قال ابن سناء قصيدته التي مدح فيها القاضي الفاضل والتي مطلعها :

باتت معانقتي ولكن في الكرى  
أترى درى ذاك الرقيب بما جرى

جاء فيها قوله :

يقرى الضيوف شعاع تبر أحمر  
ولقد سمعت وما سمعت بواهب  
فشعاع ذاك التبر نيران القرى  
جلت مواهب كهم أن تشكروا

قال ابن جبارة عن قوله « يقرى الضيوف » : ألم ابن سناء أولاً بقول ابن عمار :

قدح زناد المجد لا ينفك من  
نار الوغى إلا إلى نار القرى

وزاحم فيه أبا الطيب في قوله :

تركت دخان الرمث في أوطانها  
طلبا لقوم يوقدون العنبر!

وقوله : « الضيوف شعاع تبر أحمر » والتبر لا يكون إلا كذلك ، وإنما قصد المبالغة وشبه ذلك بشعاع النار التي توقد على البقاع ليهتدى بها الحيران ، وتهتدى إلى موضعها الضيفان وقد جعله يدفع إلى الضيوف صلة الأنعام ، وينعمهم من الطعام ، وكهم من ضيف يتمتع من أخذ ذلك ويعده عيباً شنيعاً . هذا ما قاله ابن جبارة .

أما الصفدى ف يرى أن ذلك النقد تعنت زائد من ابن جبارة فليس للبيت علاقة بما قاله ابن عمار ، ولا بقول أبي الطيب ، نعم لو قال : نظر إلى قول أبي الطيب :  
ومللت نحو عشارها فأضافني من ينحر البدر النصار لمن قرى  
لكان فيه بعض سرقة .

وأما قوله : « التبر لا يكون إلا أحمر » فلا نسلم له بهذه الدعوى لأن التبر ما كان من الذهب غير مضروب ، والشاعر هنا ما أراد إلا الذهب المضروب ، ولكنه قال « تبرا » مجازا والذهب منه ما يكون أحمر ومنه ما يكون أخضر ، ومنه ما يكون أصفر ، وهذا أمر يشاهده الحس ، ولولا أن ذلك لازم لما قيل في بعض المواطن : الذهب الأحمر ، كما يقال « الثلج الأبيض » . وما بقى له من النقد عليه إلا قوله : « إن الأضياف فيهم من لا يقبل الأنعام » وهذا نقد حسن فالضيف قد يكون أكبر قدرا من أضافه ، وأجل نعمة وأشرف همة ، ولا كذلك العفاة فلأنهم لا يكونون إلا دون من يسألون ويستعطون فلو قال : « يقرى العفاة » لزال الإيراد مع أن فيه نظراً من إثبات القرى ، ويمكن أن يجاب بأنه خصص هذا القرى بالأضياف الذين يسألونه ويستعطونه (١) ( وما أورده الصفدى ردا على ابن جبارة في هذا المقام هو ما نميل إليه غير أن الاعتذار عن الشاعر بأنه يمكن تخصيص القرى بالأضياف الذين يسألونه ويستعطونه فيه تمحل ظاهر إذ أن الأضياف ليس من صفاتهم السؤال والاستعطاف ) .

### معركة أخرى

لما قال ابن سناء قصيدته الفائية التي مدح بها صلاح الدين جاء في مقدمتها الغزلية :  
لا أرتضى بالشمس تشبيها لها والبدر بل لا أكنى بالمكتنى  
وهو يشير إلى قول ابن المعتز :

والله لا كلمتها ولو انتهـا كالبدر أو كالشمس أو كالـمكتنى

فتعنت عليه ابن جبارة وقال : هذا نوع من الجنون والاختلاط ، ذلك أن الشاعر كثيراً ما يسمع الشعر ويختلط في ذهنه فيفهمه على غير معناه ، فابن المعتز كان يقصد أنها في حسنها كالشمس التي هي آية النهار ، أو كالبدر الذي هو آية الليل ، أو كالـمكتنى الذي هو خليفة الأرض في عظم الشأن وكبر السلطان فنقله هذا الشاعر إلى الحسن ، ولم يكن المكتنى إلا أسمر أعين قصيراً ، وليست هذه من صفات الحسن ، وقد أخطأ ابن سناء الفهم ، ونقل هذا المعنى على الحسن ويصدق في هذا المقام قول ابن السجناء :

الشعر كالروض ذا ظلام وذا خضـل أو كالصوارم ذا ناب وذا خصم  
مثل العرائن هذا حظه خنـس يزرى عليه وهذا حظه شمـم

هذا ما قاله ابن جبارة :

ثم انبرى للرد عليه الصفدى قائلاً : ليس ابن سناء مما يخفى عليه هذا الذى ذكره وإنما ذكر ابن المعتز المكتنى

(١) النيث : ج ١ : ٢٦٤ لمز الدين بن عبد السلام .

خروجاً إلى المديح بعلاقة الحسن ، وما زال الشعراء يصنفون الممدوح بالحسن والصباحة والطلاقة ، ويشبهونه بالشمس والبدر والصبح ، وذلك مشهور لا يحتاج إلى شاهد يؤيده ، وإنما قول ابن المعتز قد شاع وذاع وملاً الأسماع ، وسار وطار في الأقطار بالاشتهار ، فلما ذكر ابن سناء الملك حسن محبوبته وذكر الشمس والقمر والقافية فائية كان المكتنى جالساً في طريقها ، وكان في ذكره إشارة إلى قول ابن المعتز مع زيادة الجناس فقال :

بل لا أكتفى بالمكتنى الذى جعله ابن المعتز غاية في الحسن عنده لأنه انتقل من أدنى إلى أعلى. ألا ترى أن قول ابن سناء الملك فيه « بل » التى هى للإضراب ، وهذا غاية في حسن النظم والتلاعب بالكلام ، وما ينكر هذا إلا من ليس له ذوق بالأدب ، فانه قد جاء هذا النوع كثيراً في كلام المتأخرين ، أنشدني صفي الدين الحلي سنة إحدى وثلاثين وسبعمئة :

يقبل الأرض عبد من عبيد كمو عليكمو بعد فضل الله يعتمد  
ما دار مية من أسنى مطالبه يوما وأنتم له العلياء فالسند (١)

وابن جبارة قد جاوز الحد في تعنته على ابن سناء الملك ، وأنكر دلالة التاريخ متعمداً ليؤكد زلات الشاعر . فقد ذكر أصحاب التاريخ أن المكتنى كان وسيماً مليحاً بديع الحسن خمري اللون معتدل الطول ، أسود الشعر (٢) . وأما البيت المنسوب إلى ابن المعتز فلا يوجد في ديوانه الذى بين أيدينا ، وذكر ياقوت (٣) أن الثعالبي نسب هذا البيت إلى ابن المعتز ، وهو في الحقيقة لأبى بكر محمد بن السراج النحوى ثم ذكر هذه القصة في ترجمة ابن السراج (٤) : « حكى أن أبا بكر بن السراج كان يهوى جارية فجعته فانفق وصول الإمام المكتنى في تلك الأيام من الرقة فاجتمع الناس لرؤيته فلما شاهد أبو بكر جمال المكتنى تذكر معشوقته وجفائها له فأنشد بمحضرة أصحابه :

ميزت بين جمالها وفعالها فإذا الملاحاة بالخيانة لا تنى  
سلفت لنا ألا تخون عهودنا فكأنما حلفت لنا ألا تنى  
والله لا كلمتها ولو انتهال كالبدر أو كالشمس أو كالمكتنى

ثم إن أبا عبد الله محمد بن اسماعيل بن زنجي الكاتب أنشدها لأبى العباس بن الفرات وقال هى لابن المعتز ، وأنشدها أبو القاسم بن عبيد الله الوزير فاجتمع الوزير بالمكتنى وأنشده إياه ، وقال للمكتنى هى لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر فأمر له بألف دينار فوصلت اليه فقال ابن زنجي ما أعجب هذه القصة يعمل أبو بكر بن السراج أبياتاً تكون سبباً لوصول الرزق إلى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فيظهر من هذه الواقعة أن ابن السراج عمل هذه الأبيات بعدما شاهد جمال المكتنى وأراد في قوله إظهار صفة حسنة وجماله فيثبت أن زعم ابن جبارة في خروج الشاعر إلى المكتنى كونه خليفة الأرض في نظم الشأن ، وكبر السلطان ظن من الظنون لا تؤيده الحقائق ، ونسج على هذا المنوال الكاتب الشهير صاحب بن عباد في قوله :

(١) شرح لامية العجم للصفدى : ج ١ : ١٢٨ .

(٢) دول الإسلام للذهبي : ج ١ : ١٤١ راجع أيضاً : فوات الوفيات ترجمة المكتنى .

(٣) ارشاد الأريب : ٢ : ٣٣٢ لياقوت .

(٤) ارشاد : ج ٧ ص ١٠ . وقد نقله عنه محقق الديوان المطبوع ص ٤٧٩ .

والله لا راجعته ولو انه كالبدر أو كالشمس أو كبويه

فعدى اقتباس ابن سناء الملك أحسن من اقتباس صاحب بن عباد . ولا شك أن رأى الصفدى له وجاهته وحسنه ، فلا ضير أن يكون المكتفى غاية في الحسن والبهاء كما يمكن أن يكون غاية في المترلة وعظم السلطان ... سواء أنسبت هذه الأبيات إلى ابن المعتز أم إلى غيره .

هذه بعض الآراء التي قيلت في دراسة شعر ابن سناء الملك وموشحاته ، وقد اكتفينا بذلك عن غيره من الآراء التي لا تعدو هذه الآراء ولا تزيد عليها .

### (٣) ابن سناء الملك في موكب الأدب العربي :

ظهر ابن سناء الملك في عصر عرف كثيراً من الأدباء ، ككتاب وشعراء في مصر وفي الشام وفي العراق ، فقد عاصر في مصر ابن قلاؤس المتوفى سنة ٥٦٧ هـ وكان شاعراً مجيداً ، وكمال الدين ابن النبيه المتوفى سنة ٦١٩ هـ ، والمهذب بن الزبير المتوفى سنة ٥٦١ هـ وعمارة التميمي المتوفى ٥٦٩ هـ . وأسامة بن منقذ المتوفى ٥٨٤ هـ ، وابن الدروى وابن المنجم ، والاربلى ، وابن شمس الخلافة المتوفى ٦٣٢ هـ ، وعمر بن الفارض المتوفى ٦٣٢ هـ ، وجمال الدين الجزار شاعر القسطنطينية ، وابن مطروح المتوفى ٦٤٩ هـ وابن أبي الأصبع العدواني المتوفى ٦٥٤ هـ ، وسيف الدين الباروتى المتوفى ٦٥٦ هـ ، وبهاء الدين زهير المتوفى ٦٥٦ هـ .

كما ظهر في الشام في هذا العصر كثير من الشعراء منهم ابن الساعاتى المتوفى ٦٠٤ هـ . وبهرام شاه بن فروخ شاه المتوفى ٦٢٨ هـ ، والشواء الحلبي المتوفى ٦٣٥ هـ وأمين الدين الحلبي المتوفى ٦٤٣ هـ ، ونور الدين الأسعردى المتوفى ٦٥٦ هـ (١) وصدر الدين البصرى المتوفى ٦٥٩ هـ .

وقد تعددت ألوان الشعراء ومذاهبهم في هذا العصر فمن شعراء فنيين ، اتخذوا الشعر حرفة لهم ، يعيشون على ما يدره عليهم من رزق كالقيسراى ، وابن منير والعرقلة ، وابن النبيه . ومن شعراء جعلوا الشعر أداة يعبرون بها عما يجيش في أنفسهم لا يريدون على شعرهم مالا ولا جزاء كالشعراء من الملوك والأمراء والوزراء . ومن هؤلاء الشعراء من ينحدر من العرب الخالص ، ومن ينحدر من الأتراك أو الأكراد أو القبط ، فالشاعر حسام الدين خشتين كان جندياً كردياً .

في وسط هذا السيل الجارف من الشعراء والأدباء لمع ابن سناء الملك ، وقد ظهر نبوغه وهو لما يتجاوز العشرين من عمره حتى كتب عنه العماد الكاتب في خريدته حين اطلع على قصيدته التي مطلعها :

فراق قضى اللهم وانقلب بالجمع وهجر تولى صالح عني مع الدمع

وكان ابن سناء قد كتبها وهو في مصر ثم سافر إلى الشام ليلتحق بالخدمة القاضية ، فكتب عنه العماد : « لقد وجدته في الذكاء آية ، قد أحدث في صناعة النظم والنثر غاية ، تلمى عراية العربية له باليمين راية ، قد ألحقه الإقبال الفاضل في الفضل قبولا ، وجعل طين خاطره على الفطنة مجبولا ، وأنا أرجو أن ترتقى في الصناعة رتبته ، وتروى بماء الدربة رويته وتستكثر فوائده ، وتؤثر قلائده » (٢) .

وقد كتب عنه القاضي الفاضل كثيراً مما يدل على إعجابه به ، وأنه قد بلغ الغاية في البلاغة ، وأن قلمه قد

(١) راجع : تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان : ١٤ .

(٢) راجع : الخريدة : للعماد الكاتب .

أعطى به الراية « بل إنه قد جعل بعض قصائده كالمعلقات ، ف يرى أن العرب قد علقت ماهر أدون منها ، فالمعلقات بعدها قد زادت على عدتها ، وفصلتها هذه بجودتها (١) .. وهو يعنى قصيدته التي مطلعها :

أجلس لهوى ليس لي منك مجلس لأوحشت لما غاب لي عنك مؤنس

وقد عده ابن خنكان ، أحد الفضلاء الأدباء الرؤساء النبلاء ، وقال عنه ، إنه كان كثير التمتع والتخصص وافر ، السعادة محظوظا من الدنيا ، يجتمع في مجلسه الشعراء المجيدون ، واستحسن من شعره قوله في مدح القاضي الفاضل :

ولو أبصر النظام جوهر ثغرها لما شك فيه أنه الجوهر الفرد  
ومن قال إن الخيزرانة قدها فقولوا له إناك أن يسمع القد

كما استحسن قوله :

لا الغصن يحكيك ولا الجوزدر حسنك مما كثروا أكثر  
يا باسمي أبدى لنا ثغره عقداً ، ولكن كله جوهر  
قال لي اللاحي ألم تستمع فقلت : يالاحي أما تبصر (٢)

وقد بلغ القاضي السعيد أن أبا المكارم هبة الله بن وزير ابن مقلد الكاتب قد هجاه فأحضره إليه وأدبه وشتمه ، وقد تعصب الشعراء لابن سناء فكتب إليه نشو الملك أبو الحسن علي بن مفرج المعروف بابن المنجم .

قل للسعيد أدام الله نعمته صديقنا ابن وزير كيف نظامه  
صفعته إذ غدا يهجوكم منتقما فكيف من بعد هذا ظلت تشتمه  
فإن تقل ما لهجو عنده ألم فالصفع والله أيضاً ليس يؤلمه

فجراً ابن سناء على أن يصفع ابن مقلد ثم يهجو به بعد ذلك ، وتعصب الشعراء لابن سناء ، وتحسينهم صنعه ، يدل على مكانة ابن سناء الاجتماعية ، ومنزلته الأدبية في نفوسهم ، وحرصهم على رضائه .

وإذا نظرنا إلى ابن سناء وجدناه واحداً من ألمع شعراء العصر يرجع في أصوله الفنية والمعنوية إلى مارجع إليها الشعراء وإن كانت له شخصيته وطابعه المستقل وقد ظهرت اتجاهاته الفنية في ديوانه كما ظهرت في موشحاته فأفقد كان حريصاً على الجناس اللفظي ، وعلى المقابلة بين المعاني ، والاعتماد على العقل في توليد الأفكار وتمثل التراث الشعري القديم من ناحية التشبيهات والاستعارات ، ومحاولة الزيادة فيه والإضافة في الجزئيات إليه ، ومواصلة ما اصطلاح عليه الشعراء من الشكوى والعتاب ومن جعل المحبوب مثلاً أعلى في الجمال من كل وجه وناحية ، ومن الحديث عن الصد وعدل العاذلين ، وعذاب المحب وألمه ، وسهاده وبكائه ، ودلال الخبيب وسطوته ، ومن الحديث عن الخمر والتغزل فيها ، ووصف لونها وحببها وأثرها في شاربها وما تنطوي عليه من لذة ، ومن الإشارة إلى الرياض ، وإقامة التشبيهات بين مظاهرها ، وبين أعضاء المحبوبة ، ولقد تغزل في أشعاره وفي موشحاته بالعلماء وبالأئمة منهم خاصة ، كما ظهر فيهما سمات الحضارة وسمات البداءة في الحديث عن المعشوق .

(١) المصدر السابق :

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان .

وقد شغف ابن سناء بحسن التعليل ، وبالمفارقات ، وبإيراد ما يشبه القضايا المنطقية ، والحجج العقلية ، وقد ظل هذا قائماً في الموشحة ، ولكنه لم يتوسع فيه توسعه في الشعر لأنه شغل نفسه بتلمس القوافي الكثيرة ، ولذلك كان تجديده في المعاني ، وابتكاره فيها أوضح في شعره منه في موشحاته (١) .

#### (٤) مدرسة ابن سناء الملك :

لقد اجتهد بعض النقاد ودارسو الأدب الفاطمي والأيوبي أن يلحقوا كل أديب من هذا العصر بمدرسة من المدارس الأدبية ، فهذا يلحق بمدرسة العقائد لأن أدبه قد تأثر بالعقائد الفاطمية ، وذلك من مدرسة الرقة والسهولة لأنه أكثر من الغزل وذلك من مدرسة الكتاب لأنه تأثر باتجاهات الكتاب وطابع الكتابة ونحج القاضى الفاضل (٢) .

ودارس آخر يترع في تقسيم المدارس ناحية أخرى وهي أن هذا الأديب من مدرسة المجددين وذلك من مدرسة التقليديين ؛ فهو من المدرسة الأولى إذا نزع بأدبه نزعة تجديدية في الصور والأخيلة والمعاني ، وهو من مدرسة المقلدين إذا سار على نهج الشعراء الأقدمين في خياله وتصويره وتفكيره (٣) .

ما مدرسة ابن سناء إذن ؟

هل نستطيع أن نلحقه بمدرسة العقائدين ؟ : لقد تأثر شعره تأثراً واضحاً بالعقائد الفاطمية وإن لم يكن شيعي المذهب ؛ فقد ظهرت فيه بعض المصطلحات والعقائد الفاطمية ، واستخدم فيه من غريب الألفاظ ما أدى أحياناً إلى شيء من التعقيد فهو حين يمدح صلاح الدين يقول :

أعدت إلى مصر سياسة يوسف      وجدت فيها من سميك موسماً  
وأحييت فيها الدين بعد مماته      فأنت ابن يعقوب وأنت ابن مريم  
بقيت إلى أن تملك الأرض كلها      ودمت إلى أن يرجع الكفر مسلماً

فالمشابهة بين صلاح الدين وبين يوسف عليه السلام في الاسم حقيقة ولكن الشاعر قد جعله ابن يعقوب وجعله ابن مريم الذي أحيا الدين بعد مماته ، وهذا لا يقبل إلا على أساس واحد وهو الجري على حسب العقيدة الفاطمية التي تؤول الآيات القرآنية التي وردت في المسيح بأن إحياء الموتى معناه نشر الدين ، وإحياء النفوس بالعبادة . ويقول ابن سناء في مدح السلطان على بن صلاح الدين :

مولي الأنام على هكذا نقلت      لنا الرواة حديثاً غير مختلق

فقد نقل الشاعر الحديث النبوي : « من كنت مولاه فعلى مولاه » الذي قيل في علي بن أبي طالب إلى السلطان على متبعاً سنة الشعراء الفاطميين . وكما تأثر ابن سناء بهذا المذهب تأثر غيره ، وشاركوه هذا الاتجاه كابن النبيه وابن لساعاتي وابن مطروح . وبعد . فهل ابن سناء من مدرسة العقائدين ؟ الواقع أن هذه مدرسة قد بدأت في الانقراض انتهاء الدولة الفاطمية حتى لم يعد لها مقومات المدرسة ، وإن ألم ببعض خصائصها الشعراء . وظهر أثرها في شعرهم

(١) ابن سناء ومشكلة المقم والابتكار .

(٢) راجع دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين : ١٨٥ .

(٣) راجع ابن سناء ومشكلة المقم والابتكار للدكتور الأهواني .



لأنهم لم يقصدوا إلى ذلك قصداً ، ولم يكن يعينهم أن يلموا بتلك الخصائص ، وإنما تنساب إليهم خصائصها وطابعها عبر الزمن كبراث متخلف عن الفاطميين الراجلين والذي ينبغي أن نسميه مدرسة هو ما يتجه إليه الشعراء عن عمد ومعرفة بمناهجها وطابعها وخصائصها ، فليس ابن سناء من هذه المدرسة إذن وإن ألم ببعض خصائصها. (١)

هل هو من مدرسة الرقة والسهولة ؟

يرى الدكتور محمد كامل حسين أن هذه المدرسة تعد في العصر الأيوبي امتداداً وتطوراً للفن الذي يلائم الحياة المصرية والبيئة المصرية ، وأنها كانت تضم أكثر الشعراء في ذلك العصر فالألفاظ لينة ، وبحور الشعر مجزوءة أو قصيرة ، ولا يظهر في فنهم أى لون من ألوان التكلف ، وقل أن نجد ألوان الزينة اللفظية إلا ما جاء للتزلف ، وأكثر شعراء هذه المدرسة من الغزليين حتى إن مذهبهم عرف في العصر الأيوبي بالطريقة الغرامية ؛ فقد اهتم هؤلاء الشعراء اهتماماً خاصاً بالمقدمات الغزلية في قصائدهم المختلفة ، ومن شعراء هذه المدرسة البرهان بن إبراهيم بن الفقيه ( ٦٤٠ هـ ) القائل :

ولطف جدى وواحزنى      ممن ألاحظه جهدى ويتعبنى  
بذلت روى فى أدنى تواصله      ذلاً وصبراً وعطفاً وهو يهجرنى  
وكلما رمت منه ما أهر به      عطف السرور انزوى عنى وأحزنى

فالألفاظ سهلة حتى كأن الشاعر يتحدث حديثاً عادياً ، وقد ظن بعض النقاد أن الشعراء يستعملون الألفاظ العامية ، وقد دفعهم إلى ذلك مالمسوه من سهولة الألفاظ ورقتها. ومن شعراء هذه المدرسة أيضاً أمين الدين بن أبي الوفاء المعروف بابن العصار ، وهو من شعراء الملك الكامل بن العادل وهو القائل :

أعندكم أن قلبى      متيم مستهام  
الصبر إلا عليكم      فى كل حال حرام  
لأوحش الله منكم      فقربكم ما يرام

ومن شعرائها هبة الله بن عرام ، والشاعر النفيس أبو العباس أحمد بن أبي القاسم المتوفى سنة ٦٠٣ هـ والبهاء زهير ، وغير هؤلاء ممن ظهروا في هذه الفترة .

وبعد : فهل يمكن أن نعد ابن سناء من أنصار هذه المدرسة .. لقد خص كثيراً من شعره في الغزل بل إن لغزل هو الغرض الثانى فى ديوانه .. وأكثر من ذلك فقد أطال فى مقدماته فى المدايح وجعل الغزل يحتل نصف قصيدة المدح . فحين يمدح القاضى الفاضل يقول :

قتلى لحبكم شهادة      وشقاوتى فيكم سعادة  
وكذاك كفى بالعدو      لى على محبتكم عبادة  
ويح العدو إذا مضى      من عدله فن أعاده  
والنفس تفرق فى معا      داة الأحاديث المعاده  
تم الغرام بكم فلا      نقص عليه ولا زيادة

بأبي وأمي أغيد وإذا اعتبرت وجدت غاده  
خضر الشماثل لين الأعطا ف مستعصى المقاده

وهكذا نجد كثيراً من شعره في الممدح قد صدر بهذا الغزل الرقيق ، ومن أجل ذلك جعله الدكتور محمد زغلول سلام الشاعر المقتن الرقيق فعده من شعراء هذه المدرسة وإن لم يفصح عن ذلك صراحة (١) أما الدكتور محمد كامل حسين فقد جعله من مدرسة الشعراء الكتاب . فما معالم هذه المدرسة ولماذا عده من أنصارها ؟

### معالم مدرسة الكتاب :

لقد كان شعراء هذه المدرسة يخضعون للاثجاهات الفنية التي يخضع لها الكتاب ، وكان فنههم يقوم على الموسيقى اللفظية قبل كل شيء ، واختيار الألفاظ الفخمة الجزلة ذات الوقع الضخم والجرس الموسيقي الذي يؤثر في السمع مع حلاوة الإيقاع ، وكانوا يتلاعبون بهذه الألفاظ تلاعباً تظهر فيه أثر الصناعة وأثر التكلف ، وكانوا يحلون فنههم بالزينة البديعية من جناس وطباق وتورية ، ومراعاة نظير إلى غير ذلك من ألوان البديع والبيان . ومن أنصار هذه المدرسة القاضي الموفق وابن الخلال وابن أبي الشخباء ، والقاضي الجليس وابن الزبير ، وعمار اليمني في العصر الفاطمي ، وفي الأيوبي : الأسعد بن مماتي ، وابن المرصص ، وابن عرام ، وابن ظافر على أنهم التقوا مع مدرسة الرقة والسهولة ومعهم ابن سناء الملك .

والواقع أن ابن سناء كان تلميذاً للقاضي الفاضل كما أسلفنا يسترشد بآرائه ويعني بنقده ، وكان يعنيه أن يستجيد شعره ... والقاضي الفاضل كان - كما نعلم - زعيم مدرسة الكتاب في العصر الأيوبي إن لم يكن هو منشؤها ولذا نرى أن ابن سناء الملك قد تأثر به تأثراً كبيراً وإن كانت له شخصيته ، والشعراء الآخرون الذين تأثر بهم وعدهم أساتذة له كابن المعتز وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك .

بقي أن نشير إلى أن ابن سناء كان يحاول الابتكار والتجديد وإن دفعه ذلك إلى نزعة عقلية ابتعدت به أحياناً عن رياض الشعر الموثقة (١) فابن سناء إذن يتزع متزع مدرسة الكتاب وإن تعلق بآثار الأقدمين فاقتدى بهم في كثير من صورهم وتفكيرهم .

---

(١) الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي : ٣٦٥ .

## المراجع

- ١ - إبراهيم سلامة : -  
البلاغة لأرسطو بين العرب واليونان - طبع مطبعة أحمد نجيم بالقاهرة سنة ١٩٥٠
- ٢ - ابن عزارى المراكشى : -  
البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ١ طبع مطبعة المناهل ببيروت سنة ١٩٥٠ .
- ٣ - ابن سعيد المغربى : - أبو الحسن بن سعيد على بن موسى بن عبد الملك ( المتوفى سنة ٦٥٣ أو سنة ٦٨٥ هـ :  
١ - الاغتباط فى حلى مدينة القسطنطاط ج ٢ ( خط )  
٢ - المغرب فى حلى المغرب - طبع ليدن سنة ١٨٩٩ .
- ٤ - ابن مطروح : ( الصاحب جمال الدين أبو الحسن يحيى بن عيسى ) المتوفى سنة ٦٤٩ هـ : -  
ديوان ابن مطروح - طبع القسطنطينية ١٢٩٨ هـ
- ٥ - أحمد أحمد بدوى : -  
١ - الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام - طبع ونشر مطبعة نهضة مصر بالقاهرة سنة ١٩٥٤ م  
٢ - الحياة الفكرية والعقلية فى عصر الحروب الصليبية - مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٢ .
- ٦ - أحمد أمين : -  
ظهر الإسلام الطبعة الثانية طبع مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦١ .
- ٧ - أحمد بن الحسين - أبو الطيب المتنبى المتوفى سنة ٣٥٤ هـ : -  
ديوان المتنبى - مطبعة هندية بالموسكى سنة ١٣٤٢ هـ سنة ١٩٢٣ م
- ٨ - أحمد شلبى :  
تاريخ التربية الإسلامية - دار الكشاف للنشر والطباعة بالقاهرة سنة ١٩٥٤ .
- ٩ - أحمد بن على بن حجر الكنائى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ : -  
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة - طبع الهند سنة ١٣٥٠ هـ
- ١٠ - أحمد بن على المقرئى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ : -  
( ١ ) اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا - تحقيق : د . جمال الدين الشيال دار الفكر العربى بالقاهرة سنة ١٩٤٨ .  
( ٢ ) إغاثة الأمة بكشف الغمة أو تاريخ المجاعات فى مصر - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٠ - تحقيق محمد مصطفى زيادة .

- ( ٣ ) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار — مطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ هـ .
- ( ٤ ) السلوك لمعرفة دول الملوك : تحقيق محمد مصطفى زيادة ج ١ طبع القاهرة سنة ١٩٣١ م
- ١١ — أحمد القلقشندي ( أبو العباس ) المتوفى سنة ٨٢١ هـ : —  
صبح الأعشى — المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٣١ هـ سنة ١٩١٣ م .
- ١٢ — أحمد بن محمد بن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ : —  
وفيات الأعيان : تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد — القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ
- ١٣ — أسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ : —  
ديوان أسامة بن منقذ — مخطوط بدار الكتب رقم ١٣١٣ أدب .
- ١٤ — اسماعيل بن القاسم ( أبو العتاهية ) المتوفى سنة ٢١٠ هـ : —  
ديوان أبي العتاهية — طبعة بيروت سنة ١٨٨٦ م
- ١٥ — اسماعيل بن كثير ( عماد الدين أبو الفدا ) المتوفى ٧٧٤ هـ : —  
البداية والنهاية ج ١٣ — طبع مطبعة السعادة بالقاهرة .
- ١٦ — اسماعيل ( أبو الفدا عماد الدين ) صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ هـ : —  
( ١ ) المجالس المؤيدة ج ١
- ( ٢ ) المختصر في أخبار البشر — المطبعة الحسينية المصرية — الطبعة الأولى سنة ١٩٠٧ م
- ١٧ — بارتولد Bartold : —  
تاريخ الحضارة الإسلامية — ترجمة حمزة طاهر ، طبع دار المعارف سنة ١٩٥٨ م .
- ١٨ — بروكلمان Brouklmann : —  
تاريخ الشعوب الإسلامية — ترجمة الدكتور نبيه فارس ، ومنير البعلبكي — مطبعة الكشاف ١٩٤٩ م  
بيروت .
- ١٩ — جورجى زيدان : —  
تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ — طبع مطبعة الهلال بالقاهرة سنة ١٩١٣ م .
- ٢٠ — حافظ أحمد حمدى : —  
الشرق الإسلامى قبل الغزو المغولى — مطبعة الاعتماد بمصر سنة ١٩٥٠ م .
- ٢١ — حامد عبد القادر : —  
دراسات في علم النفس الأدبى — طبع المطبعة النموذجية بمصر سنة ١٩٤٩ م .
- ٢٢ — حسن ابراهيم حسن : —  
( ١ ) تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب طبع مكتبة النهضة المصرية  
سنة ١٩٥٨ م .

( ٢ ) تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى — مطبعة الاعتماد بالقاهرة سنة ١٩٤٥ م ،  
سنة ١٩٤٦ م .

- ٢٣ — حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف : —  
المعز لدين الله الفاطمى — مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٣ م .
- ٢٤ — الحسن بن عبد الله بن سهل ( أبو هلال العسكري ) المتوفى سنة ٣٩٥ هـ : —  
الصناعتين : تحقيق الأستاذين محمد أبو الفضل إبراهيم — وعلى البجاوى مطبعة الحلبي سنة ١٩٥٢ م .
- ٢٥ — حمزة بن القلانسى — المتوفى سنة ٥٥٥ هـ : —  
ذيل تاريخ دمشق — طبع بيروت سنة ١٩٠٨ م .
- ٢٦ — حنا الفاخورى و خليل الجرجى : —  
تاريخ الفلسفة العربية — بيروت — دار المعارف سنة ١٩٥٧ م :
- ٢٧ — خير الدين الزركلى : —  
الأعلام ج ٢ : طبع المطبعة العربية بمصر ١٣٤٥ هـ سنة ١٩٢٧ م .
- ٢٨ — راشد البراوى : —  
حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين — القاهرة — مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٨ مطبعة  
السعادة بمصر سنة ١٩٤٨ م .
- ٢٩ — سبط بن التعاوى : —  
ديوان سبط بن التعاوى — طبع مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩٠٣ م . تحقيق مرجليوث .
- ٣٠ — السيد الباز العرنى : —  
مصر فى عصر الأيوبيين — القاهرة — مطبعة الكيلانى الصغير سنة ١٩٦٠ م العدد ٢٦٩ من الألف كتاب
- ٣١ — سيدو Sidiau : —  
تاريخ العرب العام — ترجمة عادل زعير — طبع عيسى البابى الحلبي ١٩٤٩ م .
- ٣٢ — شرف الدين أبو المكارم بن أبى سعيد ( ابن مائق ) : —  
قوانين الدواوين — مطبعة إدارة الوطن بمصر سنة ١٢٩٩ هـ .
- ٣٣ — الشهرستانى : — ( أبو الفتح محمد بن أبى القاسم ) المتوفى سنة ٥٤٨ هـ  
الملل والنحل — طبع القاهرة سنة ١٢٨٨ هـ .
- ٣٤ — شوقى ضيف : —  
الفن ومذاهبه فى النثر العربى — القاهرة — دار المعارف سنة ١٩٦٠ م .
- ٣٥ — صلاح الدين الصفدى : — المتوفى سنة ٧٦٤ هـ .  
الغيث المنسجم فى شرح لامية العجم مطبعة بولاق سنة ١٢٩٠ هـ :

٣٦ - طه حسين وآخرون : -

التوجيه الأدبي - طبع المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٥٢ م.

٣٧ - عباس محمود العقاد :

ابن الرومي : حياته من شعره - مطبعة حجازى بالقاهرة - الطبعة الثانية سنة ١٩٣٨ م.

٣٨ - عبد الحى بن العماد الحنبلى : المتوفى سنة ١٠٧٩ هـ .

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب - طبع القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ .

٣٩ - عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ : -

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة - طبع مصر سنة ١٣٢٧ هـ .

٤٠ - عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى المتوفى ٦٦٥ هـ (أبوشامة) : -

(١) الروضتين فى أخبار الدولتين ج ٢ مطبعة وادى النيل بمصر سنة ١٢٨٧ هـ .

(٢) ذيل الروضتين - الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧ م .

٤١ - عبد الرحمن بن محمد المعروف (بابن خلدون) المتوفى سنة ٨٠٨ هـ : -

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر - المعروف بتاريخ ابن خلدون تصحيح غلال القاسى وعبد العزيز لإدريس - مطبعة النهضة سنة ١٩٣٦ م .

٤٢ - عبد الرحمن بن نصر (الشيرازى) : - نبغ فى حلب سنة ٥٦٥ هـ .

نهاية الرتبة فى طاب الحسبة - أشرف على طبعه : السيد الباز العرينى ومحمد مصطفى زيادة . مطبعة  
لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر سنة ١٩٤٦ م .

٤٣ - عبد الرزاق حميدة : -

فى الأدب المقارن - طبع القاهرة ١٩٤٩ م .

٤٤ - عبد العزيز الأهوانى : -

ابن سناء ومشكلة العقم والابتكار - طبع الأنجلو بالقاهرة ١٩٦٢ م .

٤٥ - عبد العزيز القوصى :

علم النفس : أسسه وتطبيقه - مكتبة النهضة سنة ١٩٥٧ م .

٤٦ - عبد العظيم بن عبد الواحد (ابن أبى الإصبع المصرى) المتوفى سنة ٦٥٤ هـ : -

بديع القرآن : تحقيق حنفى محمد شرف - الطبعة الأولى ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م مكتبة نهضة مصر  
بالفجالة .

٤٧ - عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادى - المتوفى سنة ٤٢٩ هـ : -

الفرق بين الفرق - حقق أصوله ، وضبط شكله ، وعلق حواشيه محمد محيى الدين عبد الحميد -

القاهرة - مكتبة محمد على صبيح وأولاده سنة ١٩٦٤ م .

٤٨ - عبد الكريم العثمانى : -

الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص - نشر مكتبة وهبة سنة ١٩٦٣ م .

٤٩ - عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادى الشافعى المتوفى سنة ٦٢٩ هـ : -  
الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة ، والحوادث المعاينة بأرض مصر - طبع مطبعة وادى النيل  
بالقاهرة ١٢٨٦ هـ .

٥٠ - عبد اللطيف حمزة : -

( ١ ) أدب الحروب الصليبية - مطبعة السعادة ١٩٤٩ م .

( ٢ ) الأدب المصرى من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية - مكتبة النهضة المصرية  
العدد ٢٤٢ من سلسلة الألف كتاب ( لم يؤرخ ) .

٥١ - عبد الملك الثعالبي المتوفى سنة ٤٠٩ هـ :

يتيمة الدهر - طبع مطبعة الصاوى ١٣٥٢ هـ ، ١٩٤٣ هـ - الطبعة الأولى .

٥٢ - على إبراهيم حسن : -

مصر فى العصور الوسطى ( من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى ) مطبعة السعادة ١٩٤٩ م .

٥٣ - على أبو بكر المعروف بابن حجة الحموى : - المتوفى سنة ٨٣٧ هـ

( ١ ) ثمرات الأوراق - طبع مصر سنة ١٣٠٠ هـ

( ٢ ) خزانة الأدب وغاية الأرب - طبع المطبعة الأميرية ببولاق . سنة ١٢٩١ هـ .

٥٤ - على بن أنجب بن الساعى : المتوفى ٦٧٤ هـ :-

الجامع المختصر ج ٩ - نشره مصطفى جواد - المطبعة السريانية الكاثوليكية - بغداد سنة ١٩٣٤ م .

٥٥ - على بن بسام الشترينى : المتوفى سنة ٥٤٢ هـ :-

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - إصدار كلية الآداب -

جامعة فؤاد الأول ج ١ بمصر سنة ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ م .

٥٦ - على بن محمد بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ :-

الكامل فى التاريخ ج ٤ ، ٩ الطبعة الأولى سنة ١٣٠١ هـ .

٥٧ - على بن محمد (ابن النبیه) : المتوفى سنة ٦١٩ هـ :-

ديوان ابن النبیه - مطبعة عبد الغنى فكرى سنة ١٢٨٠ هـ - تحقيق عبد الله فكرى .

٥٨ - عمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ هـ :-

النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية - طبع مدينة شالون ١٨٩٧ م .

٥٩ - عمر اللسوقى :-

( ١ ) إخوان الصفا - العدد ١٥ من مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية - طبع مطبعة عيسى البابى الحلبي

١٩٤٧ م .

( ٢ ) الحماسة - نشره مع آخرين ، بتكليف من وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٦٠ م .

(٣) في الأدب الحديث — القاهرة دار الفكر العربى ١٩٦١ م.

٦٠ — عمر بن مظفر المعروف (بابن الوردى) المتوفى سنة ٧٤٩ هـ : —

ديوان ابن الوردى — طبع الجوائب — بالقسطنطينية سنة ١٣٠٠ هـ .

٦١ — قدامة بن جعفر — (أبو الفرج) :

نقد الشعر — تحقيق محمد عيسى منون المطبعة المليجية سنة ١٩٣٤ م بالقاهرة .

٦٢ — مجموعة الوثائق الفاطمية — طبع ونشر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٥٨ م .

٦٣ — محمد بن أبى الرجاء (عماد الدين الأصبهاني) المتوفى ٥٩٧ هـ .

خريدة القصر ، وخريدة أهل العصر ج ١ مصور بدار الكتب رقم ٤٢٥٥ أدب . وقسم شعراء

مصر . تحقيق الأساتذة : أحمد أمين وآخرين مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٢ م .

٦٤ — محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى المعروف بابن جبير المتوفى سنة ٦١٤ هـ : —

رحلة ابن جبير — الطبعة الأولى بمصر ١٩٠٨ م .

٦٥ — محمد بن أحمد الكتبى (ابن شاكر) المتوفى ٧٦٤ هـ : —

فوات الوفيات — مطبعة بولاق ١٢٩٩ هـ .

٦٦ — محمد بن أحمد بن عثمان المعروف (بالذهبي) المتوفى ٧٤٦ هـ .

دول الإسلام — مطبعة دائرة المعارف النظامية بخيدر آباد الدكن بالهند سنة ١٣٣٧ هـ .

٦٧ — محمد جمال الدين سرور : —

(١) مصر في عصر الدولة الفاطمية — مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٠ م العدد ٢٧٤ من الألف كتاب .

(٢) النفوذ الفاطمى في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة — الطبعة الثانية -

القاهرة — دار الفكر العربى ١٩٥٩ م .

٦٨ — محمد خلف الله : —

الثقافة الإسلامية . والحياة المعاصرة — مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٥ م .

٦٩ — محمد زغلول سلام :

الأدب في عصر صلاح الدين — طبع مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية ١٩٥٩ م .

٧٠ — محمد بن سالم بن المازنى التميمى (جمال الدين بن واصل) المتوفى سنة ٦٩٧ هـ : —

مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب ج ١ ، ٢ — إدارة إحياء التراث القديم بإدارة الثقافة العامة

بوزارة المعارف العمومية سنة ١٩٥٣ م .

٧١ — محمد سيد كيلانى : —

الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربى في مصر والشام : طبع دار الكتاب العربى بالقاهرة

سنة ١٩٤٩ م .



- ٧٢ - محمد بن علي بن يوسف بن جلب المعروف (بابن ميسر) المتوفى ٦٧٧ هـ :-  
أخبار مصر : تعليق ونشر جوستاف فت - مطبعة المعهد الفرنسي سنة ١٩١٩ بالقاهرة .
- ٧٣ - محمد كامل حسين :-  
(١) الحياة الفكرية والأدبية بمصر من الفتح العربي حتى آخر الدولة الفاطمية - العمرية سنة ١٩٥٩ م .  
- العدد ٢٤٤ من مجموعة الألف كتاب .
- (٢) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين - القاهرة : دار الفكر العربي طبع سنة ١٩٥٧ م .
- ٧٤ - محمد كرد علي :-  
خطط الشام ودمشق - مطبعة الرقي بدمشق سنة ١٣٥٤ هـ ، ١٩٢٦ م .
- ٧٥ - محمد منصور أحمد :-  
الشرق الأوسط في موكب الحضارة ج ٣ - مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٠ م .
- ٧٦ - محمد بن نصر المشهور (بابن عنين) الأنصارى الدمشقي :-  
ديوان ابن عنين - نشره : خليل مردم - طبع مطبعة دمشق سنة ١٣٦٥ هـ ١٩٤٦ م .
- ٧٧ - محيي الدين بن عربي :-  
فصوص الحكم : تحقيق : أبو العلا عفيفي - طبع مصر ١٩٤٦ م .
- ٧٨ - نصر الله بن محمد بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ :-  
الوشى المرقوم في حل المنظوم - مطبعة ثمرات الفنون سنة ١٢٩٨ هـ .
- ٧٩ - النعمان بن محمد بن حيون المغربي المتوفى ٣٦٣ هـ :-  
ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة - طبع دار الكاتب المصري سنة ١٩٤٩ م بالقاهرة .
- ٨٠ - نعيم الحمصي و خليل الهنداوى :-  
الأدب العربي ونصوصه - طبع مطبعة ربيع بحلب .
- ٨١ - هبة الله بن سناء الملك المتوفى ٦٠٨ هـ :-  
(١) دار الطراز في عمل الموشحات - تحقيق جودة الركاى -- بيروت المطبعة الكاثوليكية سنة ١٩٤٩ م .  
(٢) ديوان ابن سناء الملك .  
(٣) فصوص الفصول وعقود العقول (خط) بدار الكتب .
- ٨٢ - ياقوت الرومى البغدادى الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ :-  
(١) إرشاد الأريب (معجم الأدباء) ج ٢ ، ٧ نشره الدكتور فريد رفاعى سنة ١٩٣٦ م .  
(٢) إرشاد الأريب (معجم الأدباء) ج ١٩ نشره الدكتور فريد رفاعى سنة ١٩٣٨ .
- ٨٣ - يوسف تغرى بردى الأتابكى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ :-  
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٣ م .

- ٨٤ - يوسف بن شداد المتوفى ٦٣٢ هـ :  
النوادر السلطانية ، والمحاسن اليوسفية - مطبعة الآداب بمصر سنة ١٣١٧ هـ .
- ٨٥ - يوسف بن قزأوغلى المعروف بسبط بن الجوزى المتوفى ٦٥٤ هـ : -  
مرآة الزمان ج ٨ طبع حجر بشيكاغو سنة ١٩٠٧ م .

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

- ٦٩ -

التأليف

(٤٨)

الأدب

[٣٩]

القاهرة

١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م

# المكتبة العربية

تصديراً

وزارة الثقافة

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الثن ١٥٠ قرشا